مدامع العشاق

زكي مبارك

الإهداء

إلى تلك النفس التي لا يعنيها من أمري شيء، والتي أخلفت ما أخلفت من الوعود، ونسيت ما نسيت من العهود، والتي شغلت بنعمة المال، والجمال، عما أقاسي من محنة وعذاب، والتي ما أحسبني أطمع في أن تسكن إلي، أو تعطف علي، إلى تلك النفس الظلوم: أهدي هذا السِّفر الحزين!

ولست آمل والحمد لله والحب، أن تتوجه بالقبول، فإن هذا أمل عزيز المنال، وكل ما أصبو إليه: أن تنفحني من أجله بظلم جديد.

فبعض الظالمين وإن تناهى ... شهي الظلم مغفور الذنوب

زكي مبارك

مقدمة الطبعة الأولى

١

بسم الله الرحمن الرحيم

{وفي أنفسكم أفلا تبصرون}؟!

آية كريمة، تذهب فيها النفس مذاهب شتى، ولكني أريدها لمعنى خاص؛ هو الحكم على الأقوال والأفعال.

وبيان ذلك أننا نرى غيرنا يقول، أو يعمل، فنحكم عليه بالبر أو الفجور، فتارة نخطئ، وتارة تصيب. وأكثر ما نكون شططا إذا حكمنا على القول، أو الفعل، من غير أن نحيط خبرا بظروف القائل، أو الفاعل. وهي وحدها محور الخير، والشر، والخطأ، والصواب. فليست كل كلمة يكفر قائلها كما يقول الفقهاء بمكفرة، ما لم تشهد القرائن على أن قائلها معاند جحود، وليست القصائد الخمرية شهادة على قائلها بالإثم ولا قصائد التشبيب رميا لصاحبها بالفسوق، ولكن في الظروف وحدها الحكم بأن الشاعر فاسق أو سكير!

ومتى عودنا أنفسنا البحث في الحالة النفسية للقائل قبل البحث عن مدلول ما قال، واجتهدنا في معرفة ظروف الفاعل قبل تأمل ما فعل من منكر أو خبيث فقد ترفع التهمة عن كثير ممن حكم عليهم بالكفر والمجانة، لكلمة ظاهرها الكفر أو فعل ظاهره المجون.

وليس في ذلك خروج على أصول الدين، فقد قال -عليه السلام-: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى» وليس لمتعنت أن يرد علينا بأن هذا خاص بأعمال الخير، لا الشر. فإنه كما يجوز أن يفسد الخير حين يراد به شر، كذلك يصلح الشر حين يراد به خير، وتبقى التبعة على من يقصرون في إرشاد الناس إلى نتائج أعمالهم، وما لها من الضر، والنفع، لتتماثل النيات والأعمال.

وإذا أباح لك حسن النية أن تحكم على رجل بالصلاح لغلبة الخير على أقواله وأفعاله، من غير أن تلم إلمامة بالأسباب القريبة والبعيدة، لما يعمل وما يقول، وقد تكون نيته سيئة فيحبط عمله، فإن من الواجب أن تنظر بدقة إلى ظروف من ساء قوله وعمله، فقد تكون نيته حسنة فيرضى عنه علام الغيوب.

إن علماء الغرب لا يحكمون على خلق المؤلف إلا بعد أن يتبينوا العصر الذي عاش فيه، والبيئة التي أحدقت به، فنال منها ونالت منه، لاحتمال أن تسود كتابته فكرة كانت في عصره حسنة، وهي في عصرنا سيئة، فنحكم عليه بما هو منه براء.

٢

ولنرجع إلى الآية التي صدرنا بها هذا المقال (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فإني لا أكتم القراء أني وجدت في مذكراتي كلمة لو قرأتها لغيري الآن لأنكرتها عليه. مع أني أعرف أني كتبتها من قبل، وأنا نقي القلب، خالص الضمير. ولقد تبدو تلك الكلمة، وكأنها خطاب مفتوح لأهل الجمال، وهي سذاجة طريفة، تمثل عهدا من عهود الصبا، خيل إليّ فيه أن الحسن يجب أن يكون ملكا لجميع العيون، تستمتع به آمنة مطمئنة لا يمانعها فيه غيور، ولا يحجبها عنه ضنين.

وليس في مقدوري الآن أن أكتب مثل تلك الكلمة، لأني حرمت من تلك السذاجة، واطلعت من الناس على بلايا ومناكر، يلؤم من بعدها الكريم، وحاشاي! وسأفرض الآن أني في العهد الأول من عهود الشباب، وأن الناس كما كنت أحسبهم منذ سنين؛ أطهارا بررة، لا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يتقولون الأقاويل، ولأذكر طرفا من ذلك الخطاب:

«يا أرباب الجمال!

ما لكم تضنون علينا بما سوف يشبع الدود منه لثما، ويأكله التراب أكلا لما؟

كم صائن عن قُبلة خده ... سلطت الأرض على خدّه
وحامل ثقل الثرى جيده ... وكان يشكو الضعف من عقده

أما والله إن أرواحنا لفي حاجة إلى بعض ما تنعم به الوسائد من الخدود، والمراود من الجفون، والمساويك من الثغور، والأمشاط من الشعور، والغلائل من الأعطاف، والزينة من الأطراف .. فلم تحرموننا في حبنا لكم، وإشفاقا عليكم مما تكرمون به الجمال ليلا ونهارا، على أنه لا يعرف ما حف به من حسن، وأحدق به من جمال؟!

يا أهل الملاحة!

إن الله ما خلقكم كالأزهار، في القفار، تزهر، ثم تذبل، ولا يتمتع أحد بشمها، ولثمها، وإنما خلقكم روحا لكل حي، ونعيما لكل موجود، فاجعلوا لنا منكم حظا، ولا أقل من النظر، فقد خفنا على أرواحنا أن تزهق ببخلكم، وتموت بصدكم، وما الله بغافل عما تعملون!!

يا أعلام الحسن!

إن كنتم فطرتم على العزة، وجبلتم على النخوة، فهبونا بعض القرب منكم، والأنس بكم، ولكم منا ما تشاءون من ذلة واستكانة، وخضوع وعبودية، وقد عذرناكم لعزكم، فارحمونا لذلنا، وعشقناكم لحسنكم، فاعشقونا لحبنا، فكفى بالحب جمالا وبالعشق زينة، وإن الحب المملول، لخير من الحبيب الملول، فإن أبيتم إلا الصد والقطيعة، والجفاء والإعراض، فإنا نبشركم بأن الحسن حال تحول، ودولة تدول، ثم يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين!

أوردية الخدين من ترف الصبا ... ويا ابنة ذي الأقدام بالفرس الورد
صلي واغنمي شكرا فما وردة الربى ... تدوم على حال ولا وردة الخد

٣

ولقد يعجب قارئ هذا الخطاب حين يرى كاتبا يعتقد أن الجمال ملك العيون النواظر، وأن البخل به إثم وعقوق، ولكنه لو تروى لعرف أن النفس الطاهرة كثيرة الشطط، وأن صاحبها لا يسلم من الإسراف، ورحم الله ذلك العهد الذي كنت أعيش فيه بأمل غير محدود!!

ليالي لا تنجو بنبلي خريدة ... وإن عز حاميها وجم عديدها
إذا ما رمتني ذات دل رميتها ... بعين لها منها مقيد يقيدها

على أنني لا أمنع أحدا من أن يسيء الظن بما كتبت منذ سنين، فإن الذي يطمع في معرفة النفس البشرية، لا يبخل بوضع نفسه على المشرحة، ليسهل عليه وعلى غيره التحليل، ومثله في ذلك مثل الطبيب المخلص لعلمه، لا يبخل بتضحية نفسه وهو يفحص صرعى السل والتيفوس، فهل يعقل هؤلاء الذين

يطيعون أهواءهم، وشهواتهم، فينسون أنفسهم، ويسلقون إخوانهم بألسنة حداد؟

إن قليلا من الروية والأناة لكاف لسلامتنا من الزلل والعثار، حين الحكم على ما يعمل الناس وما يقولون.

٤

وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل أسرف الكاتب حين هم بنشر مدامع العشاق في جريدة الصباح سنة ١٩٢٢ وافتتحها بهذه الكلمة الجريئة، موجهة إلى إحدى العذارى.

«قضي الأمر، وأصبحت حيًّا كميت، وموجودا كمعدوم! فما ضرني لو أذعت هذا الحب، وما أبقى هواك مني ما أسمع به ملاما أو أرى وجه عذول؟

على أن قلبي يحدثني بأن الإشادة بما بيننا من هوى قد تزيد حقد الحاقدين، وما إلى ردعهم سبيل! وأنت المعنية بهذا الإشفاق، أما أنا فما كنت لأرهب قوما لا سلاح لهم غير القيل والقال.

فليت رجالا فيك قد نذروا دمي ... وهموا بقتلي يا بثين لقوني
إذا ما رأوني طالعا من ثنية ... يقولون: من هذا! وقد عرفوني

وبعد فإنه لم يبق ما أسكن إليه في هذا الوجود غير حديث الحب، وبلايا المحبين، وقد رأيت أن أساير شعراء العرب في أعذب ما جرى على ألسنتهم: وهو النسيب، وأن أبدأ ذلك بما انتهوا إليه، وهو الحديث عن الدموع، وما لها من سبب قريب أو بعيد، حتى إذا هدأت ثورة القلب بعد هذا الدمع المفسوح،

عدت فصاحبت الشعراء، وذكرت كيف فتكت بهم النظرة الأولى، وبينت مهوى عيونهم، ومصرع قلوبهم، بين الخدود الفواتن، والعيون الفواتك، ولن أتحرج من ذكر ما كان من الوقائع بين الخصر النحيل، والردف الثقيل، وعلي وحدي إثم الفتنة التي ستقيمها هذه الأبحاث الشائقة في صدور الشباب والكهول، ولمن شاء السلامة من القراء أن يكف منذ الآن عن قراءة هذا الحديث.

نصحتك علما بالهوى، والذي أرى مخالفتي، فاختر لنفسك ما يحلو

٥

وهذا خطاب أقل ما يؤخذ عليه أنه لا يوجه إلى فتاة، فضلا عما فيه من المجازفة، في حمل إثم الآثمين وفتك الفاتكين، ولقد آذتني آثامي، فكيف أحمل آصار الناس!

ولم يمر ذلك الخطاب بدون أن تضح له إحدى الجرائد الأسبوعية، وبدون أن ينالني أحد الكتاب بلسان حديد، فكتبت في الرد عليهم هذه الكلمة القاسية:

«في مصر قوم لا يعرفون من الجد غير الغطرسة والكبرياء والكاتب الجاد في نظرهم هو الرجل السليط، الذي يخيل إليه كما كتب: أنه قسيس في كنيسة حافلة، أو خطيب في مسجد جامع، فهو مسئول عن سرد الرذائل وعد المنكرات!؟ فأما الكاتب المفتون بما أودع الله هذا العالم من روائع الحسن، وبدائع الجمال، فهو في رأيهم كاتب ماجن خليع!!

ولا أدري بماذا يجيب هؤلاء لو سألتهم من خلق هذه الصور الجميلة، التي طارت بألباب الشعراء؟ وصيرتهم في كل واد يهيمون؟ أتراهم يقولون أنها من خلق الله، أم من خلق الشيطان؟ فإذا كانت من خلق الله، فلم ينكرون علينا أن نتغنى بصنعه البديع؟ وإن كانت من خلق الشيطان، فلم لا يمحون الحسن من وجوه الحسان، لأنه من عمل الشيطان الرجيم؟

آمنت بالله وكفرت بما لهم من منطق مقلوب!

يريد جماعة ممن أظلمت الدنيا في وجوههم، وعموا عن صنع الله الذي أتقن كل شيء، ماذا يريدون؟ إنهم يريدون أن أجاريهم في عمايتهم، وأن أسايرهم في جهالتهم، فلا أكتب في غير ما يروقهم من ذم الدنيا، والتبرم بالوجود!! ولكني عرفت ما لم يعرفوا من «أفنان الجمال» في هذه الدنيا البديعة التي حملت الغزالي على أن يصرح بأن ليس بالإمكان أبدع مما كان، فعدت خليقا بحمد الحسن، والتقديس لهن كلما أمعنوا هم في الجحود!

يقولون إن مدامع العشاق التي أنشرها في جريدة الصباح مما يفسد الشباب، وذلك منهم جهل بأسرار الجمال، وما له من الأثر في تهذيب النفوس، وتثقيف العقول ويهددون ويوعدون بالويل والثبور، إذا أنا مضيت في هذا البحث الشائق الطريف! فهل حسب هؤلاء السفهاء أني أكتب لهم حتى أنزل عند رأيهم السخيف المأفون!

أبينا أن نطيعكم أبينا ... فلا تلقوا نصيحتكم إلينا
ركبنا في الهوى خطرا فإما ... لنا ما قد كسبنا أو علينا
ولو لم يرض ربك ما أردنا ... لما أعطى لنا أذنا وعينا
فما تسآلكم عن كل صب ... كأن لكم على العشاق دينا

٦

إلى هنا وقف القارئ، على ألوان من الخواطر، مرت بخاطر شاب يهم بالتمرد على ما آلف الناس، وما كنت لأذكر هذه التفاصيل لولا بغضي للرياء، فأنا بصريح القول: موكل بالحسن أتبعه، ومغرم بالتغريد على أفنان الجمال. وإني لأقول:

أشجاك ما خلف الستار وإنما ... خلف الستائر لؤلؤ مكنون
والناس في غفلاتهم لم يعلموا ... أني بكل حسانهم مفتون

وأقول:

فيا رب إما رمت لي الخير منعما ... ففي قرب من أهوى وبعد أخي اللوم
وإن كان لي فيما قضيت مساءة ... فحزن على النائين جيرتي القدم
وإن شئت لي يوما جوارك فلأكن ... شهيد الجوى لا نضوهم ولا سقم
وطول حسابي في المعاد على الهوى ... فطول أحاديث الصبابة من همي

وما كان أغناني عن الفزع إلى حكم الأخلاق، لأرجع الخير والشر إلى النيات، لا إلى الأعمال، فقد آن لنا أن نعرف أن من الحق، بل من الواجب، أن ندرس الجمال، وأن نتغنى به، وأن نصفه بالنثر البليغ، والشعر الجميل، وأن نكتب عمن كلفوا بالحسن: من العشاق، والشعراء.

ولقد يروون عن رسول الله أنه قال: (إن الله ليعجب من شاب لا صبوة له) وأنا لا أريد أن يعجب الله مني! وسينكر المتعنتون هذا الحديث، وأنا قبلهم لا أجزم بصحته، ولكني أثق بأنه يقرر حقيقة واقعة، فما كان الله ليخلق الجمال لنعمى عنه، أو لنرمي عشاقه بالإثم والفجور، وهؤلاء المتزمتون الأغبياء لا

يملون من الدعوة إلى الاستمتاع بجمال الطبيعة، لهم الويل! وهل الإنسان إلا لباب الطبيعة، وسرها المكنون؟!

وماذا أصنع بالأشجار، والأزهار، والثمار، والأنهار، والكواكب، والنجوم، والسهول، والحزون، والجبال، والوديان، والطيور الصوادح، والظباء السوانح؟؟

ماذا أصنع بكل أولئك، إذا لم يكن معي إنسان أطارحه القول، وأسجله الحديث، وأساقيه صهباء هذا الوجود؟!

وهذا الإنسان؟ أليس لي الحق في اختياره، قبل اصطفائه، وكيف أختاره إن لم أحكم الذوق، في تمييز جسمه وروحه، وعقله وشعوره، وحسه ووجدانه؟

وما قيمة الليل إن لم تظلني في الحب ظلماؤه؟ وما جمال الأغصان إن لم تهزني إلى ضم القدود، وما حسن الأزهار إن لم تشقني إلى لثم الخدود؟ وكيف أميل إلى الظباء، لو لم تشبه بعيونها وأجيادها، ما للحسان من أعناق وعيون؟ وكيف أصبو إلى غنة الغزال، لولا ذكرى تلك النبرات العذاب، التي يسمونها السحر الحلال؟

وإنك لتعلم أيها القمر، كيف كنت أصدف عنك، وأنا أطالع ذلك الوجه، الذي نعمت معي بثغره المفلج، وأنفه الأقنى، وطرفه الأحور، وجبينه الوضاح، وإنك لتعلم أيها القمر، كيف هجرتك حين غاب، وتعلم أني لا أنظر إليك إلا حين السرار، لأرى كيف يفعل الشحوب بك، وكيف تنال منك الليالي! وإنها لشماتة طفيفة، أحزن من بعدها على خلود متعتك بصباح الوجوه وعلى عودتك لشبابك، في حين أودع كل يوم جزءا من شبابي، وواحسرتاه على ما أودع من أجزاء الشباب!!

لأصبحت نهب الأسى والحزن ... لجسم أقام وقلب ظعن
فيا ويحهم يزمعون الرحيل ... وما زودوني غير الشجن
دموع تحدر فوق الخدود ... كصوب الغمام إذا ما هتن
وقلب يقلب بين الضلوع ... بعيد القرار فقيد السكن
وأصبحت والرأس مرعى المشيب ... قليل السرور كثير الحزن
لعمري لئن شبت قبل الأوان ... لقد شاب حظي وشاب الزمن
كأن الشعور عراها البياض ... سهام الردى أو خيوط الكفن
وإن الشباب إذا ما انقضى ... لكالحلم أقلع عنه الوسن

٧

أما بعد فقد أخرجنا للناس كتاب «الأخلاق عند الغزالي» فرمونا من أجله بالكفر، واليوم نخرج لهم مدامع العشاق؟ وسيرموننا من أجله بالفجور، وسنصبر على عدوانهم حتى نخرج كتاب «آراء الجاحظ الفلسفية والأدبية» وكتاب «أفنان الجمال» ثم نجنح بعد ذلك إلى المتاب!

وقد زعمت ليلى بأني فاجر ... لنفسي تقاها أو عليها فجورها

الملحد الفاجر فيما يزعمون

زكي مبارك

سنتريس في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ هجرية

مذاهب النسيب

أكثر شعراء العرب من الحديث عن الحب، وعن الحسن وتنوعت مذاهبهم في وصف ما يشقى به المحب، وما ينعم به الحبيب!

ويمكن رجع كلامهم في النسيب إلى أصلين اثنين:

الأول - وصف ما يلاقي المحبون من عنت الحب. ويدخل في ذلك كل ما يهيج الوجد، ويثير الدمع، كحديث الفراق، والعتاب، والذكرى، والحنين.

الثاني - وصف ما يرى الشعراء في أحبابهم من روعة الحسن ويدخل في ذلك كل ما تتمتع به النفس؛ والعين، من جمال الأبدان والأرواح، كوصف العيون، والخدود، والثغور، والنحور، والصدور، وكالحديث عن العطف، والرفق، والوفاء والعفاف.

وقد رأيت أن أفصل مذاهب النسيب في وصف ما يشقى به المحبون في كتابه أسميه «مدامع العشاق» وأن أشرح مذاهبهم في الكلام عن الحسن في كتاب أسميه «أفنان الجمال».

وكان الواجب أن نبدأ بطبع «أفنان الجمال» لأنه أوفى وأمتع، ولأن أفنان الجمال، وجدت قبل مدامع العشاق.

ولكن دولة الحسن لا عدل فيها ولا رحمة، فلنتابعها في الظلم، ولنقدم الفروع على الأصول!!

موجبات الدموع

نذكر في هذا الباب حديث الشعراء عن أسباب البكاء، وموجبات المدامع ثم ما يعرفون عن احمرار الدموع بعد أن كانت بيضاء، وابيضاضها بعد أن كانت حمراء!!

وللدموع أسباب عامة، وأسباب خاصة. فأما الأسباب العامة فهي الحرق الدخيلة، والجوى الدفين، وما إلى ذلك من البث والحزن، واللوعة والحسرة، فمن هذا قول العباس بن الأحنف:

ظلمت عيناك عيني أنها ... بادلتها بالرقاد الأرقا
سلط الشوق على الدمع فما ... هب داعي الشوق إلا اندفقا

وما كان له أن ينسب إلى عينيها الظلم، لابتلائه بالسهاد. وخير منه قول صريع الغواني:

أسهر تموني أنام الله أعينكم ... لسنا نبالي إذا ما نمت من سهرا

ولو قال:

رحمت عيناك عيني أنها ... بادلتها بالرقاد الأرقا

لكان أقرب إلى الصدق وعرفان الجميل، فحسب المحب ما أهدته عينه حبيبه من ضنى الجسم، وسهد الجفون. وقال البحتري:

قد أرتك الدموع يوم تولت ... ظُعُن الحي ما وراء الدموع [1]

(١) الظعن والظعائن: جمع ظعينة، وهي المرأة في الهودج.

عـــبرات مـــلء الجفـــون مرتهـــا حـــرق للفـــؤاد مـــلء الـــضلوع [١]
فرقـــة لم تـــدع لعينـــي محـــب منظـــرا بـــالعقيق غـــير الربـــوع

ولا أدري ما الذي أراده البحتري بما وراء الدموع! أهو الدم الأحمر الذي تجود به الشئون عندما تفيض المدامع، أم هي الحرق الدخيلة التي ينبئ عنها الدمع، ويفصح عن مكنونها البكاء! وقال الشريف الرضي:

يقولـــون مـــا أبقيـــت للعـــين عـــبرة فقلـــت جـــوى لـــو تعلمـــون أليـــم
أيـــسمع جفنـــي بالـــدموع وأغتـــدي ضـــــنينا بهـــــا؟ إني إذا للئـــــيم
ولـــو بخلـــت عينـــي إذا لعتبتهـــا فكيـــف ودمـــع النـــاظرين كـــريم

ولعل هذا خير ما قيل في الاعتذار عن البكاء، بذكر موجبه، والداعي إليه، وإنه لشعر بديع. أما الأسباب الخاصة فهي كثيرة. فمن العشاق من يبكي لتلمس الأخبار، كما قال ابن هرم:

وأستخبر الأخبار من نحو أرضها وأسأل عنها الركب عهدهم عهدي
فإن ذكرت فاضت من العين عبرة على لحيتي نثر الجمان من العقد

وإني ليروقني قوله (وأسأل عنها الركب عهدهم عهدي) فإنه يدل على حيرة وولهه، إذ كان يسأل من لا يعلم من أخبارها شيئا، استرواحا بالسؤال عنها، وكذلك يفعل المشوق! ولا يبعد أن يستنكر الغواني فيض الدموع على اللحية في هذا الشعر، لأن الأمر كما قال أبو تمام:

أجلى الرجال من النساء مواقعا من كان أشبههم بهن خدودا

وقاتل الله الشيب، ولا عفا عن جنايته على الشباب!

---

(١) يقال مري الراعي الناقة: إذا مسح ضرعها لتدر اللبن. ويريد الشاعر أن يقول أن اللوعة مرت الدمع، أي حملته على أن يفيض.

ومنهم من يبكي عند ظهور المعالم، أو مطالعة الرسوم. كما قال ابن الدمينة:

هل الحب إلا زفرة بعد زفرة ... وحر على الأحشاء ليس له برد
وفيض دموع العين يا مي كلما ... بدا علم من أرضكم لم يكن يبدو

وما كان الحب زفرة ولا عبرة، كما قال ابن الدمينة - ولكنه شيء به الروح تكلف - وما أحسن قول ابن أسباط القيرواني:

قال الخلي الهوى محال ... فقلت لو ذقته عرفته
فقال هل غير شغل قلب ... إن أنت لم ترضه صرفته
وهل سوى زفرة ودمع ... إن لم ترد جريه كففته
فقلت من بعد كل وصف ... لم تعرف الحب إذ وصفته

ومنهم من يبكي عند الوقوف بالرياض، إذ تذكره رشاقة أغصانها، وحمرة أزهارها، بالقدود الرشيقة، والخدود الوردية، كما قال ابن المعتز:

وقفت بالروض أبكي فقد مشبهه ... وقد بكت بدموعي أعين الزهر
لو لم تعرها الجفون الدمع تسفحه ... لرحمتي لاستعارته من المطر

وهذا النوع من الإسعاد ما عرفه الناس قبل ابن المعتزل فيما أعلم! وإنما كانت تسعد الحمائم ويبكي الرفيق [١].

ومن الشعراء من يبكي عند هبوب النسيم. كما قال بعض الأعراب:

لعمرك ما ميعاد عينيك والبكا ... بدراء إلا أن تهب جنوب
أعاشر في (داراء) من لا أحبه ... وبالرمل مهجور إلي حبيب [٢]

(١) الإسعاد هو المشاركة في البكاء.
(٢) داراء اسم موضع، وكذلك الرمل.

إذا هب علوي الرياح وجدتني كأني لعلوي الرياح نسيب [١]

ومنهم من يبكي لبكاء الحمائم، وهو كثير في كلامهم. ولعل من أبدعه وأروعه قول الشبلي يصف شجو حمامة هاجت شجوه:

رب ورقاء هتوف في الضحى ذات شجو صدحت في فنن [٢]
ذكرت إلفا وعيشا سالفا فبكت حزنا فهاجت حزني
فبكائي ربما أرقها وبكاها ربما أرقني
ولقد تشكو فما أفهمها ولقد أشكو فما تفهمني
غير أني بالجوى أعرفها وهي أيضا بالجوى تعرفني
أتراها بالبكا مولعة أم سقاها البين ما جرعني

وهذه الأبيات من أحسن الشعر تقسيما، وأبرعه تصويرا، ولقد افتتح بها الشيخ علي الجارم خطبته في تأبين المرحوم الشيخ حمزة فتح الله فخرج الناس وهم يقدمونه على سائر الشعراء، ظنا منهم أنها له ولولا الجهل بتاريخ الآداب العربية لما عاش الأحياء على حساب الأموات، ممن حيث لا يشعر الناس!!

ومما ابتدعه المتأخرون في موجب البكاء، ما جعله بعضهم عقابا للعين، جزاء بما أهدت نظراتها للقلب من شجى، وللجسم من نحول، فقال:

لأعذبن العين غير مفكر فيما جرت بالدمع أو سالت دما
ولأهجرن من الرقاد لذيذه حتى يعود على الجفون محرما
هي أوقعتني في حبائل فتنة لو لم تكن نظرت لكنت مسلما
سفكت دمي فلأسفحن دموعها وهي التي بدأت فكانت أظلما

(١) علوي نسبة شاذة إلى عالية نجد.

(٢) الورقاء هي الحمامة، والشجو الحزن، والفنن الغصن ويجمع على أفنان.

وهو مذهب غريب، يدل على مبلغ صاحبه من إدراك الحسن، وفهم الجمال! وإلا فأي عاشق يذكر جناية النظر عليه، ولا يدعو لعينيه بطول البقاء. ولله در القائل:

قالت أترقد إذ غبنا؟ فقلت لها ... نعم، وأشفق من دمعي على بصري
ما حق طرف هداني نحو حسنكم ... أني أعذبه بالنوح والسهر

ومنهم من جعل الدمع غسلا للعين مما زنت بالنظر، فقال:

وقائلة ما بال عيناك مذ رأت ... محاسن هذا الظبي أدمعها هطل
فقلت زنت عيني بطلعة وجهه ... فحق لها من فيض مدمعها غسل

وقال الآخر:

إنسانة فتانة ... بدر الدجى منها خجل
إذا زنت عيني بها ... فبالدموع تغتسل

وهو خيال فقهاء، لا خيال شعراء!!

وقد نظر الأرجاني إلى قول أبي تمام:

بسطت إليك بنانة أسروعا ... تصف الفراق ومقلة ينبوعا [1]
كادت لعرفان النوى ألفاظها ... من رقة الشكوى تكون دموعا

فولد منه معنى لطيفا، إذ جعل دموعه عند الفراق، وقد تحدرت كالآلئ بقية ما نفثه المودعون في آذانه من حديث هو الدر النفيس. وذلك قوله:

لم يبكني إلا حديث فراقهم ... لما أسر به إلي مودعي
هو ذلك الدر الذي أودعته ... في مسمعي ألقيته من مدمعي

(١) الأسروع ويجمع على أساريع دود أبيض أحمر الرأس يشبه به العرب الأنامل الرقيقة.

أما السبب في احمرار الدموع فلم أجد فيه أبلغ من قول صردر:

حتـــام أرعـــى وردة لا تجتنـــي ... في الخـــد أو تفاحـــة لا تلـــثم
أيُـذاد عـن تلـك المحاسـن نـاظري ... ويريـد منـي أن يـسوغها الفـم
في كـل يـوم العيـون وقـائع ... إنـسانها الطـماح فيهـا يكلـم
لـو لم تكـن جرحـى غـداة لقـائهم ... مـا كـان يجـري مـن مآقيهـا الـدم
لم أدر أن الحـب حومـة مـأزق ... تـصلى ولا أن اللـواحظ أسـلم

وهو مأخوذ بلطف من قول مسلم بن الوليد:

يـا واشـيا حـسنت فينـا إسـاءته ... نجـى حـذارك إنـساني مـن الفـرق
أني أصـد دموعـا لـج سـائقها ... مطروفـة العـين بـالمرضى مـن الحـدق

ويرى القارئ أن أصحاب هذه الأخيلة الشعرية، يرون أن احمرار الدموع إنما هو أثر للحرب القائمة بين عين العاشق وعين المعشوق. فيا لها من حرب ضروس تطأ فيها أقدام الجنس اللطيف أعناق الجنس النشيط. وإنا بهذه الهزيمة لفرحون!!

وكان عجيبا أن تبيض الدموع بعد احمرارها!! وقد رأينا كيف أولوا احمرار الدموع. ولنذكر أن أصدقهم سبط بن التعاويذي حين يقول:

أتبعـتهم يـوم اسـتقل فـريقهم ... نظـر المـشوق وأنـه المفجـوع
لم تبـك يـوم فـراقهم عينـي دمـا ... إلا وقـد نـزف البكـاء دمـوعي

والآن نريد أن نعرف كيف يتأولون ابيضاض الدموع بعد أن صيرها الحزن حمراء. فمن الشعراء من يرى الدمع الأبيض ماء ورد الخدود التي قطفها بعينيه عند الرحيل، كما قال بعض الظرفاء:

كانـت دمـوعي حمـرا يـوم بيـنهم ... فمـذ نـأوا قـصرتها بعـدهم حرقـي
قطفـت بـاللحظ وردا مـن خـدودهم ... فاستقطر البين ماء الورد من حدقي

ومنهم من جعله شيبا للدموع بعد طول عمر البكاء كقوله:

قالت عهدتك تبكي ... دما أطول التنائي
فلم تعوضت عنا ... بعد الدماء بماء
فقلت ما ذاك مني ... لسلوة وعزاء
لكن دموعي شابت ... لطول عمر بكائي

وأشجى منه قول الآخر:

وقائلة ما بال دمعك أبيضا ... فقلت لها يا عز هذا الذي بقي
ألم تعلمي أن البكا طال عمره ... فشابت دموعي مثلما شاب مفرقي
وعما قليل لا دموعي ولا دمي ... ترين ولكن لوعتي وتحرقي

وهذه الأبيات من أكثر الشعر حزنا، وأغزره دمعا، وهل تجد أدعى للشجو والبث من قوله:

فقلت لها يا عز هذا الذي بقي!!

ويذكرني هذا بقول الشريف الرضي في إتيان الدموع على العيون، والغليل على الضلوع:

محا بعدكم تلك العيون بكاؤها ... وغال بكم تلك الأضالع غولها
فمن ناظر لم يبق إلا دموعه ... ومن مهجة لم يبق إلا غليلها
دعوا لي قلبا بالغرام أذيبه ... عليكم وعينا في الطلول أجيلها

ويذكر الشعراء أن الدموع حين تبيض بعد احمرارها تكون أرق من الهواء.

ولهم في ذلك فنون من القول، وشجون من الحديث، وأجمل ما رأيت في ذلك قول خالد الكاتب في رفق عذاله به، وإسعاده له:

بكى عاذلي من رحمة فرحمته ... وكم مسعد لي في الهوى ومعين
ورقت دموع العين حتى كأنها ... دموع دموعي لا دموع جفوني

عذر أرباب الدموع

لا تعـــذل المـــشتاق في أشـــواقه حتـــى يكـــون حـــشاك في أحـــشائه
إن القتيـــل مـــبللا بدموعـــه مثـــل القتيـــل مـــضرجا بدمائـــه

نذكر هنا ما يعتذر به الباكون عن بكائهم، وما يحتجون به لدى عذالهم. وهو نوع من الإفصاح عن موجب الدمع، وداعي البكاء. والشعراء فيه رجلان رجل غلبه الحب، وقهرته الصبابة: فباح بمكنون سره، ومكتوم حبه، ورجل تخوف الرقباء، وتهيب العذال، فأخذ يختلق العلل، وينتحل الأسباب، دفعا لكيد الواشين، ودرءًا لعذل اللائمين ... فمن الأول قول البحتري:

ســـارت مقدمـــة الـــدموع وخلفـــت حرقـــا توقـــد في الحـــشا مـــا ترحـــل
إن الفـــراق كـــما علمـــت فخلنـــي ومـــدامعا تـــسع الفـــراق وتفـــضل
إلا يكـــن صـــبر جميـــل فـــالهوى نـــشوان يجمـــل فيـــه مـــا لا يجمـــل

وحسن البيت الأول في خلود اللوعة، وبقاء الغليل! وهو خير من قول ذي الرمة:

لعـــل انحـــدار الـــدمع يعقـــب راحـــة مـــن الوجـــد أن يـــشفي شـــجى البلابـــل

والبيت الأخير أروع من قول أبي تمام في نفس المعنى:

والـــصبر أجمـــل غـــير أن تلـــددا في الحـــب أحـــرى أن يكـــون جميـــلا

وقال البحتري في الاعتذار عن البكاء:

لا تلمنـــي عـــلى البكـــاء فـــإني نـــضو شـــجو مـــا لمـــت فيـــه البكـــاء
عـــذلا يـــترك الحنـــين أنينـــا في هـــوى يـــترك الـــدموع دمـــاء

كيف أغدو من الصبابة خلوا بعدما راحت الديار خلاء

ومن بديع الاعتذار عن البكاء قول خالد الكاتب:

عش فحبيك سريعا قاتلي والضنى إن لم تصلني واصلي
ظفر الحب بقلب دنف فيك والسقم يحسم ناحل
فهما بين اكتئاب وضنى صيراني كالقضيب الذابل
وبكى العاذل لي من رحمة فبكائي لبكاء العاذل

وهذا معنى جميل، لا ينقص غير القرب من الحقيقة: فقد يندر أن يبكي اللائمون رفقا بالمحب الحزين!

ومما انتحل فيه الشعراء للبكاء أسبابا غير أسبابه قول كثير:

إذا زرفت عيناي أعتل بالقذى وعزة لو يدري الطبيب قذاهما

وهو نوع من الكتمان يفزع إليه الشعراء عند اليأس من أحبابهم:

يأس يحسن لي التستر فاعلمي لو كنت أطمع فيك لم أتستر

ومن طريف هذا النوع قول أبي العتاهية يعتذر عن بكائه، وقد استحيا من صديقه:

كم من صديق لي أسا رقة البكاء من الحياء
فإذا تأمل لامني فأقول ما بي من بكاء
لكن ذهبت لأرتدي فطرفت عيني بالرداء

الاكتفاء بالدموع

هو نوع من القناعة في الحب يكون عند القنوط. ومن جيد الشعر فيه قول بعض الأعراب:

فإن تمنعوا ليلى وحسن حديثها ... فلن تمنعوا مني البكا والقوافيا
فهلا منعتم إذ منعتم حديثها ... خيالا يوافيني على النأي هاديا

وهي سذاجة طريفة تذكرنا بقول جحدر وهو في السجن:

ألا ليت الليل يجمع أم عمرو ... وإيانا فذاك لنا تدان
نعم وأرى الهلال كما تراه ... ويعلوها للنهار كما علاني

وما الذي يضير أعداء المحب من أن يرى القمر كما تراه، ويعلوها النهار كما علاه، ما داموا قد أبعدوه عنها، وحرموه منها. وقد تنبه بعض الأعراب إلى تفاهة هذه القناعة فقال:

بربك هل ضممت إليك ليلى ... قبيل الصبح أو قبلت فاها
وهل رفت عليك فروع ليلى ... رفيف الأقحوانة في شذاها

على أنه لا ينبغي أن لا ينسينا جمال هذا الخيال ما في شعر جحدر وأمثاله من روعة الصدق، وجلال الوفاء. وماذا عسى أن تكون الصبابة إن لم يصبح البكاء أشهى من الحديث المعسول، حين يغدو المحب ولا أمل له في غير الوجد المشبوب، والدمع المسكوب، والصبر المغلوب!

من أجل هذا تخالف أستاذنا الجليل الشيخ سيد المرصفي ونرجوه أن يصفح عن إعجابنا بقول قيس بن ذريح في الاكتفاء بدمعه الدائم، وحزنه المقيم:

فإن يحجبوها أو يَحُل دون وصلها ... مقالة واشٍ أو وعيد أمير
فلن يمنعوا عيني من دائم البكا ... ولن يُذهبوا ما قد أجن ضميري
إلى الله أشكو ما ألاقي من الهوى ... ومن كُرب تعتادني وزفير
ومن حرق للحب في باطن الحشا ... وليل طويل الحزن غير قصير
سأبكي على نفسي بعين قريحة ... بكاء حزين في الوثاق أسير
وكنا جميعا قبل أن تظهري النوى ... بأنعم حالي غبطة وسرور
فما برح الواشون حتى بدت لنا ... بطون الهوى مقلوبة لظهور
لقد كنت حسب النفس لو دام وصلنا ... ولكننا الدنيا متاع غرور

وتمتاز هذه القطعة بتصويرها للنفس الإنسانية أجمل تصوير، وتمثيلها أدق تمثيل. ألم تر إلى الشاعر وقد أوجز في قناعته بالبكاء، ثم انطلق يشكو إلى الله لوعته، وحرقته، ولياليه الطوال !! ألم تر إليه وقد كان يحسب الدمع نعمة سابغة يكبت بخلودها الأعداء، فعاد يرى الدمع آية الذل والمسكنة، وآخر ما يفزع إليه الأذلاء المساكين !!

الفزع إلى الدموع

قال أبو بكر بن عياش: نزلت بي مصيبة أوجعتني فذكرت قول ذي الرمة:

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي شجي البلابل

فخلوت فبكيت فسلوت!! ولست أدري كيف تذهب بالوجد زفرة، أو تودي به عبرة، وهو كما قيل:

ظن الهوى لبسة تبلى فيخلعها فكان في الروح مثل الروح في البدن

وكنت أسمي هذا النوع من الشعر استشفاء بالدموع، وفقا لما يجنح إليه الشعراء، ولكني رأيت أن أسميه «فزعا إلى الدموع» حين تبينت أن الدمع لا يطفئ اللوعة، وأنه نار حامية، لا برد وسلام!!

وهل تجد أدعى للبث، وأجلب للحزن، من قول كثير، وقد ترحلت حبيبته:

كفي حزنا للعين أن رد طرفها لعزة عير آذنت برحيل
وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا فقلت البكا أشفى إذا لغليلي
توليت محزونا وقلت لصاحبي أقاتلتي ليلى بغير قتيل

وما اختار البكاء لأنه أشفى للغليل كما قال. ولكنه اختاره ليفر من الصبر الذي رآه مُرَّ المذاق!! وقد حسب بعض الشعراء أن التفضيل بين الصبر والبكاء مما ينال، وفي ذلك يقول:

إذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا أجاب البكا طوعا ولم يجب الصبر

وهو ضلال مبين: فإن البكاء لا ينتظر دعوة المحزون، ولكنه ينقض عليه انقضاض الصاعقة، فإذا هو صريع! وأمثال هذا الشاعر لا يتحدثون عن حزنهم المقيم. ولكنهم يمنون على أحبابهم بهذا الدمع المجلوب.

ومن الشعراء من تنبه إلى أن السلامة من الجوى أمض من الجوى، وهؤلاء يبكون وجدهم الذاهب وضلالهم القديم «ومن أسماء الحب الضلال» ومن مختار الشعر في هذا البكاء قول المتنبي:

يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل
ولو زلتم ثم لم أبككم ... بكيت على حبي الزائل

وأوجع منه قول البحتري:

وأود أني ما قضيت لبانتي ... منكم ولا أني شفيت غليلي
وأعد برئي من هواك جناية ... والبرء أعظم غاية المخبول

ذلك بأن القلب الجريح لا يجد شفاءه في السلوة، ولا في البكاء .. وهل السلوة إلا رزء جديد يقصم الظهر، ويقصف العمر؟ أرأيت آدم وقد خرج من الجنة؟ أليست لوعته على ذلك الفردوس الضائع، هي سر ما يعتادنا من أنين قد لا نعرف له سببا قريبا؟ وهل البكاء إلا أثر من آثار الوجد يخشع لرهبته غلاظ الأكباد، ويرق له قساة القلوب؟

تلك حسرة، البحتري أفصح عنها بقوله:

وأود أني ما قضيت لبانتي ... منكم ولا أني شفيت غليلي

فما الذي جعله يرجو من الدمع الشفاء حين يقول:

قف مشوقا أو مسعدا أو حزينا ... أو معينا أو عاذرا أو عذولا
وخلاف الجميل قولك للذاكر ... عهد الأحباب صبرا جميلا

عـــلى مـــاء الـــدموع يخمـــد نـــارا مـــن جـــوى الحـــب أو يبـــل غلـــيلا
وبكـــاء الـــديار ممـــا يـــرد الـــشوق ذكـــرا والحـــب نـــضوا ضـــئيلا
لم يكـــن يومنـــا طـــويلا بـــنعما ن ولكـــن كـــان البكـــاء طـــويلا

إن فهم ذلك يحتاج إلى تأمل النفس البشرية: فهي ليست موحدة المشاعر والميول. ولو جاز أن نجد نفسا خالدة الألم لفقد شقيقتها في عالم النفوس، لجاز أيضا أن تكون في لوعتها الخالدة ذات تصاريف في الشكوى والأنين! وليس طلب السلوة إلا صرخة الوجد يعجز عن كبحها المتيم العاني: ومن الذي يحرم على شقي أن يلتمس إلى السعادة السبيل؟ ومتى كان المحبون سعداء حتى يكون طلب الخلاص من بلواهم كفرا بنعمة الحب التي ابتلى الله بها أولئك الشهداء؟! وقد يحسن أن ننشد القارئ قول البحتري نفسه:

قـد كـان منـي الوجـد غـب تـذكر أن كـان منـك الـصد غـب تنـاسي
تجـري دمـوعي حيـث دمعـك جامـد ويـرق قلبـي حيـث قلبـك قـاسي

ألا تراه جعل الوجد أثرا للتذكر الذي حسب البكاء يفضي إليه فيريحه من الشوق في قوله:

وبكـــاءُ الـــديار ممـــا يـــرد الـــشوق «ذكـــرا» والحـــب نـــضوا ضـــئيلا

فهو يجعل الذكر دواء تارة، ويجعله داء تارة أخرى! ولسنا نتخذ من ذلك دليلا يرضاه المنطق عن خلود الصبابة، والعالم كله لن يرزق الخلود، ولكنا نستدل به على الحيرة يرزأ بها المتيم المحزون، فما يدري أيشفيه الدمع، أم يزيد لوعته اضطراما .

على أنه لا عيب على الشاعر في أن «تتناقض» خواطره، لأن الشعر كالمرآة والنفس دنيا فانية، تتراءى صورها المختلفة؛ في لوحة الشعر الجميل.

الدمع عند الوداع

نذكر هنا نماذج من وصف الدموع عند الفراق. فمن ذلك قول ابن الرومي:

لو كنت يوم الفراق حاضرنا ... وهن يطفين غلة الوجد
لم تر إلا دموع باكية ... تقطر من مقلة على خد
كأن تلك الدموع قطر ندى ... يقطر من نرجس على ورد

وقد يؤخذ على هذه الأبيات ما فيها من الغزل في غير حينه: وهو قول أبي نواس في جنان:

يا قمرا أبصرت في مأتم ... يندب شجوا بين أتراب
يبكي فيذري الدر من نرجس ... ويلطم الورد بعناب

والأدباء يرون هذا من وثبات الخيال، ونراها أخيلة عادية ليس لها جمال خاص، فقد يجد الشاعر في الجميلة الباكية ما ينسيه وصف طرفها الساحر وخدها الأسيل!! وقد أجاد ابن الرومي أو كاد في قوله:

تلاقينا لقاء لافتراق ... كلانا منه ذو قلب مروع
فما افترت شفاه عن ثغور ... بل افترت جفون عن دموع

ومما جمع بين براعة التصوير، ومتانة التعبير، قول المتنبي:

لما تقطعت الحمول تقطعت ... نفسي أسى وكأنهن طلوح
وجلا الوداع من الحبيب محاسنا ... حسن العزاء وقد جلبن قبيح
فيه مسلمة، وطرف شاخص ... وحشا يذوب ومدمع مسفوح
يجد الحمام ولو كوجدي لانبرى ... شجر الأراك مع الحمام ينوح

وقال مهيار في الاعتذار عما للمودع من الزفرات والعبرات:

دعوني فلي إن زمّت العيس وقفة ... أعلم فيها الصخر كيف يلين
وخلوا دموعي أن يقال نعم بكى ... وزفرة صدري أو يقال حزين
فلولا غليل الشوق أو دمعة النوى ... لما خلقت لي أضلع وجفون

وهي مدافعة حسنة تذكرنا بقول صردر:

إذا لم أفز منكم بوعد فنظرة ... إليكم فما نفعي بسمعي وناظري

وقال السري الرفاء في ذلك مظاهر الوداع: من اللوعة، والحنين، وتخديد الخد بالدمع، مع ذهاب العزاء:

وقفتنا النوى على الكره منا ... موقفا ضم شائقا ومشوقا
حال ورد الخدود فأضحى النرجس ... الغض بالدموع غريقا
لوعة أفرطت فعادت حريقا ... وحنين أربى فعاد شهيقا
وخليق بلوعة الحب صب ... لم يكن بالعزاء فيه خليقا

ومن شجي الشعر في ذلك قول الشريف الرضي:

ولما تواقفنا ذهلت ولم يحن ... لطير قلوب العاشقين وقوع
عشية لي من رقبة الحي زاجر ... عن الدمع إلا أن تشذ دموع
وقد أمرت عيناك عيني بالبكا ... فقل لي أي الآمرين أطيع

ولهذا الشعر مزية خاصة: وهي ترتيب المعاني ترتيبا لولا حيرة المودع لكان غاية في الوضوح. ولا يفوتنا أن نذكر هنا قول ابن زريق:

ودعته وبودي لو يودعني ... صفو الحياة وأني لا أودعه
وكم تشفع بي أن لا أفارقه ... وللضرورات حال لا تشفعه
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى ... وأدمعي مستهلات وأدمعه

ومن الشعراء من يفرح بالوداع، إذ يمكنه من معشوقة قد لا تراها العين إلا عند الرحيل. فمن ذلك قول البحتري:

إن البين نعمة لا تؤدى ... ويدا في تماضر بيضاء
حجبوها حتى بدت لفراق ... كان داءً لعاشق ودواء
أضحك البين يوم ذاك وأبكى ... كل ذي صبوة وسر وساء
فجعلنا الوداع فيه سلاما ... وجعلنا الفراق فيه لقاء

وفي هذا المعنى يقول بعض الظرفاء:

لم أنس إذ ودعته والتقى ... ذا البدن الناعم والناحل
كأنما جسمي على جسمه ... غصنان ذا غض وذا ذابل
يا رب ما أطيب ضمي له ... إلي لولا أنه راحل!

وقد ألم الشريف بهذا المعنى في هذه الأبيات:

أفي كل يوم لفتة ثم عبرة ... على رسم دار أو مطي موقف
وركب على الأكوار يثني رقابهم ... لداعي الصبا عهد قديم ومألف
فمن واجد قد ألزم القلب كفه ... ومن طرب يعلو اليفاع ويشرف
ومستعبر قد أتبع الدمع زفرة ... تكاد لها عوج الضلوع تثقف
قضى ما قضى من أنة الشوق وانثنى ... بدار الجوى والقلب يهفو ويرجف
ولم تغن حتى زايل البعد بيننا ... وحتى رمانا الأزلم المتغطرف [١]
كأن الليالي كن ألين حلفة ... بألا يرى فيهن شمل مؤلف
أيا وقفة التوديع هل فيك راجع ... إشارته ذاك البنان المطرف
وهل مطمعي ذاك الغزال بلفتة ... وإن ثور الركب العجال وأوجفوا [٢]

(١) لم نغن: لم نقم. والأزلم المتغطرف هو الدهر.
(٢) أرجفوا: أسرعوا.

وهذه الأبيات وصف سابغ للمرور بمنازل الأحباب، ولكن فيها تصويرا لانتهاب الحسن عند الوداع، وإمتاع العين باللفتة وإشارة البنان، وليست هذه المتعة بالشيء القليل!

* * *

الدمع بعد الفراق

ذكرنا في الكلمة السالفة مذاهب الشعراء في وصف الوداع، واليوم نذكر من شعرهم في الدمع بعد الفراق. فمن ذلك قول دعبل في راحلين ما يدري أيلقاهم وهو حي، أم ينتظرهم في عالم البقاء:

ألم يأن للسفر الذين تحملوا ... إلى وطن قبل الممات رجوع
فقلت ولم أملك سوابق عبرة ... نطقن بما ضمت عليه ضلوع
تبين فكم دار تفرق شملها ... وشمل شتيت عاد وهو جميع
طوال الليالي صرفهن كما ترى ... لكل أناس جدبة وربيع

ويذكر صاحب «مواسم الأدب» إن المأمون كان يعجب بهذه الأبيات، وكذلك كان المؤلفون «يسجلون» إعجاب الملوك بما يقول الشعراء، كأن الشعر «نقود» لا يتداولها الناس إلا إن حملت شارات الملوك!! على أن من العدل أن نذكر بهذه المناسبة أن إقبال المأمون على الشعر الجيد، وتشجيعه للشعراء المجيدين، كان مما رفع الأدب ونهض بالأدباء. وهناك ظاهرة أخرى لإعجاب المأمون بهذه القطعة الوجدانية: هي إقبال كرائم النفوس على مناهل الوفاء، وإن أسبغت عليها نعمة العلم والجاه!! ولنا أن نقول: إن في عجز العلم والملك عن قتل الحب في صدور الملك والعلماء لدليلا على أن نعم الوجود تتلاشى أمام هذه النعمة الساحرة القاهرة: نعمة الجمال!! وفي الفزع من الموت قبل اللقاء، يقول الطغرائي:

إني لأذكركم وقد بلغ الظما ... مني فأشرق بالزلال البارد
وأقول ليت أحبتي عاينتهم ... قبل الممات ولو بيوم واحد

وللشريف الرضي في الوجد بعد الفراق شعر باك حزين كقوله:

الـدمع مـذ بعـد الخلـيط قريـب ... والـشوق يـدعو والـزفير يجيـب
إن لم تكـن كبـدي غـداة وداعكـم ... ذابـت فـأعلم أنهـا سـتذوب
داءٌ طلبـت لـه الأسـاة فلـم يكـن ... إلا التعلـل بالـدموع طبيـب
أمـا أقمـت فـإن دمعـي غالـب ... لعـواذلي وتجلـدي مغلـوب

ومن الشعراء من ينفد دمعه، فيوصي بالبكاء عنه، كما قال الشريف:

أيهـا الـرائح المغـذ تحمـل ... حاجـة للمتـيم المـشتاق
اقـر عنـي الـسلام أهـل المـصلى ... فـبلاغ الـسلام بعـض التلاقـي
وإذا مـا مـررت بـالخيف فاشـهد ... أن قلبـي إليـه بالأشـواق
وإذا مـا سـئلت عنـي فقـل ... نـضو هـو مـا أظنـه اليـوم بـاق
ضـاع قلبـي فأنـشده لي بـين جمـع ... ومنـي عنـد بعـض تلـك الحـداق
وابـك عنـي فطالمـا كنـت مـن ... قبـل أعـير الـدموع للعـشاق

وتذكرنا هذه الأبيات بقول عبد الرحمن الداخل:

أيهـا الراكـب المـيمم أرضي ... اقـر مـن بعـضي الـسلام لبعـضي
إن جـسمي كـما علمـت بـأرض ... وفـؤادي ومالكيـه بـأرض
قـدر البـين بيننـا فافترقنـا ... وطـوى البـين عـن جفـوني غمـضي
قـد قـضى الله بيننـا بـافتراق ... فعـسى باجتماعنـا سـوف يقـضي

ومن الشعراء من يبكي في القرب والبعد، كما قال بعض الظرفاء:

ومـا في الأرض أشـقى مـن محـب ... وإن وجـد الهـوى حلـو المـذاق
تـراه باكيـا في كـل حـال ... مخافـة فرقـة أو لاشـتياق
فيبكـي إن نـأوا شـوقا إلـيهم ... ويبكـي إن دنـوا خـوف الفـراق
فتـسخن عينـه عنـد التنـائي ... وتـسخن عينـه عنـد التلاقـي

وليس لنا إلا أن نذكر أمثال هذا الشاعر بما قاله الأخطل لعبد الملك بن مروان وقد سأله كيف تشرب الخمر: وأولها مر، وآخرها سكر؟ فقال صدقت يا أمير المؤمنين! ولكن بين السكر والمرارة لحظة دونها ملكك الطويل العريض!

وبين دموع التلاق، ودموع الفراق، لحظة دونها حياة الأبرار في جنات النعيم!! ومن الشعراء من يتوجع على عهده قبل الفراق. كقول الشريف:

هل عهدنا بعد التفرق راجع ... أو غصننا بعد التسلب مورق
شوق أقام وأنت غير مقيمة ... والشوق بالكلف المعني أعلق
ما كنت أحظى في الدنو فكيف بي ... واليوم نحن مغرب ومشوق

وفي البيت الأخير حسرة تذيب لفائف القلوب.

وقد أجاد الأرجاني في وصف اليأس بعد الفراق، حين قال:

رحلوا: أمام الركب نشر عبيرهم ... ووراءهم نفس المشوق الصادي
فكأن هذا من وراء ركابهم ... حاد لها وكأن ذلك هادي
لله موقف ساعة يوم النوى ... بمنى وأقمار الحدوج بواد
لما تبعت وللمشيع غاية ... أظعانهم وقد امتلكن قيادي
أتبعتهم عيني وقلبي واقفا ... فوق الثنية والمطي غواد
كيف السبيل إلى التلاقي بعدما ... ضرب الغيور عليه بالأسداد
والحي قد ركزوا الرماح بمنزل ... فيه الظباءُ ربائب الآساد
وعد المنى بهم فقلت لصاحبي ... كم دون ذلك من عدى وعواد
عهدي بهم وهم بوجرة جيرة ... سقيت عهودهم بصوب عهاد
فاليوم من نفس النسيم إذا سرى ... نبغي شفاء علائل الأكباد

ومن العشاق من يقف بالديار فيبكي لما صنعت بها أيدي الفراق حين نفرت عنها الظباء، كسبط ابن أسابذي حين يقول:

يا موقفا بالبان لم تثمر لنا ... غير الصبابة والأسى شجراته
هل نفرت لا نفرت غزلانه ... أو صوحت لا صوحت باناته
عهدي به يلوي الديون قضاته ... وتصيد ألباب الرجال مهاته
فاليوم لا جيرانه جيرانه ... قدما ولا فتياته فتياته
يا حادي الأظعان في آثاركم ... قلب تقطعه جوى حسراته
ولقد يرى ثبت الحصاة فما له ... أمست تذوب على البعاد حصاته [1]

* * *

(١) الحصاة: القلب.

شكوى الصبابة

نظرت ما قال الشعراء في الشكوى فإذا هم مختلفون: فمنهم من يشكو إلى من يعلم السر والنجوى، ومن يقدر على تصريف الخواطر، وتقليب القلوب.

ألان لـــداود الحديـــد بقـــدرة مليـك عـلى تيـسير قلبـك قـادر

وهؤلاء أصدق الناس حبا وأحسنهم إيمانا. وسيدهم أبو صخر الهزلي حين يقول:

بيـد الـذي شـغف الفـؤاد بكـم تفـريج مـا ألقـى مـن الهـم

فإنه جعل الهوى قدرا، وجعل الأمر في تيسير قلب من يهوى وتذليله للذي خلق الحب، وأودع الذل فيه. ولم أجد في هذا المعنى أوجع من قول قيس ابن زريح:

إلى الله أشـكو فقـد لُبنـى كـما شـكا إلى الله بعـد الوالـدين يـتم
يتـيم جفـاه الأقربـون فدمعـه غزيـر وعهـد الوالـدين قـديم

وإذا كان محالا أن يجد المرءُ بعد أبويه من يعوله، ويحدب عليه، ويمنحه من العطف والحنان ما كان جديرا أن يفوز به لو عاش أبواه، فكذلك لا يجد قيس من بين الناس من تبره بِرَّ لُبنى. وهذا وجه الحسن في هذين البيتين، اللذين يفيضان نارا وحرقة. وقال ابن المعتز:

إلى الله أشـكو الـشوق لا إن لقيتهـا يقـل ولا إن بنـت يخلقـه الـدهر
مقـيم عـلى الأحـشاء قـد قطعـت بـه فـساعته يـوم وليلتـه دهـر

ولم يذكر الشاعر هنا من موجب الشكوى غير فرط حبه، وخلود وجده. وإنما يشكو المحب قسوة الهجر، ومرارة الصدود: وقال معين الدين الخطيب في الشكوى من لوعته وحسن محبوبه:

أشكو إلى الله من نارين واحدة ... في وجنتيه وأخرى منه في كبدي
ومن سقامين سقم قد أحل دمي ... من الجفون وسقم حل في جسدي

وهذا شعر منتقد. فإنه إذا صح أن يشكو المحب إلى الله سقمه ووجده، أملا في الراحة من بلاء الحب، فما الذي يريده بشكوى السقم في جفن محبوبه والنار في خديه؟ وقد أجاد أو قارب في قوله:

ومن نمومين دمعي حين أذكره ... يذيع سري وواش منه للرصد
ومن ضعيفين صبري حين يهجرني ... ووده ويراه الناس طوع يدي

فإنه لا بأس من شكوى الواشي والود الضعيف!

ومن المحبين من يشكو إلى المعاهد والرسوم. وهو نوع من الوله، وصنف من الصبابة. تقربه عين المحب. وتطيب به نفس المشوق. كقول ابن المعتز:

أيا سدرة الوادي على المشرع العذب ... سقاك حيا حي الثرى ميت الجدب
كذبت الهوى إن لم أقف أشتكي الهوى ... إليك وإن طال الطريق على صحبي
أصانع أطراف الدموع ومقلتي ... موقرة بالدمع غربا على غرب
وهل هي إلا حاجة قضيت لنا ... ولوم تحملناه في طاعة الحب
تبدلت شيبا بالشباب فإن تطر ... شياطين لذاتي يقعن على قرب

ومنهم من يشكو إلى المسعد والرفيق. وهو أصل هذا الباب. ومنه هذا البيت السائر:

ولابد من شكوى إلى ذي مروءة ... يواسيك أو يسليك أو يتوجع

ويعجبني في هذا المعنى قول البهاء زهير:

أيـــن مـــن يرحمنـــي أشـــكو لـــه ... إنـــما الـــشكوى إلى مـــن يـــرحم
أنـــا مـــن قلبـــي ومنهـــا آيـــس ... لم يكـــن مـــن مقلتيهـــا يـــسلم
أيهـــا الـــسائل عـــن وجـــدي بهـــا ... إنـــه أعظـــم ممـــا تـــزعم
ولقـــد حـــدثت عـــن شرح الهـــوى ... أنـــت يـــا رب بحـــالي أعلـــم
طـــال مـــا ألقـــاه مـــن نـــار الجـــوى ... وحـــديثي لـــك يـــا مـــن يفهـــم
عـــشق النـــاس ومـــثلي لم يكـــن ... فـــاعلموا أني فـــيهم علـــم
ســـطرت قـــبلي أحاديـــث الهـــوى ... وبمـــسك مـــن حـــديثي تختـــتم

وهذا شعر يشف عن كثير من سلامة الذوق، وخفة الروح. ولعلك لا تجد أظرف من قوله:

أيـــن مـــن يرحمنـــي أشـــكو لـــه ... إنـــما الـــشكوى إلى مـــن يـــرحم

فإنه خير ما قيل في معناه ... ومن المغرمين من يشكو إلى حبيبه وهو أوجب لرحمته، وأدعى إلى إنصافه. ومنه قول الطغرائي:

لعمـرك مـا يرجـى شـفائي والهـوى ... لـه بـين جـسمي والعظـام دبيـب
أجلـك أن أشـكو إليـك وأنطـوي ... عـلى كمـدي أن الهـى لعجيـب
وآمـل بـرءا مـن هـوى خـامر الحـشا ... وكيـف بـداء لا يـراه طبيـب
نـصيبك مـن قلبـي كـما قـد عهدتـه ... ومـا لي بحمـد الله منـك نـصيب
ومـا أدعـي إلا اكتفـاءً بنظـرة ... إليـك ودعـوى العاشـقين ضروب
ومـا بحـت بالـسر الـذي كـان بيننـا ... ولكـنما لحـظ المحـب مريـب

وقوله «نصيبك من قلبي كما قد عهدته» مأخوذ من قول ابن الأحنف:

إليـك أشـكو رب مـا حـل بي ... مـن صـد هـذا التائـه المعجـب
صـب بعـصياني ولـو قـال لي ... لا تـشرب البـارد لم أشرب

إن قـــال لم يفعـــل وإن ســـيل لم يبـــذل وإن عوتـــب لم يعتـــب

وقوله «وما أدعى إلا اكتفاء بنظرة» مأخوذ من قول الشريف:

عـشقت ومـا بي يعلـم الله حاجـة سـوى نظـري والعاشـقون ضروب

ومما حسنت معانيه وصحت تقاسيمه - في الشكوى إلى المحبوب - قول بعض الأعراب:

شـكوت فقالـت كـل هـذا تبرمـا بحبـي أراح الله قلبـك مـن حبـي
فلـما كتمـت الحـب قالـت لـشد مـا صبرت وما هـذا بفعل شجي القلب
وأدنـوا فتقـصيني فأبعـد طالبـا رضـاها فتعتـد التباعـد مـن ذنبـي
فـشكواي تؤذيهـا وصـبري يـسوءها وتجـزع مـن بعـدي وتنفـر مـن قـربي
فيـا قـوم هـل مـن حيلـة تعرفونهـا أشيروا بها واستوجبوا الشكر من ربي

وهذا شعر الطبع والسليقة، والموفقون إلى مثله قليل.

وقد أجاد في هذا المعنى من شعراء العصر حافظ بك إبراهيم حين قال:

كـم تحـت أذيـال الظـلام متـيم دامـي الفـؤاد وليلـه لا يعلـم
مـا أنـت في دنيـاك أول عاشـق راميـه لا يحنـو ولا يـترحم
أهرمتنـي يـا ليـل في شرخ الـصبا كـم فيـك سـاعات تـشيب وتهـرم
لا أنـت تقـصر لي ولا أنـا مقـصر أتعبتنـي وتعبـت، هـل مـن يحكـم
لله موقفنـا وقـد ناجيتهـا بعظـيم مـا يخفـي الفـؤاد ويكـتم
قالـت مـن الـشاكي تـسائل سربهـا عنـي ومـن هـذا الـذي يـتظلم
فأجبنهـا وعجـبن كيـف تجاهلـت هـو ذلـك المتوجـع المتـألم
أنـا مـن عرفـت ومـن جهلـت ومـن لـه لـولا عيونـك حجـة لا تفحـم
أسـلمت نفـسي للهـوى وأظنهـا ممـا يجـشمها الهـوى لا تـسلم
وأتيـت يحـدوني الرجـاء ومـن أتـى متحرمـا بفنـائكم لا يحـرم

أشكو لذات الخال ما صنعت بنا ... تلك العيون وما جناه المعصم
لا السهم يرفق بالجريح ولا الهوى ... يبقي عليه ولا الصبابة ترحم
لو تنظرين إليه في جوف الدجى ... متململا من هول ما يتجشم
يمشي إلى كنف الفراش محاذرا ... وجلا يؤخر رجله ويقدم
يرمي الفراش بناظريه وينثني ... جزعا ويقدم بعد ذاك ويحجم
فكأنه واليأس ينسف نفسه ... للقتل فوق فراشه يتقدم
رشقت به في كل جنب مدية ... وانساب فيه بكل ركن أرقم
فكأنه في هوله وسعيره ... وادٍ قد اطلعت عليه جهنم
هذا وحقك بعض ما كابدته ... من ناظريك وما كتمتك أعظم
قالت أهذا أنت ويحك فاتئد ... حتام تنجد في الغرام وتتهم
إنا سمعنا عنك ما قد رابنا ... وأطال فيك وفي هواك اللوَّم
أصغت إلى قول الوشاة فأسرفت ... في هجرها وجنت علي وأجرموا
حتى إذا يئس الطبيب وجاءها ... أني تلفت تندمت وتندموا
وأتت تعود مريضها لا بل أتت ... مني تشيع راحلا لو تعلم

وفي هذه القصيدة صورة شعرية بديعة، تمثل العاشق، وقد طال عليه الليل، وهجر جفنيه المنام. وهي غاية في حسن القصص، وسحر البيان.

ولنذكر الشكوى إلى ساقي الراح في قول ابن المعتز:

أيها الساقي إليك المشتكى ... قد دعوناك وإن لم تسمع
ونديم همت في غرته ... وبشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته ... جذب الزق إليه واتكا
وسقاني أربعا في أربع ... ما لعيني عشيت بالنظر
أنكرت بعدك ضوء القمر ... وإذا ما شئت فاسمع خبري
عشيت عيناي من طول البكا

وبكـــــــــى بعـــــــــضي عـــــــــلى بعـــــــــضي معـــــــــي
غـصن بـانٍ مـال مـن حيـث التـوى مـات مـن يهـواه مـن فـرط الجـوى
خفـق الأحـشاء موهـون القـوى كلـــما فكـــر في البـــين بكـــى
ويحـــــــــه يبكـــــــــي لمـــــــــا لم يقـــــــــع!
لـــيس لي صـــبر ولا لي جلـــد يـــا لقـــومي عـــذلوا واجتهـــدوا
أنكـــروا شـــكواي ممـــا أجـــد مثـــل حـــالي حقـــه أن يـــشتكا
كمـــــــــد اليـــــــــأس وذل الطمـــــــــع
كبـــد حـــرى ودمـــع يكـــف أصرف الـــدمع فـــلا ينـــصرف
أيهـــا المعـــرض عـــما أصـــف قـــد نـــما حبـــي بقلبـــي وزكـــا
لا تقـــــــــل في الحـــــــــب أني مـــــــــدعي

وفي هذه الموشحة شكوى أليمة. تهتم بمثلها النفس الشجية، من حين إلى حين؟

وتعجبني شكوى ابن الرومي في قوله:

ظبـــي يـــصيد ولا يـــصاد محـــاذر نبـــل الهـــوى وحبائـــل الإينـــاس
غِـــرٌّ شـــموس إن أحـــس بريبـــة أعجـــب بجـــامع غـــرة وشـــماس
يـــسبي القلـــوب بمقلـــة مكحولـــة بفتـــور غـــنج لا فتـــور نعـــاس
يـــا للرجـــال ألا معـــين لأيـــد صـب الفـؤاد عـلى ضـعيف قـاس [1]
أيـضيمني خنـث الـشمائل لـو نـضا عنـــه غلالتـــه حـــساه الحـــاسي؟
ومـــن العجائـــب أن تحـــل ظلامـــة بفتـــى أنـــاس مـــن فتـــاة أنـــاس

(١) أيد: قوي. من الأتد بسكون الياء وهو القوة.

ومن المعذبين من يبث شكواه من دهره وإخوانه إلى صديق أقصته في بره الليالي. ومن شعراء العصر من قارب الإجادة في هذا المعنى، كصاحب البدائع حين يقول[١]:

أنـــت الـــذي علمتنـــي ... يـــا ســـيدي بـــر الـــصديق
وتركتنـــي في فتيـــة ... مـــا فـــيهم بـــر رفيـــق
لم ألـــق بعـــدك مـــنهم ... إلا الجفـــاءَ أو العقـــوق
حتـــى كـــأني لم أبـــت ... مـــنهم عـــلى عهـــد وثيـــق
وكـــأنهم لم يبـــصروا ... في خلتـــي الحـــر الـــصدوق
فنـــسوا هـــواي ولم يفـــق ... مـــن ودهـــم قلبـــي المـــشوق
ونـــسوا طريـــف حـــديثنا ... عنـــد الـــصبوح أو الغبـــوق
ليـــت الهـــوى مـــا قـــادني ... يومـــا إلى ذاك الطريـــق
أو ليتنـــي لم أنخـــدع ... جهـــلا بهاتيـــك الـــبروق
بـــل ليتنـــي بعـــد الـــذي ... عانيـــت مـــن صـــبحي أفيـــق

* * *

مـــولاي لـــو أبـــصرتني ... لفزعـــت مـــن دمعـــي الطليـــق
وشـــجاك جـــسمي نـــاحلا ... وكأنـــه الطيـــف الطـــروق
أشـــكو إليـــك وإنـــما ... يـــشكو المـــضيم إلى الـــشفيق
فـــارحم فـــديتك مهجـــة ... أودى بهـــا الحـــزن العميـــق
حـــزن يقطـــع في الحـــشا ... فكأنـــه غـــدر الـــصديق

* * *

يـــا ويـــح قلبـــي لم يـــزل ... يهفـــو بـــه الـــروح الخفـــوق

(١) أرسلت هذه القصيدة الصديق العزيز محمد محمود حسين.

وتقـــــــــوده الـــــــــذكرى إلى عهـــد الهـــوى الغـــض الرقيـــق
أيـــــام نمـــــرح في الـــــصبا في ذلـــــك العـــــيش الأنيـــــق
أيـــــام نـــــسقي في الهـــــوى والـــــود كأســـــا مـــــن رحيـــــق
تلـــــك الليـــــالي لم تـــــدع مـــــن بعـــــدها حـــــسنا يـــــروق
كـــــلا ولا خلـــــت لنـــــا إلا الـــــزفير أو الـــــشهيق

* * *

عند منازل الأحباب

كان أبو نواس يكره الشعر في بكاء الرسوم والأطلال، وأدباء هذا العصر يعدون هذه النزعة توديعا للقديم وترحيبا بالجديد، وهذا حق إذا لوحظ أن الشعراء كانوا يبدءون قصائدهم ببكاء الديار، وإن لم يكونوا بنار الفراق من المحرقين! ولكن من العبث في تحليل العواطف أن نجهل ما يجده المحبون عند المرور بديار أحبابهم المبعدين، ومن الغبن للآداب العربية أن نغفل ما قيل في منازل الأحباب من الشعر الباكي الحزين؟ وها نحن أولاء نبسط القول عن هذه الوقفة الأليمة، وقفة المحب على ديار خلت غرفها من الظباء الغرائر، وعفت سررها من النساء الحرائر، بعد أن كان ساكنوها أمل الآمل، وأمنية المتمني!! فمن ذلك قول بعض الأعراب وقد وقف (بالحزن) بفتح الحاء - وكان ملعب شبابه، ومنتدى هواه، وصورة أيامه الخوالي:

ومستنجد (بالحَزن) دمعا كأنه ... على الخد مما ليس يرقأ حائر
إذا ديمة منه استقلت تهللت ... أوائل أخرى ما لهن أواخر
ملأ مقلتيه الدمع حتى كأنه ... لما انهل من عينيه في الماء ناظر
وينظر من بين الدموع بمقلة ... دمى الشوق في إنسانها فهو ساهر

وفي هذا المعنى يقول ابن الملوح:

نظرت كأني من وراء زجاجة ... إلى الدار من ماء الصبابة أنظر
فعيناي طورا تغرقان من البكا ... فأعشى وطورا يحسران فأبصر

ومما يغري القلب بالحزن، والعين بالدمع، قول البحتري:

وقفنا فحيينا لأهلك باللوى ... ربوع ديار دارسات المعالم

ذكرنا الهوى العذري فيها فأنسيت ... عزاها مشوقات القلوب الهوائم
خلعنا بها عذر الدموع فأقبلت ... تلوم وتلحي كل لاح ولائم
لقد حكم البين المشتت بالبلى ... عليك وصرف الدهر أجور حاكم
لعل الليالي يكتسبن بشاشة ... فيجمعن من شمل الهوى المتقادم

ونود لو تأمل القارئ ما في هذه الأبيات من الترتيب والتنسيق: فقد وقف الشاعر بالديار، ثم حياها وهو يتنقل بروحه بين الشقاء الحاضر والنعيم الماضي، ثم اشتعل الحزن في قلبه اشتعالا، فنسي جمال الصبر وحسن العزاء، فاندفع يبكي وينتحب، ثم أغرب في البكاء والنحيب، حتى خشع عاذلوه، وخضع لائموه!! ثم توجع للديار مما حكم عليها البين وصنعت بها الليالي!! ثم تمنى لو ضحك الزمن بعد العبوس، فاجتمع الشمل بعد الفراق!! وقال أبو فراس:

علي لربع العامرية وقفة ... ليملي علي الشوق والدمع كاتب
فلا وأبي العشاق ما أنا عاشق ... إذا هي لم تلعب بصبري الملاعب
ومن مذهبي حب الديار وأهلها ... وللناس فيما يعشقون مذاهب

ولا يفهم أحد كيف يكون حب الديار وأهلها مذهبا لأبي فراس، مع أن أبياته هذه ليست شيئا في جانب ما قيل في منازل الأحباب، ويكفي أن نذكر قول نبهان العبسي في البئر الذي كانت تشرب منه حبيبته سليمى:

سأسري إلى الماء الذي شربت به ... سليمى وإن مل السري كل واحد
وألصق أحشائي ببرد ترابه ... وإن كان مخلوطا بسم الأساود

ويذكرني هذا بقول بعض الأعراب في (الوشل) وهو ماء كان يطالع عنه وجوه الكواعب:

اقرأ على الوسائل السلام وقل له ... كل المشارب مذ هجرت دميم
سقيًا لطلك بالعشي وبالضحى ... ولبرد مائك والمياه حميم
لو كنت أملك منع مائك لم يذق ... ما في قلاتك ما حييت لئيم (١)

وللشريف الرضي في بكاء الديار بدائع، فمن ذلك قوله:

تزافر صحبي يوم ذي الأثل زفرة ... تذوب قلوب من لظاها وأضلع
منازل لم تسلم عليهن مقلة ... ولا جف بعد البين فيهن مدمع
فدمع على بالي الديار مفرق ... وقلب على أهل الديار موزع
ألا ليت شعري كل دار مشتة ... ألا موطن يدنو بشمل ويجمع

ومن جيد شعره في هذا المعنى قوله من كلمة ثانية:

وقفت على تلك الديار ووحشها ... دوان ومن يحكين غير دوان
فأنكرت العينان والقلب عارف ... قليلا ولجا بعد في الهملان

وهذا آخر ما يقال في رسوم الديار، فحسب إطلالها من البلى، ورسومها من العفاء، أن تنكرها العينان، ولا يعرفها القلب إلا قليلا!! والأدباء ينكرون أن يتردد القلب في معرفة دار كانت بالأمس جنة ونعيما، ويعجبون بقول طريح ابن إسماعيل الثقفي:

تستخبر الدمن القفار ولم تكن ... لترد أخبارا على مستخبر
فظللت تحكم بين قلب عارف ... مغني أحبته وطرف منكر

ومن الشعراء من يرى الديار الخالية، وكأنها بأهلها مأهولة، كأبي نواس حين يقول:

لمن دمنٌ تزداد طيب نسيم ... على طول ما أقوت وحسن رسوم

(١) القلات جمع قلت بفتح فسكون وهو النقرة تكون في الصخرة.

تجـافى الـبلى عـنهن حتـى كـأنما لبـسن عـلى الأقـواء ثـوب نعـيم

وكقول الأخطل:

لأسـماء محتـل بنـاظرة البـشر قـديم ولمـا يعفـه سـالف الـدهر
يكـاد مـن العرفـان يـضحك رسـمه وكـم مـن ليـال للـديار وكـم شـهر

وكقول ابن أحمر العقيلي:

تراهـا عـلى طـول القـواء جديـدة وعهـد المغـاني بـالحلول قـديم

والمعروف في هذا المعنى أن الديار تجد مثل ما يجد المتيم المحزون، كقول محمد بن وهب:

طلـلان طـال علـيهما الأمـد درسـا فـلا علـم ولا قـصد
لبـسا الـبلى فكـأنما وجـدا بعـد الأحبـة مثـل مـا أجـد

وكقول مالك ابن أسماء الفزاري:

بينـا هـم سـكن لجـارهم ذكـروا الفـراق فأصـبحوا سـفرا
فظللـت ذا ولَـهٍ يعـاتبني مـن لا يـرى مـثلي لـه أمـرا
بكـت الـديار لفقـد سـاكنها أفعنـد قلبـي أبتغـي الـصبرا

ومن بديع الشعر في هذا الباب قول ابن سنان الخفاجي:

ولمـا وقفنـا بالـديار وعنـدنا مـدامع نـسديها لكـم ونثيرهـا
شـكونا إليهـا مـا لقينـا مـن الـضنى فعرفنـا كيـف الـسقام دثورهـا
وقـد درسـت إلا أمـارة ذاكـر تلـوح لـه بعـد الـتهادي سـطورها
خلـيلي قـد عـم الأسـى وتقاسـمت فنـون الـبلى عـشاق لـيلى ودورهـا
فـلا دار إلا دمنـة ورسـومها ولا نفـس إلا لوعـة وزفيرهـا
لعمـر الليـالي مـا حمـدت قـديمها فيوحـشني ذهابهـا ومرورهـا

وقـالوا عطـاء الـدهر يـبلي جديـده ومــن لي بــدنيا لا يــزول سرورهــا

ونود لو تأمل القارئ إبداع ابن سنان في هذين البيتين:

خلـيلي قـد عـم الأسـى وتقاسـمت فنـون الـبلى عـشاق لـيلى ودورهـا
فـــلا دار إلا دمنـــة ورســـومها ولا نفـــس إلا لوعـــة وزفيرهـــا

وحسب العاشق من موجب الأسى، وداعي الحزن، أن يرى منازل أحبابه هامدات، باليات!

تعفـــو المنـــازل إن نـــأوا عنهـــا وتغـــبر الـــبلاد
والحـــي أولى بـــالبلى شـــوقا إذا بـــلى الجـــماد

وهل تأملت كيف شكا إلى الديار ما لقي من الضنى، وكيف عرف ما به من السقم لما تبين دثورها، وتعرف عفاءها! ويا ليت شعري هل شكت إليه ما تجد إليه من بعد سكانها، وبين ملاكها؟ أما والهوى إنها لتشكو في صمتها الرهيب: إذ كانت تحزن بغير قلب، وتبكي بغير دمع!!

كفـى حزنـا للهـائم الـصب أن يـرى منــازل مــن يهــوى معطلــة قفــرا

ومما يقرب من فلسفة الشعر، وفقه الأدب، في بكاء الرسوم الهوامد، والأطلال الدوارس، مع الإفصاح عن الأسى والبث، والشجى والحزن، قول ابن الخياط في ديار لقيت من بعد سكانها ما لقي المحب بعدهم من الضنى والنحول:

وقفـت أداري الوجـد خـوف مـدامع تبـيح مــن الــسر المنــع مــا أحمــي
أغالـــب بالـــشك اليقـــين صـــبابة وأدفـع مـن صـدر الحقيقـة بـالوهم

وهذا من خير ما قيل في مصانعة النفس، ومغالبة الوجد: فقد عرف الديار بقلبهن لما ضمنت منه الضلوع لأهلها النازحين، وأنكرها بطرفه، لما لقيت من

الدثور والعفاء، فهو يريد أن يعتصم بالشك، لينجو من قسوة اليقين، ولكنه غلب على أمره فقال:

فلما أبى إلا البكاء لي الأسى ... بكيت فما أبقيت للرسم من رسم
كأني بأجزاع النقيبة مسلم ... إلى ثائر لا يعرف الصفح عن جرم

يرحمه الله! فهل رأى ثائرا أظلم من الوجد، وحاكما أجور من الصبابة! ثم أخذ يقارن بين بليته وبلية الديار، فقال:

لقد وجدت وجدي الديار بأهلها ... ولو لم تجد وجدي لما سقمت سقمي
عليهن وسم للفراق وإنما ... علي له ما ليس للنار من وسم

وهذا من الإبداع في وصف الديار الخالية، وهل تجد المنزل بعد أهله إلا باكيا حزينا، أوليست وحشة المنزل الخالي ذلة بادية يطالع بها الرائح والغادي، عساه يعرف شيئا عن سكانه الراحلين، وملاكه الغائبين، إن السكان للمنازل كالأرواح للأجسام، فإذا ارتحلوا آن حمامها، وحان دثورها، وحل دمارها! وقد رأى الشاعر بعد ذلك أن البين جائر في قسم الضنى بينه وبين المنزل الخالي، فقال:

وكم قسم البين الضنى بين منزل ... وبيني ولكن الهوى جائر القسم
منازل أدارس شجاني نحوها ... فهلا شجاها ناحل القلب والجسم

وهذه استغاثة بالطلل البالي، يشعر بمثلها ذو اللوعة الحزين!

وكان ابن الخياط من أغزر الناس دمعا عند مغاني الأحباب، فمن ذلك قوله:

يا عمرو ما وقعة في رسم منزلة ... أثار شوقك فيها محو آثار
أنكرت فيها الهوى ثم اعترفت به ... وما اعترافك إلا دمعك الجاري

لـو كنـت نـاسي عهـد مـن تقادمـه ... نـسيت فيهـا لبانـاتي وأوطـاري
أيـام يفتـك فيهـا غـير مرتقـب ... ظبي الكناس بليث الغابة الضاري
لا أرسـل اللحـظ إلا كـان موقعـه ... عـلى شـموس منـيرات وأقـمار
مـا أطيـب العـيش لـو أني وفـدت بـه ... عـلى زمـان ودهـر غـير غـدار

وهذا شعر يخالط النفس، ويلابس الفؤاد، ومثله في اللوعة قوله من كلمة ثانية:

أجـدك مـا تنفـك بـالغور ناشـدا ... فـؤادا بنجـد؟ يـا لقلبـك مـن نجـد!
وإني لتـصميني سـهام ادكـاركم ... وإن كـان رامي الـشوق مني على بعد
تمـادى غـرام لـيس يجـري إلى مـدى ... وفـرط سـقام لا يقـيم عـلى حـد
ومـا أنـس لا أنـس الحمـى وأهلـة ... تـضل ومـن حـق الأهلـة أن تهـدي
زمانـا إخـال الجهـل فيـه مـن النهـى ... وحبـا أعـد الغـي فيـه مـن الرشـد
غنـين ومـا نـولن تـيلا سـوى الجـوى ... وبـن ومـا زودن زادا سـوى الوجـد
خلـيلي مـا أحـلى الحيـاة لـو أنهـا ... لطاعمهـا لم تخلـط الـصاب بالـشهد
لقـد حالـت الأيـام عـن حـال عهـدها ... ومـن لي بأيـام تـدوم عـلى العهـد

ومن بديع الشعر في بكاء الديار قوله من كلمة طويلة:

وبـالجزع حـي كلـما عـنَّ ذكـرهم ... أمـات الهـوى منـي فـؤادي وأحيـاه
تمنيـتهم بـالرقمتين ودارهـم ... بـوادي الغـضا يـا بعـد مـا أتمنـاه
سـقى الوابـل الربعـي حائـل ربعهـم ... وراوحـه مـا شـاء روح وغـاداه
وجـر عليـه ذيلـه كـل خـاطر ... إذا مـشى في عاطـل الـترب حـلاه
ومـا كنـت لـولا أن دمعـي مـن دم ... لأحمـل منًّـا للـسحاب بـسقياه

ومن المعاني المولدة في الدمع عند الرسوم قول الأرجاني:

وقفـت بـأطلال الـديار مـسلما ... وعهـدي ومـلء الـواديين قبـاب

فـأبرق عـذالي ملامـا وارعـدوا وأمطـرت أجفـاني فـتم سـحاب
بـه غنيـت أرض الحمـى عـن مـصبح يقـول سـقى دار الربـاب ربـاب

وهو خيال يبدو كأنه طريف، ولكنه من الأخيلة الجوفاء! وفي هذا المعنى يقول ابن التعاويذي:

سـقى دار الحبيـب وإن تنـاءت ملـث مثـل أجفـاني هطـول
ولا برحـت تـسحب للغـوادي وطـورا للـصبا فيهـا ذيـول
فجفنـي والغـمام لهـا غـدير وقلبـي والنـسيم بهـا عليـل
وعنفنـي عـلى العـبرات صـحبي عـشية قـوض الحـي الحلـول
وقـالوا اسـتبق للأحبـاب دمعـا فقـد شرقـت بأدمعـك الطلـول
معـاذ الحـب أن ألقـى حمـولا وقـد سـارت بمـن أهـوى الجمـود
وعـار أن تـزم ليـوم بـين جمـالهم ولي صـبر جميـل

ومن الشعراء من يجعل الحنين إلى الوطن كناية عن الحنين إلى ليالي الشباب التي قضاها بمرأى من كواكبه السواطع، ونجومه اللوامع. وقد نوه بذلك صاحب زهر الآداب فذكر أن ابن الرومي جاء إلى علي بن عبد الكريم النصيبي وأنشده هذه القطعة البديعة:

ولي وطـن آليـت أن لا أبيعـه وأن لا أرى غـيري لـه الـدهر مالكـا
عمـرت بـه شرخ الـشباب مـنعما بـصحبة قـوم أصـبحوا في ظلالكـا
وحبـب أوطـان الرجـال إلـيهم مـآرب قـضاها الـشباب هنالكـا
إذا ذكـروا أوطـانهم ذكـرت لهـم عهـود الـصبا فيهـا فحنـوا لـذلكا
فقـد ألفتـه الـنفس حتـى كأنـه لهـا جـسد إن بـان غـودر هالكـا

ثم قال: انصفني وقل الحق. أيها أحسن؟ قولي في الوطن أم قول الأعرابي:

أحـب بـلاد الله مـا بـين مـنعج إلي وسـلمى لا يـصوب سـحابها

بـــلاد بهـــا نيطـــت عـــلي تمـــائمي وأول أرض مـــس جـــسمي ترابهـــا

فقال له: بل قولك أحسن، لأنه ذكر الوطن ومحبته. وأنت ذكرت العلة التي أوجبت ذلك !! وقد يشعر القارئ بالحاجة إلى معرفة المخاطب في قول ابن الرومي:

عمـــرت بـــه شرخ الـــشباب مـــنعما بـــصحبة قـــوم أصـــبحوا في ظلالكـــا

وخلاصة الحديث أن القطعة التي نقلناها من شعر ابن الرومي عن الوطن هي جزء من قصيدة قدمها إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل من التجار أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرانها، فمما فيها من التحريض قوله:

وإني وإن أضـــحي مـــدلا بمالـــه لآمـــل أن أضـــحي مـــدلا بمالكـــا
فـــإن لم تـــصبني مـــن يمينـــك نعمـــة فـــلا تخطئنـــه نقمـــة مـــن شـــمالكا
فكـــم لقـــي العـــافون بـــدءًا وعـــودة نوالـــك والعـــادون غمـــر نكالكـــا

وقال ابن الرومي من كلمة أخرى يتشوق إلى بغداد:

بلـــد صـــحبت بـــه الـــشبيبة والـــصبا ولبـــست ثـــوب العـــيش وهـــو جديـــد
فـــإذا تمثـــل في الـــضمير رأيتـــه وعليـــه أغـــصان الـــشباب تميـــد

والأدباء يرون أن مثل هذا الشعر ليس بكاء على الوطن، ولا بكاء على اللهو، ولكنه بكاء على الشباب، ويذكرون قول ابن الرومي من كلمة ثانية:

لا تلـــح مـــن يبكـــي شـــبيبته إلا إذا لمـــا يبكهـــا بـــدم
عيـــب الـــشبيبة غـــول ســـكرتها ومـــدار مـــا فيهـــا مـــن الـــنعم
لـــسنا نراهـــا حـــق رؤيتهـــا إلا أوان الـــشيب والهـــرم
كالـــشمس لا تبـــدو فـــضيلتها حتـــى تغـــشى الأرض بـــالظلم

ولـــــرب شيء لا يـــــسر بـــــه وجدانـــــه إلا مـــــع العـــــدم

والذين يؤوِّلون شعر ابن الرومي هذا التأويل يرون أنه تبع في وصف الوطن بشار بن برد حين يقول:

متى تعرف الدار التي بان أهلها بسعدى فإن العهد منك قريب
تذكرك الأهواء إذ أنت يافع لديها فمغناها إليك حبيب

ولعلنا لا نبالغ إذا ذكرنا هؤلاء بأن بكاء الشباب ليس إلا بكاء لما انقطع بعده من دواعي الطيش، وموجبات الجنون، فبعض العقل رزء، وبعض الوقار بلاء، ولكن أكثر الناس لا يفقهون!

ولقد سافر العباس بن الأحنف مع هارون الرشيد إلى خراسان فاستدعاه ليلة لينشده شيئا من الشعر، فأنشده هذه الأبيات:

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا
مضى الذي كنت أرجوه وآمله أما الذي كنت أخشاه فقد كانا
ما أقدر الله أن يدني على شحط سكان دجلة من سكان جيحانا

فقال له: لقد اشتقت يا عباس! فأجابه، نعم يا أمير المؤمنين! فأذن له بالرجوع ... وقال ابن ميادة يخاطب الوليد بن يزيد:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة بحرة ليلى حيث ربيني أهلي
بلاد بها نيطت علي تمائمي وقطعن عني حين أدركني عقلي
فإن كنت عن تلك المواطن مانعي فاقتر علي الرزق واجمع بها شملي

وهذا البيت من أرق ما قيل في الحنين إلى الأوطان! وما أدري أكان شوق ابن ميادة إلى بلاده رفقا بالأهل والعشيرة، أم كان برا بمن فيها من فاتنات الخدود، وساحرات العيون، وقاسيات القلوب؟ لا يعلم ذلك إلا الذي يقول:

ومن بينات الحب أن كان أهلها أحب إلى قلبي وعيني من أهلي

وقال مالك ابن الريب يتشوق إلى اليمامة ونسيمها العليل:

سقى الله اليمامة من بلاد نوافجها كأراح الغواني [١]
وجو أزاهر للريح فيه نسيم لا يروع الترب واني
به سقت الشباب إلى مشيب يقبح عندنا حسن الزمان

وقال بعض الأعراب في توديع نجد، وما لقي بها من نضارة العيش، وطيب الحياة:

أقول لصاحبي والعيس تهوي بنا بين المنيفة فالضمار
تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد وريا روضه بعد القطار
وأهلك إذ يحل الحيّ نجدا وأنت على زمانك غير زار [٢]
شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سرار

وهذا حنين يذل له عصيُّ الدمع. ويشبهه قول ابن المعتز في دار كانت ملعب صباه:

لا مثل منزلة الدويرة منزلٌ يا دار جادك وابل وسقاك
بؤسا لدهر غيرتك صروفه لم يمح من قلبي الهوى ومحاك
لم يحل للعينين بعدك منظر ذم المنازل كلهن سواك
أي المعاهد منك أندب طيبه مما ساك بالآصال أم مغداك
أم برد ظلك ذي الغصون وذي الجنى أم أرضك الميثاء أم رياك

(١) النوافج بالجيم نافجة وهي الريح تبدأ بشدة.
(٢) غير زار: غير عاتب.

وكـــأنما ســـعطت مجـــامر عنـــبر ... أو فـــت فـــار المـــسك فـــوق ثـــراك
وكـــأنما حـــصباء أرضـــك جـــوهر ... وكـــأن مـــاء الـــورد دمـــع نـــداك
وكـــأنما أيـــدي الربيـــع ضـــحية ... نـــشرت ثيـــاب الوشـــى فـــوق ربـــاك
وكـــأن درعـــا مفرغـــا مـــن فـــضة ... مـــاء الغـــدير جـــرت عليـــه صـــباك

ومما يقرب من بكاء الديار ذكر منازل اللهو والقصف. وقد كان الشعراء يتخذون الأديار موطنا لعبث الصبا ولعب الشباب، ولكثير منهم حنين موجع إلى سكانها من ظرفاء الرهبان، وربما عدنا إلى بسط ذلك في غير هذا الحديث ونكتفي الآن بنفثات العشاق في التغني بمنازل الشراب. فمن ذلك قول محمد بن عاصم المصري في دير القصير، وقد كان ملعبا للشعراء المصريين.

إن ديـــر القـــصير هـــاج أذكـــاري ... لهـــو أيامنـــا الحـــسان القـــصار
وزمانـــا مـــضى حميـــدا سريعـــا ... وشـــبابا مثـــل الـــرداء المعـــار
ولـــو أن الـــديار تـــشكو اشـــتياقا ... لـــشكت جفـــوتي وبعـــد مـــزاري
ولكـــادت تـــسير نحـــوي لمـــا قـــد ... كنـــت فيهـــا ســـيرت مـــن أشـــعاري
وكـــأني إذ زرتـــه بعـــد هجـــر ... لم يكـــن مـــن منـــازلي وديـــاري
إذ صـــعودي عـــلى الجيـــاد إليـــه ... وانحـــداري في المعتقـــات الجـــواري
بـــصقور إلى الـــدماء صـــواد ... وكـــلاب عـــلى الوحـــوش ضـــواري
منـــزلا لـــست محـــصيا مـــا لقلبـــي ... ولنفـــسي فيـــه مـــن الأوطـــار
كـــم شربنـــا عـــلى التـــصاوير فيـــه ... بـــصغار محثوثـــة وكبـــار
صـــورة في مـــصور فيـــه ظلـــت ... فتنـــة للقلـــوب والأبـــصار
أطربتنـــا بغـــير شـــدو فأغنـــت ... عـــن ســـماع العيـــدان والمزمـــار
لا وحـــسن العينـــين والـــشفة ... اللميـــاء منهـــا وحـــدها الجلنـــار
لا تخلفـــت عـــن مـــرادي دهـــرا ... هـــي منـــه ولـــو نـــأى بي مـــزاري

وفي دير القصير هذا يقول كشاجم:

سلام على دير القصير وسفحه ... فجنات حلوان إلى النخلات
منازل كانت لي بهن مآرب ... وكن مواخيري ومتنزهاتي
إذا جئتها كان الجياد مراكبي ... ومنصرفي في السفن منحدرات

ومن الأديار التي خلدها الشعراء «دير قُنّا» بالقرب من بغداد، وقد أبدع في وصفه المؤرخون، ثم طواه الدهر فيما طوى من ملاعب الشباب، ولم يبق غير ذكراه في قول ابن جمهور:

يا منزل اللهو بدير قُنا ... قلبي إلى تلك الربى قد حنا
سقيا لأيامك لما كنا ... نمتاز منك لذة وحسنا
أيام لا أنعم عيشا منا ... إذا انتشينا وصحونا عدنا
إذا فني دن بزلنا دنا ... حتى يظن أننا جننا
ومسعد في كل ما أردنا ... يحكي لنا الغصن الرطيب اللدنا
أحسن خلق الله إذا تحنا ... وجس زير عوده وغنا
بالله يا قسيس يا باقنا [1] ... متى رأيت الرشأ الأغنا
متى رأيت فتنتي تجنى ... آه إذا ما ماس أو تثنى
أسأت إذا أحسنت فينا الظنا!

ومن الشعراء من تهيج حفيظته على قطر فيتغنى بقطر آخر كان ملعب هواه، كما قال السرى الرفاء يمدح الموصل ويذم العراق:

لحا الله العراق وساكنيه ... فما للحرِّ بينهم قرار
وجاد الموصل المبيض غيث ... يجود وللبروق به انسفار
كما انهلت مدامع مستهام ... تلهب منه في الأحشاء نار
ففي أيامه حسن التصابي ... وفي أفيائه خلع العذار

(١) قد يكون أصل الكلمة يا أبا قنا ثم حذفت الهمزة تخفيفا والمراد به ساكن دير قنا.

ليـــالي كـــان لي في كـــل يـــوم ... إلا الحانـــات حـــج واعـــتمار
فعـــن ذكـــر القيامـــة بي صـــدود ... وعـــن ســـاح المـــساجد بي نفـــار
ولي خـــدنان همهـــما المعـــالي ... وشـــأنهما الـــسكينة والوقـــار
وســـاق تـــضحك الـــدنيا إليـــه ... إذ أضـــحكت بكفيـــه العقـــار
يطـــوف بهـــا وقـــد حملـــت حبابـــا ... كـــما حمـــل الـــسقيط الجلنـــار [1]
كـــأن الـــشرب ينتهبـــون نـــارا ... لهـــا لهـــب ولـــيس لهـــا شرار
رأى الـــدهر اجـــتماع الـــشمل منـــا ... فبـــددده وللـــدهر الخيـــار

إلى هنا وقف القارئ على نماذج في بكاء الديار الخالية، والحنين إلى الوطن النائي، والشوق إلى مواطن اللهو والشراب، فلنذكر شكوى العشاق من المنزل القريب المأهول، حين يصبح أهله كالكواكب قريبة الضوء، بعيدة المنال! وحين يصبح تمنع الحبيب أقسى من النوى، وأمر من الفراق. وأبدع الشعر في ذلك قول راشد بن إسحاق الكوفي:

ومـــستوحش لم يمـــس في دار غربـــة ... ولكنـــه ممـــن يحـــب غريـــب
طواه الهوى واستشعر الوصل غيره ... فـــشطت نـــواه والمـــزار قريـــب
ســـلام عـــلى الـــدار التـــي لا أزورهـــا ... وإن حلهـــا شـــخص إلي حبيـــب
وإن حجبـــت عـــن نـــاظري ستورها ... هـــوى تحـــسن الـــدنيا بـــه وتطيـــب
هوى تضحك اللذات عند حضوره ... ويسخن طرف اللهو حين يغيب
تثنـــى بـــه الأعطـــاف حتـــى كأنـــه ... إذا اهتـــز مـــن تحـــت الثيـــاب قـــضيب
ألـــم تـــر صـــمتي حـــين يجـــري حديثـــه ... وقـــد كنـــت أدعـــى باســـمه فأجيـــب
رضـــيت بـــسعي الـــدهر بينـــي وبينـــه ... وإن لم يكـــن للعـــين فيـــه نـــصيب
أحـــاذر إن واصـــلته أن ينـــالني ... وإيـــاه ســـهم الفـــراق مـــصيب

(١) الجلنار: زهر الرمان.

أرى دون مـن أهـوى عيونـا تريبنـي ولا شـــك أني عنـــدهن مريـــب
أداري جليـسي بالتجلـد في الهـوى ولي حـين أخلـو زفـرة ونحيـب
وأخـــبر عنـــه بالـــذي لا أحبـــه فيـضحك سـني والفـؤاد كئيـب
مخافـة أن تغـري بنـا ألـسن العـدا فيطمـــع فينـــا كاشـــح فيعيـــب
كـأن مجـال الطـرف في كـل نـاظر عـلى حركـات العاشـقين رقيـب
أرى خطرات الشوق يبكين ذا الهوى ويـصبين عقـل المـرء وهـو لبيـب
وكـم قـد أذل الحـب مـن متمنـع فأضـحى وثـوب العـز منـه سـليب
وإن خـضوع الـنفس في طلـب الهـوى لأمـــر إذا فكـــرت فيـــه عجيـــب

وقد نقل صاحب زهر الآداب عن أبي شراعة القيسي أنه كان في مجلس العتبي مع عبد الصمد بن المعذل، وأنهم تذاكروا ما أبدع المولدون من الشعر الرقيق فقال عبد الصمد أنا في ذلك أشعر الناس؟ فقال أبو شراعة أشعر منك الذي يقول:

ومـستوحش لم يمـس في دار غربـة ولكنـــه ممـــن يحـــب غريـــب

إلى آخر القصيدة. وإن عبد الصمد حين سمعها لم ينطق بحرف! وعندي أن صاحب هذه القصيدة لم يوفق في وصف مشاعره وصفا منظما يصح أن يكون «صورة شعرية» بل نراه جمع بين أشياء متنافرة حظها من الائتلاف قليل: ألا تراه يذكر في أول القصيدة أنه قريب، ولكنه في قربه غريب، لأن إنسانا غيره يتمتع بذلك الحبيب؟ ثم ألا تراه بعد ذلك يذكر أنه يحاذر الوصل طائعا لئلا يصيبه ويصيب من يهواه سهم الفراق؟ وهذا بالطبع شطط في تصوير النفس المعذبة، لأن الذي يتصور أن محبوبه قد يطوق بذراع عاشق غيره لا يتغنى بأنه يترك مواصلته انتقاء لعيون الوشاة!

ينقص هذه القصيدة إذا ما أسميه «الصورة الشعرية» ولا يمنع هذا أن تكون في جملتها جميلة لما تحويه من الأبيات المختارة. ولئن صح أن العتبي صادق على أن صاحبها أشعر الناس فإنا نشك في أذواق الأدباء الأقدمين ونرتاب في حاستهم الفنية. وأحب أن يفهم بعض الناس معنى «الحاسة الفنية» فإن كثيرا من أدعياء الأدب لا يفقهون ما يقولون وما يكتبون، فضلا عن أن يفقهوا ما تناثر على بساط الدهر من ثمرات العقول!

وأمثال هؤلاء يعرفون فقط ما يسمع أو يرى أو يلمس أو يشم أو يذاق! ولكنهم لا يعرفون ما يدرك، إذ لم يرزقوا الإدراك! ومحال أن يجدوا طعما لقول الشاعر:

أسمع في قلبي دبيب المنى ... وألمس الشبهة في خاطري

لأنهم لا يدرون أين تكون الخواطر. وأين تكون القلوب! من أجل هذا أشير على طالب الأدب بأن يتروى ويتريث حين يقرأ آثار الكتاب والشعراء، وأن لا يعتمد في اختياره على الأذواق العامة لعلماء البيان، فقد غفل الدهر عن كثير من المتصدرين فظنوا أنهم على شيء، وأن الأدب لحياتهم مدين!!

وقد يمر العاشق ببيت من يهوى ثم لا يملك التحية، لأن الوشاة له بالمرصاد. فمن ذلك قول السري الرفاء:

مررنا بالعقيق فكم عقيق ... ترقرق في محاجرنا فذابا
ومن مغنى جعلنا الشوق فيه ... سؤالا والدموع له جوابا
وفي الكلل التي غابت شموس ... إذا شهدت ظلام الليل غابا
حملت لهن أعباء التصابي ... ولم أحمل من السلوان عابا
ولو بعدت قبابك قاب قوس ... من الواشين حييت القبابا

إلى هنا عرف القارئ ألوان العواطف عند منازل الأحباب، فقد رأى نفثات المحبين عند الديار الخالية، وشهد بكاءهم على الوطن النائي، وحنينهم إلى مواطن اللهو والشراب، ثم رأى زفراتهم عند المنزل يدنو وهو بعيد، لنفور ما فيه من الظباء! ويجمع شتيت هذه المعاني قول بعض الأعراب:

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع ... إذا كان من تهواه ليس بذي عهد

وربما عدنا إلى تفصيل هذه النوازع القلبية، حين نتحدث عن آراء الشعراء في أفنان الجمال.

* * *

وشاية الدموع

من العشاق من يؤثر الكتمان: فهو يخشى أن تفضحه الدموع! وأشهر الشعراء في إخفاء الحب العباس بن الأحنف، وسنبسط الكلام عن مذهبه حين نتكلم عن الكتمان. ونكتفي الآن بشعره عن قهره بالدموع: وقد رأيته يتوجع حينا من عجزه عن كتم الحب وقد غلبه الدمع، فيقول:

هبوني أغض إذا ما بدت ... وأملك طرفي فلا أنظر
فكيف استتاري إذا ما الدموع ... نطقن فبحن بما أضمر
أمني تخاف انتشار الحديث ... وحظي في صونه أوفر
ولو لم يكن في بقيا عليك ... نظرت لنفسي كما تنظر

ويغضب حينا على دمع عينيه فيقول:

لا جزى الله دمع عيني خيرا ... وجزى الله كل خير لساني
نم دمعي فليس يكتم شيئا ... ورأيت اللسان ذا كتمان
كنت مثل الكتاب أخفاه طي ... فاستدلوا عليه بالعنوان

ويبالغ في هذا المعنى حتى ليرمي قلبه بالعداوة، فيقول:

قلبي إلى ما ضرني داعي ... يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا ... كان عدوي بين أضلاعي

ومن الشعراء من ييأس من كتم الهوى حين تنهمر الدموع، كما يقول البحتري:

علاقة حب كنت أكتم بثها ... إلى أن أذاعتها الدموع الهوامع

إذا العين راحت وهي عين على الجوى فليس بسر ما تسر الأضالع

وقد أفصح الأرجاني عن غاية ذلك: وهي نصر الوشاة، بقوله:

ولي نفس إذ ما امتد شوقا أطار القلب من حرق شظايا
ودمع ينصر الواشين ظلما ويظهر من سرائري الخبايا

وأكرم من هؤلاء جميعا الشريف الرضي حين يقول:

أيسمح جفني بالدموع وأغتدي ضنينا بها إني إذا للئيم
ولو بخلت عيني إذا لعتبتها فكيف ودمع الناظرين كريم

وقد نظر أبو نواس إلى قول بشار بن بُرد:

يروعه السرار بكل شيءٍ مخافة أن يكون به السرار

ثم حاكاه بهذه الأبيات في نميمة الدمع:

قد تسترت بالسكون وبالإطـ ـراق جهدي فنمّت العينان
تركتني الدموع نصب المشيريـ ـن وأَحدوثة بكل مكان
ما أرى خاليين للسر إلا قلت ما يخلوان إلا بشاني

وهي صورة شعرية، تمثل العاشق المروع أصدق تمثيل.

ومن المحبين من تنم عليه دموعه الغزار، وأنفاسه الحرار، كالبحتري حين يقول:

إن الخطوب طوينني ونشرنني عبث الوليد بجانب القرطاس
ما شبت من طول السنين وإنما طول الملامة فيك شيب راسي
نمت على ما في ضميري أدمعي وتتابع الصعداء من أنفاسي

ومن رائع الشعر في فضيحة الدمع لصاحبه قول مهيار:

طرحت بجمع نظرة ساءَ ركبها وتبعث شرا للعيون المطارح
فإن سترت تلك الثلاث على منى هواي فيوم النفر لا شك فاضح
بكيت ولام العاذلات فلم تغض على رقية العذل الدموع السوافح

وأحب أن يتأمل القارئ قوله «نظرت بجمع نظرة ساءَ كسبها» ليعرف كيف يسوءُ كسب العيون، حين تجني على القلوب!

* * *

سلطان الحب

سألنا حضرة الشيخ محمد علي الخالدي عن الحب: اختياري هو أم اضطراري وهل المحب مضطر أم مختار؟ وقد اختلف الناس من قبل في هذه المسألة، وأوضحها ابن أبي حجلة في كتاب «ديوان الصبابة» وأنا ناقل هنا نبذة من ذلك الكتاب الذي انتهى منه مؤلفه في منتصف القرن الثامن الهجري، لأنه يمثل لنا رأي علماء ذلك العصر في مثل هذه الشئون. قال ابن أبي حجلة في سذاجة غريبة ما نصه:

«هذا فصل عقدناه لما تقدم ذكره. وأسفر كالصباح أمره. إذ للناس فيه كلام من الطرفين، وتبختر من الصفين. فقائل بأنه اضطراري. وقائل بأنه اختياري. ولكن من القولين وجه مليح. وقدر رجيح. ونحن نذكر من ذلك ما يعم به الانتفاع. ونتكلم في طوله وعرضه بالباع والذراع (!!) فمن ذلك ما قاله القاضي أبو عمرو النوناني في كتابه تحفة الظراف: العشاق معذورون على كل حال. مغفور لهم في جميع الأقوال والأفعال. إذ العشق إنما دعاهم على غير اختيار. بل اعتراهم على جبر واضطرار. والمرء إنما يلام على ما يستطيع من الأمور. لا في المقضي عليه والمقدور. وقد جاء في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- : إن الحامل كانت ترى يوسف -عليه السلام- فتضع حملها. فكيف تراها وضعته؟ أباختيار منها كان ذلك أم باضطرار؟ لا. بل باضطرار، وفقد اقتدار. وهذا مما لا يشك فيه ذو لُبٍّ. ولا يختلج خلافه في قلب».

ثم نقل عن الفضيل بن عياض أنه قال: لو رزقني الله دعوة مجابة لدعوت الله بها أن يغفر للعشاق لأن حركاتهم اضطرارية. ونقل عن أبي محمد بن حزم

أن رجلا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين إني رأيت امرأة فعشقتها. فقال عمر: ذلك مما لا يملك. قال «وما أحسن قول بعض بني عذرة وقد قال له بعض العرب: ما لأحدكم يموت عشقا في هوى امرأة يألفها؟ إنما ذلك ضعف نفس، ورقة، وخور، تجدونه فيكم يا بني عذرة. فقال: أما والله لو رأيتم الحواجب الزج، فوق النواظر الدعج، تحتها المباسم الفلج، لاتخذتموها اللات والعزى!».

ثم قال بعد كلام طويل «إن العشق يختلف باختلاف بني آدم وما جبلوا عليه من اللطافة ورقة الحاشية، وغلظ الكبد، وقساوة القلب، ونفور الطباع، وغير ذلك. فمنهم من إذا رأى الصورة الحسنة مات من شدة ما يرد على قلبه من الدهش ومنهم من إذا رأى المليح سقط من قامته، ولم يعرف نعله من عمامته» - العاقبة عندكم يا شيخ محمد! - ثم قال «فهذا وأمثاله عشقه اضطراري، والمخالفة فيه مكابرة في المحسوس».

والذي أراه أن المحب مضطر غير مختار، وما ذكرت هذه التفاصيل إلا ترويحا للنفس. أما الشعر في سلطان الحب فكثير. فمن الشعراء من يجعله سحرا كالطغرائي حين يقول:

إن لم يكن سحرا هواك فإنه ... والسحر قُدَّا من أديم واحد
ما زلت أزهد في مودة راغب ... حتى ابتليت برغبة في زاهد
ولربما نال المراد مرفَّه ... لم يسع فيه وخاب سعي الجاهد
هذا هو الداء الذي ضاقت به ... حيل الطبيب وطال يأس العائد

ومنهم من يذكر أنه قتل نفسه غير متعمد كقول مهيار:

وعنفني سعد على فرط ما أرى ... فقلت أتعنيف ولم تك مسعدي

ومـــا ذاك إلا أن عجلـــت بنظـــرة قتلـــت بهـــا نفـــسي ولم أتعمـــد

ومنهم من يرى الحب يصب على القلب كالقضاء المحتوم لا مرد له كقول المتنبي:

أيـــدري الربـــع أي دم أراقـــا وأي قلـــوب هـــذا الركـــب شـــاقا
لنـــا ولأهلـــه أبـــدا قلـــوب تلاقـــى في جـــسوم مـــا تلاقـــى
فليـت هـوى الأحبـة كـان عـدلا فحمـــل كـــل قلـــب مـــا أطاقـــا

ومنهم من يجعله قضاءً من الله. كقول عمرو بن ربيعة الرقاشي:

تـضيق جفـون العـين عـن عبراتهـا فتـسفحها بعـد التجلـد والـصبر
وغـصة صـدر أظهرتهـا فرفهـت حـزازة حـرٍّ في الجـوانح والـصدر
ألا ليقـل مـن شـاءَ مـا شـاءَ إنـما يـلام الفتـى فـيما اسـتطاع مـن الأمـر
قـضى الله حـب المالكيـة فاصـطبر عليـه فقـد تجـري الأمـور عـلى قـدر

ويدخل في هذا الباب خلود الحب. فمن الشعراء من يجعل سببه خلود المحاسن في الحبيب، كقول ابن الرومي:

هـــل الملالـــة إلا منقـــضى وطـــر مـــن متعـــة يطبَّـــى مـــن غيرهـــا وطـــر
وفيـك أحـسن مـا تـسمو النفـوس لـه فـأين يرغـب عنـك الـسمع والبـصر

وكما قال ابن عنين:

خبروهـــا بأنـــه مـــا تـــصدى لـــسلو عنهـــا ولـــو مـــات صـــدا
واســـألوها في زورة مـــن خيـــال إن تكـــن لم تجـــد مـــن الهجـــر بـــدا
ظبيـــة تخجـــل الغزالـــة وجهـــا وبهـــاء وتفـــضح الغـــصن قـــدا

وكما قال أبو الأسود الدؤلي:

أبـــى القلـــب إلا أم عمـــرو وحبهـــا عجـــوزا ومـــن يحبـــب عجـــوزا يفنـــد

كـــبرد الـــيماني قـــد تقـــادم عهـــده ورقعتـــه مـــا شـــئت في العـــين واليـــد

وهو رأي منتقد: فكل زهر إلى ذبول، وكل جمر إلى خمود، وكل حسن إلى فناء، ولا خلود للحب إذا كان داعيه الحسن الفاني والجمال الزائل.

ومنهم من يجعل السبب في خلود الحب كثرة دواعيه، كقول صردر:

ولقد عرضت على السلو جوانحي الـ ـــحرى فلـــم يـــرهن دار مقـــام
كيـف الـسلو ولـيس يـسلك مـسمعي إلا حنـــين أو بكـــاء حمـــام

وكما قال ابن الزيات:

لم يـــزدني العـــذل إلا ولعـــا ضرني أكثـــر ممـــا نفعـــا
ذهبـــت بالقلـــب عـــين نظـــرت ليتهـــا كانـــت وإيـــاه معـــا
كـــل يـــوم لي منهـــا آفـــة تركتنـــي للهـــوى متبعـــا

وكما قال ابن التعاويذي:

يلـوم عليـك خـال مـن غرامـي رويـدك أيـن سـمعي والمـلام
سـلو مثـل عطفـك لا يرجـى وصـبر مثـل وصـلك لا يـرام
فكيـف أطيـع عـذالي وعنـدي همـوم قـد سـهرت لهـا ونـاموا

وهذا أيضا منتقد، فإن أمثال هؤلاء الشعراء ينسون الحب إذا نفدت دواعيه!

ومنهم من يجعل السبب في خلود الحب تغلغل الوجد في الأحشاء. كما قال الأبيوردي:

أرى كـل حـب غـير حبـك زائـلا وكـل فـؤاد غـير قلبـي سـاليا
إذا اسـتخبر الواشـون عـما أسره حمـدت سُـلوي أو ذممـت التـصابيا
أيـذهل قلـب أنـت سر ضـميره فـلا كـان يومـا عنـك يـا علـو سـاليا

وكما قال الغزي:

يـا خلـيلي لـو ملكـت فـؤادي ... جـاز أن يملـك الـصواب عنـاني
ظـالمي مـن أراد إنـصاف نفـسي ... مـن هواهـا وآمـري مـن نهـاني
قـد تورطـت في تعـسف شـوقي ... حيـث لا يعـرف الـسلو مكـاني

وكما قال الطغرائي:

خلـيلي هـل مـن مـسعد أو معـالج ... فـؤادا بـه داء مـن الحـب نـاكسُ
وهـل ترجـوان الـبرءَ ممـا أكنـه ... فـإني وبيـت الله منـه لآيـس
هـوى لا يـديل القـرب منه ولا النوى ... ولا هـو مـن طـول التقـادم دارس
سرى حيث لا يـدري الـضمير مكانـه ... ولا تهتـدي يومـا إليـه الهـواجس
إذا قلـت هـذا يـوم أسـلو تراجعـت ... عقابيـل مـن أسـقامه ووسـاوس

وأرجو أن لا يغفل القارئ عما في هذا الشعر من فنون الجمال.

هناك مذهب رابع يجعل خلود الحب مواتاة للطبع، ونزولا عند حكم الخليقة، وهو أجمل المذاهب. ومنه قول التعاويذي:

مـن بـات ذا قلـب سليـ ... ـم مـن جـوى فأنـا الـسليم [١]
مـالي إذا رمـت الـسلو ... تلـوم القلـب المليـم [٢]
وإذا كتمـت الحـب بـا ... ح بـسره دمـع نمـوم
عينـي وقلبـي في الهـوى ... عـون عـلي فمـن ألـوم

وأظهر منه قول المتنبي:

إلام طماعيـة العـاذل ... ولا رأي في الحـب للعاقـل

(١) السليم هو الملدوغ.
(٢) المليم: الجاني.

يـــراد مـــن القلـــب نـــسيانكم وتـــأبى الطبـــاع عـــلى الناقـــل
وهبـــت الـــسلو لمـــن لامنـــي وبـــت مـــن الـــشوق في شـــاغل

ولا أنكر أن من الشعراء من يرى غير ما ذهبت إليه في هذا الحديث. ولكني أرى الحب الصادق حليف الخلود. وقد أوضحت هذه المسألة في كتاب «حب ابن أبي ربيعة وشعره» فليرجع إليه من شاء.

* * *

غرام النساء بالنساء

سألني حضرة محمد شهيب عبد الناصر بديروط «عما قالته الغواني في غرامها وحنينها إلى بنات جنسها إن كان هناك شيء من ذلك» بمناسبة ما حدث في برلين من غرام المسز كلين بالمسز ويب، وما جنت يداهما في سبيل هذا الحب الغريب!!

وآسف كثيرا أيها الأديب لاستحالة الجواب بالتفصيل في صحيفة سيارة: فقد درج الناس هنا على تفضيل الجهل في سبيل الوقار! ويكفي أن ألفت نظرك إلى حديث مسطور في كتب الأدب جاءت فيه هذه العبارة «هذا شيء يحتاج إلى حبال ورجال!» وإلى ذوقك يترك تقدير الظروف لأمثال هذه الوقائع!! وقد جاء في كلام رسول الله النهي عن «السحاق» كما جاء في القرآن النهي عن الزنا! والفرق واضح بين الكلمتين في اللفظ والمدلول! والمطلع على آداب الفرنسويين يجد في اعترافات النساء عجائب وغرائب تعجز عن مثلها الشياطين! والآداب العربية مملوءة بأمثال هذه الأعاجيب. والناس هم الناس في كل قطر وفي كل جيل، فلا تصدق ما تسمع من أن الإسراف في المجانة بدعة ابتدعها نساءُ برلين! وعندي أن آفة المصلحين في الشرق هي جهلهم بدقائق الحياة الإنسانية، وإغفالهم الركن الأساسي للإصلاح، وهو تشخيص الداء قبل وصف الدواء، وإقدام كثير منهم على الأمر بما لا يأتمر به والنهي عما لا ينتهي عنه، ومن البلية أن يكون المصلحون منافقين!

ألم نصف الآداب الغربية بالإسراف في وصف النساء؟ لقد جعلنا ذلك سيئة لا تقبل الغفران ولكنها في رأيي من الحسنات، إذ كان الواجب على كل

مصلح أن يقوي ما بين الرجل والمرأة من الميول الطبيعية، حتى لا نشكو غرام المرأة بالمرأة، وحب الرجال للغلمان!

اقرءوا هذا وتأملوه قبل أن تصدعوا رءوسنا بالدعوة إلى الفضيلة من حيث لا تعلمون!

وبعد ذلك ألفت نظر قراء «مدامع العشاق» إلى أن شعر النساء في الحب قليل: فقد كان العرب يستنكرون أن تعشق المرأة، وكان الرجل منهم يذوب خجلا إذا قالت إحدى قريباته بيتا واحدا في غلام جميل، وقد ثأر طويس المغني لنفسه من عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين غناه شعر عمته قارعة بنت ثابت في عبد الرحمن بن الحارث المخزومي:

يا خليلي نابني سهدي ... لم تنم عيني ولم تكد
فشرابي ما أسيغ وما ... أشتكي ما بي إلى أحد
كيف تلحوني على رجل ... آنس تلتذه كبدي
مثل ضوء البدر طلعته ... ليس بالزمِّيلة النكد
نظرت عيني فلا نظرت ... بعده عيني إلى أحد

وحديث علية بنت المهدي معروف، فقد حرم عليها أخوها هارون الرشيد أن تشبب بغلامها طل، فكان من نتيجة ذلك أن تشببت بجاريتها زينب وقالت فيها:

وجد الفؤاد بزينبا ... وجدا شديدا متعبا

وهو شعر سخيف، ولكنه يدل على أن عشق المرأة كان مما تسيغه النفوس في ذلك العهد. وليس معنى ذلك أننا ننكر أن زينب هنا كناية عن طل، ولكن معناه أن تشبيب علية بزينب كان حيلة سائغة لستر هواها الصحيح، ولم نر في

الكتب الأدبية من أنكر على علية هذا الميل الذي أنكرناه اليوم على نساء الألمان! وهناك أبيات لفضل الشاعرة قالتها في «قبيحة» جارية المتوكل!

سلافة كالقمر الباهر ... في قدح كالكوكب الزاهر
يديرها خشف كبدر الدجى ... فوق قضيب أهيف ناضر (١)

ولا مرية في أن العرب قتلوا عواطف المرأة، وحرموها من التشبيب، ولهم في ذلك عذر مقبول، فإن الغيرة لم توجد، ولن توجد، في مثل النفوس العربية، العرب بطبيعتهم عمالقة يكرهون الشريك، أو شبه الشريك. ويأبون أن يسمعوا حديث المرأة عن هواها المشبوب بل يغارون من تحدث الرجل عن هواه، حتى ليقول شاعرهم:

لم ألق ذا شجن يبوح بحبه ... إلا حسبتك ذلك المحبوبا
حذرا عليك وإنني بك واثق ... أن لا ينال سواي منك نصيبا

وإذا عز على المرأة أن تقول شعرا في الرجل، فإنه يعز عليها من باب أولى أن تقول شعرا في أختها المرأة، فضلا عن بعد ذلك من الحاجة الطبيعية، فإن «هذه الشهوة» تعتبر فضولا في باب الشهوات!

والحق أننا حرمنا خيرا كثيرا حين حرمنا شعر النساء، انظر إلى قول فضل في حبيب حرمها طيب الرقاد:

إن من يملك رقي ... مالك رق الرقاب
لم يكن يا أحسن العالم ... لم هذا في حسابي

وتأمل ما غنته عبيدة الطنبورية:

(١) الخشف بتثليث الخاء ولد الظبي.

كـــــن لي شـــــفيعا إليكـــــا إن خـــــــف ذاك عليكـــــــا
واعفنـــــي مـــــن ســـــؤالي ســـــواك مـــــا في يـــــديكا
يـــا مـــن أعـــز وأهـــوى مـــا لي أهـــون لـــديكا

إننا نشتهي أن تتكلم المرأة! إننا نحب أن نسمع حديثها العذب الجميل! ولكنهم يزعمون أن كلام المرأة فسق، وأن حديثها فجور، فيا ليت شعري متى يفقهون!

* * *

طيف الخيال

من الشعراء من يصف الحسرة التي تودي برشده حين تحرمه اليقظة من الاستمتاع بالطيف، كالذي يقول:

وزارني طيف من أهوى على حذر ... من الوشاة وداعي الصباح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولي به فرحا ... وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتبهت وآمالي تكذبني ... نيل المنى فاستحالت غبطتي أسفا

ومنهم من يذكر العلة في طروق الطيف، والسبب في زيارة الخيال، كقول أبي تمام:

زار الخيال لها لا بل أزاركه ... فكر إذا نام فكر الخلق لم ينم
ظبي تقنَّصته لما نصبت له ... في آخر الليل أشراكا من الحُلمِ

وقوله من كلمة ثانية:

استزارته فكرتي في المنام ... فأتانا في خفية واكتتام
يا لها ليلة تنزهت الأرواح ... فيها سرا من الأجسام
مجلس لم يكن لنا فيه عيب ... غير أنا في دعوة الأحلامِ

وكقول عبد الصمد بن المعذل:

وصل النوم بيننا بعد هجر ... فاجتمعنا ونحن مُفترقان
غير أن الأرواح خافت رقيبا ... فطوت سرّها عن الأبدان
منظرٌ كان لذة القلب إلا ... أنه منظر بغير عيانٍ

فالعلة عند أبي تمام في طروق الخيال إنما هي احتيال فكره، ونصبه أشراكا من الحلم. والسبب في زيارة الطيف عند ابن المعذل هو النوم، مع إبداعه في طي الأرواح سرها عن الأبدان، خوفا من الرقباء!

وهناك فكرة لابن العفيف ألطف من هاتين وأطرف: وهي أن الحبيب سطع نوره وعمّ، حتى شمل النائمين، وتجلى لأعينهم، على بعدهم منه، ونأيهم عنه. وله في هذه الفكرة البديعة هاته الأبيات الحسان:

يا حبذا طيفك من قادم ... يا أحسن العالم في العالمِ
طيف تجلى نوره ساطعا ... حتى رأته مقلة النائم
يا غائبا يحكم في مهجتي ... عليّ طالت غيبة الحاكم
عار على حسنك أن يشتكي ... حظي منه أنه ظالمي

والبحتري على شهرته بالخيال، لم يكن ممن يعنون بذكر السبب في قدومه، والعلة في طروقهن وإنما يجيد في وصف انعطافه، وانصرافه، كقوله:

سقى الغيث أجراعا عهدت بجوها ... غزالا تراعيه الجآذر أغيدا
إذا ما الكرى أهدى إليّ خياله ... شفى قربه التبريح أو نقع الصدى
إذا انتزعته من يدي انتباهةٌ ... عددت حبيبا راح مني أو غدا
فلم أر مثلينا ولا مثل شأننا ... نعذّب أيقاظا ونُنعم هجدا

ومن بديع الشعر في ذهاب الخيال قوله:

ألمت بنا بعد الهدوءِ فسامحت ... بوصل متى نطلبه في الجدّ تمنع
وولت كأن البين يخلج شخصها ... أو أن تولت من حشاي وأضلعي

وهو غاية في الإبانة عن اللهفة، والإفصاح عن الحسرة!

ومن الشعراء من يحمد للطيف سماحه بالنعيم المباح، كقول بشار:

ولقـــد تعـــرض لي خيـــالكم في القُـــرط والخلخـــال واللـــب
فـــشربت غـــير مبـــاشر حرجـــا برضـــاب أشـــنب بـــارد عـــذب

وكقول المتنبي فيما يقرب من هذا المعنى:

بتنـــا يناولنـــا المـــدام بكفـــه مـــن لـــيس يخطـــر أن نـــراه ببالـــه
تجنـي الكواكـب مـن قلائـد جيـده وتنـال عـين الـشمس مـن خلخالـه

وقد نص البحتري على ما ذكرناه من النعيم المباح بقوله:

ومـا نلتقـي إلا عـلى حُلـم هاجـد يحـل لنـا جـدواك وهـي حـرام
إذا مـا تبادلنـا النفـائس خلتنـا مـن الجـد أيقاظـا ونحـن نيـام

وألم به في قوله:

بنفـسي خيـالا مـن أثيلـة كلـما تأوهـتُ مـن وجـدي تعـرض يطمـع
تـرى مقلتـي مـالا تـرى مـن لقائـه وتـسمع أذني رجـع مـا لـيس تـسمع

* * *

خيال البحتري

وقد يكون من الوفاء لتاريخ الآداب أن نذكر كيف اشتهر البحتري بالخيال حتى قالوا (خيال البحتري) وضربوا به الأمثال. وقد تأملت هذه الشهرة فوجدتها ترجع إلى ترديده لزيارة الطيف في غير ضعف ولا فضول: فتارة يصف الخيال بالكرم وقد ضن المحبوب، والقرب وقد شطّت ديار الحبائب، حتى ليبعث الهوى من جديد، كقوله:

وقفنا فلا الأطلال ردت إجابة ... ولا العذل أجدى في المشوق المخاطب
تمادت عقابيل الهوى وتطاولت ... لجاجة معتوبٍ عليه وعاتب
إذا قلت قضيت الصبابة ردها ... خيال ملم من حبيب مجانب
يجود وقد ضن الألى شغفي بهم ... ويدنو وقد شطت ديار الحبائب

وتارة يذكر أن الطيف ألم به في الظلام فلم يجد مكانا يأوي إليه؛ لأن الكرى طردته الدموع، كقوله:

تلك البغيلة ما وصلي بمنصرف ... عنها ولا صدّها عني بمصدود
ألم بي طيفها وهنا فأعوزه ... عندي وجود كر بالدمع مطرود

وأحب لو تأمل القارئ وصفه لحبيبته بالبخل، وعفا الله عن هؤلاء البخلاء.

ومما امتاز به البحتري شكواه هجر الخيال. وقد أكثر من ذلك حين حرم من غلامه نسيم، ولغلامه هذا قصة عجيبة: فقد ذكروا أنه كان يبيعه، ثم تطير نفسه إليه فيشتريه، حتى وقع في يد من لا يبيع روائع الجمال! وقد أوضح شكواه هجر الخيال في هذه الأبيات الحسان:

أنسيم هل للدهر وعدٌ صادق ... فيما يؤمله المحبّ الوامق
ما لي فقدتك في المنام ولم يزل ... عون المشوق إذا جفاه الشائق
أمنعت أنت من الزيارة رقبة ... منهم فهل منع الخيال الطارق
اليوم جاز بي الهوى مقداره ... في أهله وعلمت أني عاشق

ثم ردد هذا المعنى في داليته الجميلة، التي يقول فيها:

دعا عبرتي تجري على الجور والقصد ... أظن نسيما قارف الهجر من بعدي
خلا ناظري من طيفه بعد شخصه ... فيا عجبا للدهر فقدا على فقدِ
بنفسي حبيب نقلوه عن اسمه ... فبات غريبا في رجاء وفي سعدِ
فيا حائلا عن ذلك الاسم لا تحل ... وإن جهد الأعداءُ عن ذلك العهد
أبا الفضل في تسع وتسعين نعجة ... غنًى لك عن ظبي بساحتنا فرد
أتأخذه مني وقد أخذ الجوى ... مآخذه مما أسر وما أبدي
وتخطو إليه صبوتي وصبابتي ... ولم يخطه بشي ولم يعده وجدي

ونحب أن لا يتعقبنا حضرة (البدوي الملثم) فيطالبنا بتحقيق بيع البحتري لغلامه نسيم ليعرف أكان ذلك عن حاجة أم كان طمعا في المال، فقد تردد في ذلك المؤرخون ! أليس هو الذي لمح إلينا حين ذكرنا أن علية بنت المهدي كنت عن طل بزينب، ولفت نظرنا إلى أنها إنما كنت بزينب عن رشأ؟ رويدك أيها الصديق، فليس في هذه المجاهل يقين، وحسبك أن تعلم أن ذلك سر من أسرار القصور، وناهيك بقصر الرشيد!

وبهذه المناسبة أذكر أن التعبير الحديث «شربوا نخب مصر! وشربوا نخب فرنسا» كان له عند العرب بديل جميل، انظر قول علية في غلامها رشأ:

اشرب على وجه الغزال ... الأهيف الحلو الدلال
اشرب عليه وقل له ... يا غل ألباب الرجال

وانظر قول إسحاق في غلامه زياد:

أدرها على بعد الحبيب فربما ... شربنا على بُعد الأحبة والفجع
فما بلغتني الكأس إلا شربتها ... وإلا سقيت الأرض كأسا من الدمع

وقال ابن الفارض:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة ... سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

فأي التعبيرين أجمل؟ أقول العرب: شربت على وجهه، وعلى بُعده، وعلى ذكره؟ أم قولنا شربت نخبه؟ أجيبوا أيها المتكلفون!

ونعود فنذكر تشبث البحتري بالطيف عند الصباح في قوله:

وليلة هوَّمنا على العيس أرسلت ... بطيف خيال يشبه الحق باطله
فلولا بياض الصبح طال تشبثي ... بعطفي غزال بت وهنا أغازله
وكم من يد لليل عندي حميدةٍ ... وللصبح من خطب تُذم غوائله

أتذكر أيها القارئ أن لسانك انعقد، وقد رأيت دمية من دمى الجمال، فلم تزد على أن قلت: هذه فتاة حسناء؟ الأمر هنا كذلك، فاعذرني إن لم أزد على أن أقول: هذا شعر جميل!

ويظرف البحتري كثيرا حين يجعل هجر الطيف نوعا من العتاب. انظر قوله:

تناءت دار علوة بعد قربٍ ... فهل ركبٌ يبلغها السلاما
وجدد طيفها عتبا علينا ... فما يعتادنا إلا لماما
وربَّت ليلةٍ قد بت أَسقى ... بعينيها وكفيها المداما
قطعنا الليل لثما واعتناقا ... وأفنيناه ضما والتزاما

وقد تعجب لتشبيه الزائر النحيل بالطيف الطروق: انظر قوله:

وزوْرٍ أتـــاني طارقـــا فحـــسبته ... خيـالا أتـى مـن آخـر الليـل يطـرق
أقـسم فيـه الظـن طـورا مكـذبا ... بـه أنـه حـق وطـورا أصـدق
أخـاف وأرجـو بُطـل ظنـي وصـدقه ... فللـه ظنـي حـين أرجـو وأفـرق
وقـد ضـمنا وشـك التلاقـي ولفـا ... عنـاقٌ عـلى أعناقنـا ثـم ضـيق
فلـم نـر إلا مخـبرا عـن صـبابةٍ ... بـشكوى وإلا عـبرة تترقـرق
فأحسن بنـا والـدمع بالـدمع واشـجٌ ... تمازُجـه والخـد بالخـد ملـصق
ومـن قُبـلٍ قبـل التـشاكي وبعـده ... نكـاد بهـا مـن شـدة الوجـد نـشرق
فلـو فهـم النـاس التلاقـي وحـسنه ... لحبـب مـن أجـل التلاقـي التفـرق

وقد يأسى البحتري ويشجى حين لا تبقي له الليالي غير الذكرى والخيال، تأمل قوله:

حبيـبٌ نـأى إلا تعـرض ذكـرةٍ ... لـه أو ملـم طـائف مـن خيالـه
أأَمنـع في هجرانـه مـن صـبابة ... وقـد كنـت صـبا مغرمـا في وصـاله
ويـأمرني بالـصبر مـن لـيس وجـدهُ ... كوجـدي ولا أهـلان حـالي كحالـه
فإن أفقد العيش الـذي فـات بـاللوى ... فقـدمًا فقـدت الظـل عنـد انتقالـه

ولقد أذكر أني قرأت منذ سنين رواية (رافاييل) وهي بدعة في الآداب الفرنسوية. فأقسمت لأزورن إن استطعت قبر (لامارتين) واليوم أقسم إن استطعت لأزورن قبر البحتري!

أليس هو القائل في طيف الخيال:

أتـرى حبـي لـسعدي قـاتلي ... وإذا مـا أفـرط الحـب قتـل
خطـرت في النـوم منهـا خطـرةٌ ... خطـرةَ البـدر بـدا ثـم اضـمحل
أي زور لـك لـو قـصدا سرى ... وملـم منـك لـو حقـا فعـل

يـــتراءى والكـــرى في مقلتـــي فـــإذا فارقهـــا النـــوم بطـــل

ولتقي الدين السروجي قصيدة بديعة ختمها ببيتين في الخيال، وقد زاره فما حققه لفرط سروره به، ثم ولى عنه فما درى كيف يدركه، ولا عرف كيف يلحقه. قال:

أنعـــم بوصـــلك لي فهـــذا وقتـــه يكفـي مـن الهجـران مـا قـد ذقتـه
أنفقـت عمـري في هـواك وليتنـي أَعطـى وُصـولا بالـذي أنفقتـه
يـا مـن شـغلتُ بحبـه عـن غـيره وسـلوت كـل النـاس حـين عـشقته
كـم جـال في ميـدان حبـك فـارسٌ بالـصدق فيـك إلى رضـاك سـبقته
أنـت الـذي جمـع المحاسـن وجهـه لكـــن عليـــه تـــصبري فرقتـــه
قـال الوشـاة قـد ادعـى بـك نـسبة فـسررتُ لمـا قلـت قـد صـدقته
بـالله إن سـألوك عنـي قـل لهـم عبـدي وملـك يـدي ومـا أعتقتـه
أو قيـل مـشتاقٌ إليـك فقـل لهـم أدري بـذا وأنـا الـذي شـوقته
يـا حـسنَ طيـف مـن خيالـك زارني مـن فرحتـي بلقـاك مـا حققتـهُ
فمـضى وفي قلبـي عليـه حـسرةٌ لـو كـان يمكننـي الرقـاد لحقتـه

والشعراء يشكون غالبا ألا يمكث الطيف طويلا. وقد شذ الطغرائي فذكر أن محبوبته عتبت عليه لغيبة الطيف عنده، وطول مكثه لديه. وذلك قوله:

بعثـــت إليّ تلـــومني في هجعـــةٍ أهـــدت إليّ خيالهـــا المـــذعورا
وتقـول مـا للطيـف أبطـأ بعـدما كنـا اشـترطنا أن يقـيم يـسيرا
فأجبتهـا بالعـذر وهـو مبـين لـو كـان ينـصف لائـمٌ معـذورا
أطبقـت أجفـاني عليـه وسـمته خـوض الـدموع فـما اسـتطاع عبـورا

وهذا الخيال على طرافته منتقد. فإن الطيف لا يدخل العين، حتى يُضطر إلى عبور الدمع، وهدى الله قوما يحسبون هذا الشعر من وثبات الخيال!

قالوا: وأول من طرد الطيف طرفة ابن العبد في قوله:

فقل لخيال العامرية ينقلب ... إليها فإني واصلٌ حبلَ من وصل

وتبعه جرير فقال:

طرفتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام

وهذا حدس وتخمين، فإنه ليس إلى توقيت النوازع القلبية من سبيل. ومن طريف الشعر في طرد الخيال قول ابن هانئ الأندلسي:

ألا طرقتنا والنجوم ركودُ ... وفي الحيّ أيقاظٌ ونحن هُجود
وقد أعجل الفجر الملمع خطوها ... وفي أَخريات الليل منه عمودُ
سرت عاطلا غضبي من الدر وحده ... فلم يدر نحرٌ ما دهاه وجيد
فما برحت إلا ومن سلك أدمعي ... قلائد في لباتها وعقود
ألم يأتها أنا كبرنا عن الصبا ... وأنا بلينا والزمان جديد

ومن الشعراء من يعتذر عن النوم في بعد الحبيب باحتياله لزيارة الخيال. انظر قول علي الإيادي:

أما أنه لولا الخيال المراجع ... وعاصٍ يُرى في النوم وهو مطاوع
لأشفق واستحيا من النوم والهُ ... يُرى بعد روعات النوى وهو هاجع

وأود لو تأمل القارئ قوله (وعاص يرى في النوم وهو مطاوع) فطالما قدم النوم هؤلاء العصاة وهم للحب خاضعون!

وأصل هذا المعنى لقيس بن الملوح في قوله:

وإني لأستغشي وما بي نعسة ... لعل خيالا منك يلقى خياليا
وأخرج من بين الجلوس لعلني ... أحدث عنك النفس في السر خاليا
تُقطع أنفاسي بذكرك أنفسا ... يردن فما يرجعن إلا صواديا

وأوضح منه قول قيس بن ذريح:

وإني لأهوى النوم في غير نعسةٍ ... لعل لقاءً في المنام يكونُ
تخبرني الأحلام أني أراكم ... فيا ليت أحلام النيام يقين

والظاهر أن نعمة الطيف لا تسوي بين العشاق جميعا. فهي عند بعضهم لوعة وغليل! فقد جعلها حسين بن الضحاك قناعة تقضي بها الضرورة حين يقول:

وماذا يفيدك طيف الخيال ... والهجر حظك ممن تحبّ
غناءٌ قليلٌ ولكنني ... تمنيته بقنوع المحب

ومن الشعراء من يعجب لزيارة الخيال، كأن يزوره الطيف وهو سجين، كقول جعفر بن عُلبة:

عجبت لمسراها وأني تخلصت ... إليّ وباب السجن دوني مُغلق
ألمّت فحيت ثم قامت فودعت ... فلما تولت كادت النفس تزهق
فلا تحسبي أني تخشعت بعدكم ... لشيء ولا أني من الموت أفرق
ولا أن نفسي يزدهيها وعيدهم ... ولا أنني بالمشي في القيد أخرق
ولكن عرتني من هواك صبابةٌ ... كما كنت ألقى منك إذ أنا مطلق

وقد ترفق زياد بن حمل فعجب كيف زاره طيف حبيبته مع أنها ضعيفة المشي مكسال. وذلك قوله من قصيدة طويلة:

زارت رويقة شعثا بعدما هجعوا ... لدي نواحل في أرساغها الخدم
وقمت للزور مرتاعا فأرقني ... فقلت أهي سرت أم عادني حلم
وكان عهدي بها والمشي يبهظها ... من القريب ومنها النوم والسأم
وبالتكاليف تأتي بيت جارتها ... تمشي الهوينا وما تبدو لها قدم

سـود ذوائبهـا بـيض ترائبهـا ... دُرم مرافقهـا في خلقهـا عممُ
رويـق إني ومـا حـج الحجـيج لـهُ ... ومـا أهـل بجنـي نخلـة الحـرمُ
لم ينـسني ذكـركم مُـذ لم ألاقكـم ... عـيش سـلوت بـه عـنكم ولا قِـدمُ
ولم تـشاركك عنـدي بعـد غانيـةٌ ... لا والـذي أصـبحت عنـدي لـه ذِمـم

ومن هذا يعتذر فريق من الشعراء عن هجر الطيف لبعد الشقة كقول ابن عنين.

سـامحت كتبـك في القطيعـة عالمـا ... إن الـصحيفة أعـوزت مـن حامـل
وعـذرت طيفـك في الجفـاء لأنـه ... يـسري فيـصبح دوننـا بمراحـل

وقال كشاجم في مثل هذا العذر الطريف:

لقـد بخلـت حتـى بطيـف خيالهـا ... عـليّ وقالـت رحمـةً لنحيبـي
أخـاف عـلى طيفـي إذا جـاء طارقـا ... وسـادك أن يلقـاه طيـف رقيبـي

* * *

طرف أدبية

وقد يكون من المستملح أن نذكر جملة من الطرف تتناسب مع طيف الخيال. فمن ذلك ما أرسله بعض الشعراء إلى الحسن بن سهل:

رأيت في النوم أني راكب فرسا ... ولي وصيفٌ وفي كفي دنانيرُ
فقال قوم لهم فهمٌ ومعرفةٌ ... رأيت خيرا وللأحلام تعبير
رؤياك فسر غدا عند الأمير نجد ... في الحلم درا وفي النوم التباشير

فوقع في أسفل الكتاب «أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين»!! ودخل بعض الشعراء على بشر بن مروان فأنشده:

أغفيت عند الصبح نوم مسهدٍ ... في ساعة ما كنت قبل أنامها
فرأيت أنك رعتني بوليدة ... رعبوبة حسنٌ عليّ قيامها
وببدرةٍ حُملت إلي وبغلة ... دهماء مشرقة يصل لجامها
فدعوت ربي أن يثيبك جنة ... عوضا يصيبك بردُها وسلامها

فقال له: أبشر في كل شيء إلا البغلة فإني لا أملك إلا شهباء! فقال: امرأتي طالق إن كنت رأيتها إلا شهباء غير أني غلطت!

ونقل عن أبي العِبر أنه كان عنده حمار فمات فرآه في النوم ينشد شعرا يقول فيه إنه مات عاشقا، فسأله المتوكل ما الذي كان من شأنه؟ فقال: كان يا أمير المؤمنين أعقل من القضاة، ليس له هفوة ولا زلة! فاعتلّ على حين غفلة، فمات، فرأيته في النوم فقلت له: ألم أنقِّ لك الشعير وأبرد لك الماء، فما سبب موتك؟ فقال أتذكر إذ وقفت علي باب الصيدلاني؟ قلت نعم، قال مرت إذ ذاك أتان فافتتنت بها ومت! فقلت وهل قلت شيئا في ذلك، فقال نعم وأنشد:

هـــــام قلبـــــي بأتـــــان عنـــــد بـــــاب الـــــصيدلاني
تيمتنـــــي يـــــوم رُحنـــــا بثناياهـــــا الحـــــسان
وبخـــــــــــــدٍّ ذي دلالٍ مثـــــل خـــــد الـــــشيقران
فبهـــــا مـــــتُّ ولـــــو عـــــشـ ـــــت إذا طـــــال هـــــواني

فقال له يا أبا معاذ. وما الشيقران؟ فقال أنا مشغول بها أنا فيه! وهذا كلام تعرفه الحمير! فإذا رأيتم حمارا، أو من كان أولا حمارا، فاسألوه! فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم، جزاء بما أبدع في هذا الخيال.

* * *

اليأس والرجاء

ليس في العشاق من لم يُرزق الأمل والرجاء، وليس فيهم من لم يُرزأ باليأس والقنوط.

وقد تأملت ما قال الشعراء في اليأس، فرأيت منهم من يترك لأجله العتبا كقول ابن الأحنف:

سكوتي بلاءٌ لا أطيق احتمالَه ... وقلبي ألوفٌ للهوى غيرُ نازعِ
وأقسم ما تركي عتابك عن قِلى ... ولكن لعلمي أنه غير نافع
وأني إذا لم ألزم الصبر طائعا ... فلابد منه مكرها غير طائع
إذا أنت لم يعطفك إلا شفاعةٌ ... فلا خير في ودٍ يكون بشافع

وقد عزّى نفسه ابن الأحنف حين يئس بقوله:

لعمري لقد جلبت نظرتي ... إليك عليّ بلاء طويلا
فيا ويح من كلفت نفسه ... بمن لا يطيق إليه السبيلا
هي الشمس مسكنها في السماء ... فعزّ الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع إليها الصعود ... ولن تستطيع إليك النزولا

وإني لأتمنى أن يرحمني الله من عذابي، بترديد هذا البيت الجميل:

فيا ويح من كلفت نفسه ... بمن لا يطيق إليه السبيلا

ومن العشاق من يرى اليأس أروح من الطمع. كما قال صردر:

لا أمدح اليأس ولكنه ... أروح للنفس من المطمعِ
يا ليت أني قبل وقْدِ الهوى ... أذنت للعذلِ على مسمعي

أيـــن بـــدورٌ مـــن بنـــي دارمٍ تبخـــل أن تُـــسفر في مطلـــعِ
لا في سِرار الـــشهر تبـــدو لنـــا ولا ليـــالي العـــشر والأربـــع
أودعـــتهم قلبـــي ومـــا خِلـــتهم يستحـــسنون الغـــدر بـــالمودع
لـــو زارني طـــيفهمُ مـــا درى مـــن الـــضنى أني في مـــضجعي

ومن المتيمين من يعتذر عن نسيانه، بيأسه وقنوطه. ولم أجد في هذا المعنى أبدع من قول الطغرائي:

من مُبلغ الحي شطت دارهم ورضوا بالجار جارا وما أرضى بهم عوضا
قد طاب عنكم فؤادٌ طاب قبلكم عن الرضاع تقضي والشباب مضى
إن الزمان الذي كانت بشاشته للقلب والعين ملهى بان فانقرضا
فإن نسيت فيأس لم يدع طمعا وإن ذكرت فعرقٌ ساكنٌ نبضا
حكمت في مهجتي من ليس ينصفني ولست أبلغ من تحكيمه غرضا
سيان عندي وأمري صار في يده قضى عليّ بجورٍ أم إليّ قضى

وليس بعد اليأس إلا الرجاء، وإن عجب لذلك بعض الناس. فمن المحبين من يلهج بالأمل ترويحا لنفسه، وترفيها لقلبه، كالذي يقول:

أعلـــلُ بـــالمنى قلبـــي لعـــلي أَروّح بالأمـــاني الهـــم عنـــي
وأعلـــم أن وصـــلك لا يرجـــى ولكـــن لا أقـــل مـــن التمنـــي

ومنهم من يجعل الرجاء نصيب المبعد الحزين كما قال ياقوت:

لله أيـــامٌ تقـــضت بكـــم مـــا كـــان أحلاهـــا وأهناهـــا
مـــرت فلـــم يبـــق لنـــا بعـــدها شيءٌ ســـوى أن نتمناهـــا

ويكاد الأمل يصرخ في قول مسلم بن الوليد:

أدهـــرا تـــولى هـــل نعيمـــك مقبـــلُ وهـــل راجـــعٌ مـــن عيـــشنا مـــا نؤمـــل

أدهـرا تـولى هـل لنـا منـك عـودةٌ لعلـك يُعـدي آخـرا منـك أول

وأوجع الشعر في هذا المعنى قول ابن زريق:

لأصـبرن لـدهر لا يمتعنـي بـه ولا بي في حـال يمتعـه
علـما بـأن اصـطباري معقـب فرجـا فأضـيق الأمـر لـو فكـرت أوسـعه
عـلّ الليـالي التـي أضـنت بفرقتنـا جـسمي سـتجمعني يومـا وتجمعـه

ولـو سُـئلت عـن رأيـي في اليـأس والرجـاء، لقـدمت لـسائلي هـذه الـدعوة المستجابة التي أدعو بها عقب كل صلاة «يا ربي! إنني ما جحدت نعمتك يوم رزقتني بهم ولا جهلت حكمتك يوم أقصيتهم عني، وهأنذا أنتظر فضلك وطولك، في ردهم إليّ، وعطفهم عليّ. فلولا الثقة برحمتك، والإيمان بإحسانك، لذهبت النفس عليهم حسرات. وقطع القلب في آثارهم قطعا».

❊ ❊ ❊

العتاب

خير العتاب ما كان ظاهر الذل، بادي الخضوع، نزولا عند حكم الهوى، وإيمانا بعودة الحبيب، كقول القائل:

يـا غايـة القـصد وأقـصى المنـى ... وخـير مرعـى مقلـة النـاظر
إن كـان لي ذنـبٌ ولا ذنـب لي ... فـما لـه غـيرك مـن غـافرِ
أعـوذ بـالود الـذي بيننـا ... إن يفـسد الأول بـالآخر

وحسبك من موجب العطف، ودواعي الرحمة، أن يتوسل المحب بسالف حبه، وماضي عهده، وأن يجعل الأمر في غفر ذنبه لحبيبه.

وقال ابن التعاويذي:

يـا ابنـة القـوم كيـف ضـاعت عهـودي ... بيـنكم والوفـاء في العـرب ديـنُ
كيف أسلمت فيك قلبي إلى الأشجان ... لـولا أن الغـرام جنـون
أترينـي عـلى النـوى مـضمرا عنـ ... ـك سـلوا إني إذا لخئـون
أنـا مـن قـد علمـت عهـدي على النأي ... وثيـق وحبـل ودي متـين

ولا يكون العتاب بابا للرضى إلا حين يصبح إنابة خالصة، كقول ابن زيدون:

يـا قمـرا أطلعـه المغـرب ... قـد ضـاق في حبـك المـذهب
ألزمتنـي الـذنب الـذي جئتـه ... إليّ فاصـفح أيهـا المـذنب

وكقول الآخر:

إذا مرضـتم أتينـا كـم نعـودكم ... وتـذنبون فنـأتيكم فنعتـذر

فأما قول البحتري:

قد كان مني الوجد غب تذكر ... إذ كان منك الصد غِب تناسي
تجري دموعي حيث دمعك جامدٌ ... ويرق قلبي حيث قلبك قاسي

فهو بالتأنيب أشبه منه بالعتاب، وخير منه قول البحتري نفسه في كلمة ثانية:

إني وإن لم أبح بوجدي ... أَسرٌ فيك الذي أسر
يا ظالما لي بغير جرم ... إليك من ظلمك المفرّ
أنت نعيمي وأنت بؤسي ... وقد يسوء الذي يسرّ

وقوله من كلمة أخرى تسيل ذلةً وتفيض خضوعا:

أيا قمر التمام أعنت ظلما ... عليّ تطاول الليل التمام
أما وفتور لحظك يوم أبقى ... تقلبهُ فتورا في عظامي
لقد كلفتني كلفا أَعنى ... به وشغلتني عما أمامي
أعيذك أن يُراق دم حرامٌ ... بذاك الدّلِّ في شهر حرام

ويعجز القلم عن وصف ما لهذا الشعر من روعة الجمال، وأتمنى لو تأمل القارئ قليلا هذا البيت الجميل:

يا ظالما لي بغير جرم ... إليك من ظلمك المفرّ

فإنه خير من قول ابن زيدون:

ألزمتني الذنب الذي جئته ... إلي فاصفح أيها المذنبُ

وهل رأى القارئ، أروح للنفس، وأمتع للقلب، من هذا القسم:

أما وفتور لحظك يوم أبقى ... تقلبه فتورا في عظامي

وهل رأى حيرة للحب أشقى من حيرة الذي يقول:

لقـــد كلفتنـــي كلفـــا أعنـــى بـــه وشـــغلتني عـــما أمـــامي

ألا ليت الذين يكتبون رسائلهم باللغة العامية، يعلمون ما نعلم من جمال اللغة الفصيحة ليعرفوا أنهم يجنون على أنفسهم، وعلى قرائهم إذ يحرمونهم من التطلع إلى جنة الأدب، وقطوفها الدانية! ولو عرضت على كتاب العامية هذا البيت:

إني وإن لم أبـــــح بوجـــــدي أسر فيـــــك الـــــذي أسرّ

ثم سألتهم ما فيه من وجوه الحسن لحسبوك من المسرفين، وكيف يفهم جمال هذا البيت من يتدلى إلى اللغة المبتذلة المهلهلة عجزا عن الكتابة باللغة التي رحبت بثمرات العقول في جميع الأمم الإسلامية، وكانت لغة العالم زمنا غير قليل.

ولا يحسب واحد من هؤلاء أن الحسن في الأدب لا حد له ولا تعريف، بل هناك حقائق أدبية يرتكز عليها الجمال. في الشعر البديع والنثر الجميل، وقاعدة الحسن فيما نحن فيه إن العرب يستملحون بعض ألفاظ الشمول في كثير من المواطن إيذانا بالتفخيم والتهويل، كلفظة «ما» في قوله تعالى (فغشيهم من اليم ما غشيهم) للدلالة على أن ما عانوه من طغيان الماء يفوق الوصف، ويعجز عنه التمثيل، ومنها قول البحتري:

بـــرَّح بي حبـــك المعنـــي وغـــرَّني منـــك مـــا يغـــرّ

إذ كانت دواعي الحب، وأسباب العشق، مما يقصر عن إدراكه المحب المفتون، والعاشق المأسور!

ومن ذلك لفظة «الذي» في هذا البيت المختار:

إني وإن لم أبـــــح بوجـــــدي أسرّ فيـــــك الـــــذي أسرّ

إيذانا بأن ما يجنه من اللوعة، وما يكنه من الشوق، أجل من أن يحيط به الوصف، أو يناله البيان!

ومن العشاق من يضيف إلى ذلة العتاب، ذلة الإقرار بالذنب كقول الشريف:

أيـا شـاكيا منـي بـذنب جنيتـه فـديتك مـن شـاكٍ إليّ حبيـب
لـئن راب منـي مـا يريـب فـإنني عـلى عـدواء الـداء غـير مريـب
وإني لأرعـى منـك والـود بيننـا هـوى قلـما يرعـى بظهـر مغيـب
فهـب لي ذنبـا واحـدا كنـت قلتـه فـما زلـة مـن حـازم بعجيـب
فيا حسن حال الود ما دمت مذنبا أتـوب ومـا دامـت تعـد ذنـوبي

والبيت الأخير يذكرنا بقول بشار:

ومـن ذا الـذي تُـرضي سـجاياه كلهـا كفـى المـرء نُـبلا أن تعـدّ معايبـه

ومن بديع الشعر في وصف العتاب، وما فيه من ذلة العاشق، وعزة المعشوق قول الشريف:

ومقبـل كفـي وددت لـو أنـه أومـأ إلى شـفتي بالتقبيـل
جاذبتـه طـرف العتـاب وبيننـا كِـبر الملـول وذلـة المملـول
ولحظـت عقـد نطاقـه فكـأنما عُقـد الجـمال بقرُطـقٍ محلـول
جـذلان يـنفض مـن فـروج قميصه أعطـاف غـصن البانـة المطلـول
مـن لي بـه والـدار غـير بعيـدة مـن داره والمـال غـير قليـل

وقوله:

ومقبـل كفـي وددت لـو أنـه أومـأ إلى شـفتي بالتقبيـل

يذكرنا بقول الصاحب بن عباد:

أهـــــوى لتقبيـــــل يـــــدي فقلـــــت لا بـــــل شـــــفتي!

وحيرة أمثال الشريف الرضي والصاحب بن عباد في أمثال هذه المواقف حيرة رهيبة، فكلا الرجلين عالم جليل، ولكن الحب كالموت لا يعصم منه البرج المشيد، والحصن المنيع، وقد يتقرب بعض الناس إلى مثل الشريف الرضي بتقبيل يمناه، فيود هذا لو قبل شفتيه، لأن الحب شغله عن الاحتفاظ بالعظمة، وقضى عليه بتقديس الجمال! وهنا يظهر بطش الحب وعدوانه: حين يذهب بوقار العلم، وجلال الجاه، وغرور المال، ثم يسوي بين الأقدار، ريثما ينسى العالم علمه، والوجيه جاهه، والغني ماله، حتى إذا أنست تلك النفوس العاتية إلى هذه المساواة، عاد فميز أهل الحسن، ورفع أرباب الجمال، وصير المحبين أذلة، بالرغم من أنف العلم والجاه والمال! ويقول العرب: الهوى إله معبود، وإنهم لصادقون. غير أنه يحسن أن نعرف أن هذا الإله ليس برحمن ولا رحيم، ولكنه قهار جبار! ولولا الرحمة بضعفاء اليقين لأعطيت هذا البحث ما يستحقه من البيان، ولبينت للقارئ رأي الفلاسفة في مملكة الجمال، ولكن الدين في كثير من القلوب كالكرى في عين الخائف المذعور: يودي به مر الطيف وهبوب النسيم! والذين يختلفون في النظرة البريئة أحرام هي أم حلال، لا يعقلون كيف يكون الهوى إلها، وكيف يكون له ملائكة مقربون، من الشعور، والعيون، والخدود، والثغور، والنحور والصدور، وهم إن عقلوا هذه الألوهية فلن يعقلوا كيف يكون لها من كتاب الحب أنبياء مرسلون، بل كل محب عندهم ماجن خليع، قاتلهم الله أني يؤفكون!

ونعود فنبين أن الشريف أجاد تصوير العتاب بقوله:

جاذبتـــه طـــرف العتـــاب وبيننـــا كـــبر الملـــول وذلـــة المملـــول

والمراد بكبر الملول عزة المعشوق، الذي تحدثه عن هجره وصده، فكأنما تُسمعه هجر القول ولغو الحديث، فيتبرم ويتململ، ويود لو أرحته من حديث الحب: إذ كان الحسن يسد أذن الجميل، فلا يسمع الشكوى ولا يفقه العتاب، وما أبدع الغزل في قوله:

جـذلان يـنقض مـن فـروج قميـصه أعطـــاف غـــصن البانـــة المطلـــول

ولا يكاد حضرة الشاعر الكبير حافظ بك إبراهيم يذكر الشريف الرضي إلا ذكر له هذا البيت، وله فيه تأويل عجيب! ولعل أبرع ما قيل في التطلع إلى الاستمتاع بالجمال، قوله في هذا البيت المختار:

مـــن لي بـــه والـــدار غـــير بعيـــدة مـــن داره والمـــال غـــير قليـــل

ولعل صديقنا الشيخ عبد العزيز صقر يتسلى بأن الشريف الرضي على جاهه كان يشكو بعد الدار، وقلة المال:

فـــدع ذكـــر سُـــعدى إن فيـــك تقيـــةٌ ألا إنـــما يبغـــي المهـــا مـــن يـــصيدها

وقد يصبح العتاب وهو لوم للنفس، وعذل للقلب، على الكلف بحبيب ليس للحب عنده جزاء، فمن ذلك قول بعض الأعراب:

أحبـــا عـــلى حـــب وأنـــت بخيلـــةٌ وقـــد زعمـــوا أن لا يحـــب بخيـــل
بـــلى والـــذي حـــج الملبُّـــون بيتـــه ويـــشفي الهـــوى بالنيـــل وهـــو قليـــل
وإن بنـــا لـــو تعلمـــين لغلـــة إليـــك كـــما بالحـــائمات غليـــل

وقد يعكس هذا المعنى، فيحب العاشق ظلم معشوقه، ويحب من أجل ذلك أعداءه الظالمين، كقول أبي الشيص الخزاعي:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي ... متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيذة ... حبا لذكرك فليلمني اللوم
أشبهت أعدائي فصرت أحبهم ... إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغرا ... ما من يهون عليك ممن أكرم

ومن العشاق من يمزج العتاب بذكر ما لقي في سبيل الحب من البلايا، كقول ابن الدمينة:

وأنت التي كلفتني دلج السرى ... وجون القطا بالجلهتين جُثوم
وأنت التي قطعت قلبي حزازة ... وفرقت قرح القلب فهو كليم
وأنت التي أحفظت قومي فكلهم ... بعيد الرضا داني الصدود كظيم

وقد أجابته محبوبته أُمامة فذكرت ما لقيت في سبيل حبه من سفاهة الوشاة، وشماتة اللاثمين، حين تقول:

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني ... وأشمت بي من كان فيك يلوم
وأبرزتني للناس ثم تركتني ... لهم غرضا أُرمى وأنت سليم
فلو أن قولا يكلم الجسم قد بدا ... بجسمي من قول الوشاة كلوم

وقد ضعف ابن الدمينة عن مجاراتها في قسوة العتاب، فبعث إليها الأبيات الآتية، يسألها الصفح والغفران:

وإذا عتبت عليّ بتُّ كأنني ... بالليل مختلس الرقاد سليم
ولقد أردت الصبر عنك فعاقني ... علقٌ بقلبي من هواك قديمٌ
يبقى على حدث الزمان وريبهِ ... وعلى جفائك إنه لكريم

ومن المحبين من تعجزه الحيلة، فيذكر أحبابه بأن الحياة قصيرة، لا تتسع للصد، ولا تحتمل الهجر، كقول الطغرائي:

ويـا رُفقـة مـرت بجزعـاء مالـك ... تـؤم الحمـى أنـضاؤها المطايـا
نـشدتكم بـالله ألا نـشدتمُ ... بهـا شُـعبة أضـللتها مـن فؤاديـا
وقلـتم لحـيّ نـازلين بقربهـا ... أقـاموا بهـا واسـتبدلوا بجواريـا
رويـدكم لا تـسبقوا بقطيعتـي ... صروف الليـالي إن في الـدهر كافيـا

وأصل هذا المعنى لإياس بن القائف إذ يقول:

إذا زرت أرضـا بعـد طـول اجتنابهـا ... فقـدت صـديقي والـبلاد كـما هيـا
فـأكرم أخـاك الـدهر مـا دمـتما معـا ... كفـى بـالمهات فرقـة وتنائيـا

وقد كاد سعيد بن حميد يضع لهذا المعنى صورة شعرية بقوله في النهي عن العتاب:

أقلـل عتابـك فالبقـاء قليـل ... والـدهر يعـدل تـارة ويميـلُ
لم أبـك مـن زمـن ذممـت صروفـه ... إلا بكيـت عليـه حـين يـزول
ولكـل نائبـة ألمـت مـدةٌ ... ولكـل حـال أقبلـت تحويـل
والمنتمـون إلى الإخـاء جماعـة ... إن حـصلوا أفنـاهم التحـصيل
فلـئن سـبقتُ لتبكـين بحـسرةٍ ... وليكثـرن عـليّ منـك عويـل
ولـتفجعن بمخلـص لـك وامـقٍ ... حبـل الوفـاء بحبلـه موصـول
ولـئن سـبقت ولا سـبقت ليمـضين ... مـن لا يـشاكله لـدي خليـل
وليـذهبن بهـاء كـل مـروءةٍ ... وليفقـدن جمالهـا المـأهول
وأراك تكلـف بالعتـاب وودنـا ... بـاقٍ عليـه مـن الوفـاء دليـل
ولعـل أيـام الحيـاة قـصيرةٌ ... فعـلام يكثـر عتبنـا ويطـول

على أن الرفق الذي ألم بالطغرائي فجعله يرجو أحبابه أن لا يسبقوا صروف الليالي، لم يمنعه من أن يصرخ شاكيا في نفس القصيدة. فيرمي أحبابه بالخيانة والنسيان، وذلك قوله:

أفي الحق أني قد قضيت ديونكم وإن ديوني باقياتٌ كما هيا
فوا أسفي، حتام أرعى مضِّيعا وآمن خوّانا وأذكر ناسيا
ومازال أحبابي يسيئون عشرتي ويجفونني حتى عذرت الأعاديا

والبيت الأخير يذكرنا بقول أبي تمام:

أحبابه لم تفعلون بقلبه ما ليس يفعله به أعداؤه

وقد بسط الأرجاني هذا المعنى فقال:

أأحبابنا كم تجرحون بهجركم فؤادا يبيت الليل بالهم مكمدا
إذا رمتمُ قتلي وأنتم أحبةٌ فما الذي أخشى إذا كنتمُ عِدا
سأضمر في الأحشاء منكم تحرقا وأظهر للواشين عنكم تجلدا
وأمنع عيني اليوم إن تكثر البكا لتسلم لي حتى أراكم بها غدا

ومن هؤلاء المساكين الذين لا يجدون حيلة غير تذكير أحبابهم بقصر الحياة أو صخر الهذلي في هذه الأبيات الموجعة:

بيد الذي شغف الفؤاد بكم تفريج ما ألقى من الهمّ
قد كان صرمٌ في المماتِ لنا فعجلت قبل الموت بالصّرم
ولما بقيت ليبقين جوى بين الجوانح مضرعٌ جسمي
فتعلمي أن قد كلفت بكم ثم افعلي ما شئت عن عِلم

وما ذكرت هذه المعاني المحزنة إلا تغنيت بهذا البيت الذي لا أراه إلا زفرة تتصعد، أو عبرة تتدفق:

وأرى الأيام لا تدني الذي أرتجي منك وتدني أجلي!!

ومن الشعر الممتع في وصف الحيرة، يرمي بها المحب العميد، قول الشريف يعاتب حبيبا أغراه بالحب، ثم أصلاه الصدود:

يا صاحب القلب الصحيح أما اشتقى ... ألم الجوى من قلبي المصدوع
أأسأت بالمشتاق حين ملكته ... وجزيت فرط نزاعه بنزوعِ
هيهات لا تتكلفن لي الهوى ... فضح التطبع شيمة المطبوع
كم قد نصبتُ لك الحبائل طامعا ... فنجوت بعد تعرض لوقوع
وتركتني ظمآن أشرب غلتي ... أسفا على ذاك اللمى الممنوع
قلبي وطرفي منك هذا في حمى ... قيظٍ وهذا في رياض ربيع
كم ليلةٍ جرّعتهُ في طولها ... غصص الملام ومؤلم التقريع
أبكي ويبسم والدجى ما بيننا ... حتى أضاء بثغرة ودموعي
تفلي أناملـه التراب تعللا ... وأناملي في سني المقروع
قمرٌ إذا استخجلته بعتابه ... لبس الغروب ولم يعد لطلوع
لو حيث يستمع السرار وقفتما ... لعجبتما من عزه وخضوعي
أبغي هواه بشافع من غيره ... شر الهوى ما نلته بشفيع
أهون عليك إذا امتلأت من الكرى ... أني أبيت بليلة الملسوع
قد كنت أجزيك الصدود بمثله ... لو أن قلبك كان بين ضلوعي

وقد ارتبت في بيتين وردا في خلال هذه القصيدة، وبينهما وبين موضوعها بون شاسع، وهما قوله:

ما كان إلا قبلة التسليم أر ... دفها الفراق بضمة التوديع
كمدي قديم في هواك وإنما ... تاريخ وصلك كان مذ أسبوع

فإن هذا الوصل الحديث خليق بمحو ذلك العتب القديم، والتنافر بين هذين البيتين وبين موضوع القصيدة ظاهر على الأقل من مقابلتهما بهذا البيت الجميل:

أهون عليك إذا امتلأت من الكرى ... أني أبيت بليلة الملسوع

فإنه يدل على أن الحبيب غير بعيد، وأنه في قربه نافر شرود، مما يذكرنا بقوله من كلمة ثانية:

أبيتُ والليل مبثوثٌ حبائلهُ والوجد يقنص مني كل مجلودِ
شوقا إليك وإشفاقا عليك ولي دمعان ما بين محلول ومعقود
ليس الغريب الذي تنأى الديار به إن القريب قريب غير مودود

وإنما أردنا هذه الملاحظة ليتنبه القارئ إلى أن في الدواوين أشياء كثيرة نسبت زورا إلى الشعراء، وربما عدنا إلى تحقيق ذلك في مبحث خاص. والأدباء يعجبون بعينية الشريف هذه في العتاب، وقل منهم من لا يحفظ هذا البيت المختار:

لو حيث يستمع السرار وقفتما لعجبتما من عزه وخضوعي

والعز والخضوع في هذا البيت يذكرنا بالعز والذل في قول عمارة اليمني في المجون:

ونافر الأعطاف عاملتهُ باللطف حتى سكن النافرُ
ولم أزل أمسحُ أعطافه ورأيه في قصتي حائر
حتى غدا من خجل مطرقا وكل إعراض له آخر
عجبت من ذلي ومن عزه في موقف عاذلهُ عاذر
في ليلةٍ ساهرها نائمٌ فما له سمعٌ ولا ناظر
مددت فيها الفخ لما خلا الجو إلى أن وقع الطائر
فبتّ من فرط اغتباطي به أظن أني غائبٌ حاضر

وابن التعاويذي يجيد الشعر في العتاب، وهو صاحب هذه الأبيات المختارة:

خـــذ في أفـــانين الـــصدود فـــإن لي ... قلبـــا عـــلى العِـــلات لا يتقلـــبُ
أتظننـــي أضـــمرت بعـــدك ســـلوة ... هيهـات عطفـك مـن سـلوّي أقـرب
قـــد كنـــت تنـــصفني المـــودة راكبـــا ... في الحـب مـن أخطـاره مـا أركـب
فـــاليوم أقنـــع أن يمـــرّ بمـــضجعي ... في النـــوم طيـــف خيالـــك المتـــأوِّب

وهو أيضا صاحب هذه القطعة التي تمثل الوجد الدفين:

يـــا نازحـــا لـــيس يـــدنو ... وعاتبـــا لـــيس يـــرضى
يـــا واجـــدا وديـــوني ... في حبـــه لـــيس تقـــضي
أمـــرت عينـــي ففاضـــت ... ومـــضجعي فأفـــضا
أرقـــد هنيئـــا فـــإني ... مـــا ذقـــت بعـــدك غمـــضا

ومن الظلم للعواطف أن لا نفصل مذهب العباس بن الأحنف في العتاب، فإن شعره آية الآيات في الشكوى من الهجر، والتوجع من الصدود، وهو مع هذا يعد أيام الهجر أحسن أيامه، ويقول:

وأحـسن أيـام الهـوى يومـك الـذي ... تُـروِّع بـالهجران فيـه وبالعتـب
إذا لم يكـن في الحـب سـخطٌ ولا رضـا ... فـأين حـلاوات الرسـائل والكتـب

ولكن هذا أمل بعيد، فليس كل عتب تدور فيه رسائل الحب، وصحف الهوى، وكذلك رزئ ابن الأحنف بمن ينبذ كتبه، ويمزق رسائله، وفي هذا المعنى قرأنا له هذه القطعة الباكية:

وصـــالك مظلـــمٌ فيـــه التبـــاسُ ... وعنـــدك لـــو أردت لـــه شـــهابُ
وقـــد حُملـــت مـــن حبيـــك مـــا لـــو ... تقـــسم بـــين أهـــل الأرض شـــابوا
أفيقـــي مـــن عتابـــك في أَنـــاس ... شـــهدت الحـــظ مـــن قلبـــي وغـــابوا
يظـــن النـــاس بي وبهـــم وأنـــتم ... لكـــم صـــفو المـــودة واللبـــاب
وكنـــت إذا كتبـــت إليـــك أشـــكو ... ظلمـــت وقلـــتِ لـــيس لـــهُ جـــواب

فعـــشت أقـــوت نفـــسي بالأمـــاني أقـــول لكـــل جامحـــةٍ إيـــاب
وصرت إذا انتهـــى منـــي كتـــابٌ إليـــك لتعطفـــي نُبـــذ الكتـــاب
وإن الـــود لـــيس يكـــاد يبقـــى إذا كثـــر التجنـــي والعتـــاب
خفـضت لمـن يلـوذ بكـم جنـاحي وتلقـــوني كـــأنكم غِـــضاب

وقد أكثر ابن الأحنف من التوجع لحرمانه من كتب من يهوى، وهو صاحب هذا البيت الحزين:

ويقنعنـــي ممـــن أحـــب كتابـــهُ ويمنعنيـــه، إنـــه لبخيـــلُ!

وكثيرا ما يميل ابن الأحنف إلى الصفح الجميل، إذ يرى العتاب لا يعطف القلوب، إن لم تضمر الحنان. وقد أفصح عن ذلك في هذه الأبيات:

أنكـر النـاس سـاطع المسك من دجـ ـــلة قـــد أوســـع المـــشارع طيبـــا
فهمـــو يعجبـــون منـــه ومـــا يـــدرو ن أن قـــد حللـــت منـــه قريبـــا
قاســـــميني هـــــذا الـــــبلاء وإلا فـــاجعلي لي مـــن التعـــزي نـــصيبا
إن بعـــض العتـــاب يـــدعو إلى العتـــ ـــب ويـــؤذي بـــه المحـــب الحبيبـــا
وإذا مـــا القلـــوب لم تـــضمر العطـــ ـــف فلـــن يعطـــف العتـــاب القلوبـــا

وما أجمل العزة في قوله:

خفـضت لمـن يلـوذ بكـم جنـاحي وتلقـــوني كـــأنكمُ غـــضابُ

وقوله:

خفضت طرفي لأدنى من يلوذ بكم حتـى احتقـرت ومـا مـثلي بمحتقـر

وأي كريم لم يلق مثل هذه الذلة في سبيل الصبابة؟ ومتى عرف الهوى قيمة العزة في نفوس الأعزاء، فعصمها عن مدارة قوم يحيطون بالجمال، إحاطة الأشواك بالورود؟

وقد نرى ابن الأحنف يائسا من نفع العتاب، فنقرأ له هذه الأبيات في التبرم بالسكوت:

سكوتي بلاءٌ لا أطيق احتمالهُ ... وقلبي ألوف للهوى غير نازع
فأقسم ما تركي عتابك عن قلى ... ولكن لعلمي أنه غير نافع
وإني إذا لم ألزم الصبر طائعا ... فلابد منه مكرها غير طائع
إذا أنت لم يعطفك إلا شفاعةٌ ... فلا خير في ودٍ يكون بشافع

وربما رأيناه زاهدا في العتاب، لأن محبوبته لا تصد صد العاتب، بل صد الملول وذلك قوله:

لو كنت عاتبة لسكن لوعتي ... أملي رضاك وزرت غير مراقبِ
لكن مللتِ فلم تكن لي حيلةٌ ... صد الملول خلاف صد العاتب
ما ضرّ من قطع الرجاء ببخله ... لو كان عللني بوعدٍ كاذب

على أن ابن الأحنف لم يقض كل حياته في هذا العذاب، بل رأيناه يعجب بنصره في الحب، وقهره لقلوب الحسان، أليس سعيدا من يقول:

يا رب جاريةٍ أسلبتُ عبرتها ... من رقة ولغيري قلبُها قاسي
كم من كواعبَ ما أبصرن خط يدي ... إلا تمنين أن يأكلن قرطاسي

وكان البها زهير، أحد وزراء مصر في أيامها الخوالي، من أرق الشعراء في العتاب، حتى لتحسب شعره نجوي بين المحب والحبيب، أو رنين الحلي عند عناق الحسان، أو خفوق الأمل في قلب اليائس المحزون. انظر إلى اعتذاره عن محبوبه، ورضاه عما جنت يد الدلال يسكر به المعشوق الجميل:

مولاي من سكر الدلا ... ل عبثت والسكران عابث
ونكثت عهدا في الهوى ... ما خلتُ أنك فيه ناكث

لـــــك لا أشـــــك قـــــضيةٌ أنـــا ســـائلٌ عنهـــا وباحـــث

وقد يكثر في شعر البها زهير وصف الدلال وما له من النشوة والسكر، فنراه في موطن آخر يقول:

أضـــنى الفـــؤاد فمـــن يريحـــه وحمـــى الرقـــاد فمـــن يبيحُـــه
ونـــضا مـــن الأجفـــان سيـــ ـــفا قلـــما يبقـــى جريحـــهْ
نـــشوان مـــن خمـــر الـــدلال غبوُقـــهُ وبهـــا صـــبوُحه

والذي يعنينا الآن شرح مواقفه في العتاب، لأنها تمثل الروح المصرية، وما لها من السماحة المصحوبة بالشمم والإباء. فحينا ينفي ما ذاع من سلوه، حتى هجره أحبابه، فيقول:

يـــا هـــاجرين وحقكـــم هـــونتم مـــا لا يهـــونُ
قلـــتم فـــلانٌ قـــد ســـلا مـــا كـــان ذاك ولا يكـــون
وحيـــاتكم وهـــي التـــي مـــا مثلهـــا عنـــدي يمـــين
مـــا خنـــت عهـــدكم كـــما زعـــم الوشـــاة ولا أخـــون
يـــا مـــن يظـــن بـــأنني قـــد خنتـــه غـــيري الخئـــون
لـــو صـــح ودك صـــح ظنـــ ـــك بي وبـــأن لـــك اليقـــين
يـــا قلـــب بعـــض النـــاس كـــم تقـــسو عـــليّ وكـــم ألـــين
يـــا ويلتـــاه لمـــن يخـــا طـــب أو لمـــن يـــشكو الحـــزين
قـــد ذلّ مـــن كـــان المعيـــ ـــن لـــهُ هـــو الـــدمع المعـــين

وحينما يمزج العتاب بالشكوى فيقول:

يـــا أعـــز النـــاس عنـــدي كيـــف خنـــت اليـــوم عهـــدي
ســـوف أشـــكو لـــك بعـــدي فعـــسى شـــكواي تجـــدي
أيـــن مـــولاي يـــراني ودمـــوعي فـــوق خـــدي

أقطـــــع الليـــــل أقـــــاسي ... مـــا أقـــاسي فيـــه وحـــدي
ليتنـــي عنـــدك يـــا مـــولا ... ي أو ليتـــــك عنـــــدي

ثم يترفق في شكواه وأمانيه، فيقول:

مـــــن لي بقلـــــب أشتريـــــ ... ـــــه مـــن القلـــوب القاســـيه
إني لأطلـــــب حاجـــــةً ... ليـــست عليـــك بخافيـــه
أنعـــــم عـــــليّ بقبلـــــةٍ ... هبـــــة وإلا عاريـــــه
وأعيـــدها لـــك لا عدمـــ ... ـــت بعينهـــا وكـــما هيـــه
وإذا أردت زيـــــادة ... خـــذها ونفـــسي راضـــيه
فعـــسى يجـــود لنـــا الزمـــان ... بخلـــــوةٍ في زاويـــــه
أوليتنـــــي ألقـــــاك وحـــ ... ـــدك في طريـــق خاليـــه

وهذه غاية الغايات في رقة النجوى ولطف العتاب، ولكن البها زهير كما قلنا مصري الروح: فهو في رقته غضوب: ألم تر إليه وقد تبدل من يهوى، فرماه بهذه الصاعقة:

يـــا مـــن تبـــدّل في الهـــوى ... يَهْنيـــك صـــاحبك الجديـــدُ
إن كـــان أعجبـــك الـــصدو ... د كـــذاك أعجبنـــي الـــصدود
واعلـــم بـــأني لا أريـــ ... ـــد إذا رأيتـــك لا تريـــد
وأنـــا القريـــب فـــإن تغيَّـــ ... ـــر صـــاحبي فأنـــا البعيـــد

وقد أوضح هذا المعنى ووفاه، في الكلمة الآتية:

سـأعرض عمـن راح عنـي معرضـا ... وأُعلـن سُـلواني لـه وأُشـيعه
وأحجـبُ طـرفي عنـه فهـو رسـولهُ ... وأحجـب قلبـي عنـه فهـو شـفيعهُ
وكيـف تـرى عيني لمـن لا يـرى لهـا ... ويحفـظ قلبـي في الهـوى مـن يـضيعه
وأقسمت لا تجري دموعي على امرئ ... إذا كـان لا تجـري عـلي دموعـهُ

فلـو خـان طـرفي مـا حوتـه جفونـه ولـو خـان قلبـي مـا حوتـه ضـلوعه

وأوضح من هذا قوله من كلمة ثانية:

هـــو حظـــي قـــد عرفتـــهْ لم يحـــل عـــما عهدُتـــهْ
فـــإذا قـــصّر مـــن أهـــواهُ في الحـــب عذرتُـــه
غـــير أني لي في الحـــب طريـــق قـــد ســـلكته
لـــو أراد البعـــد عنـــي نـــور عينـــي مـــا تبعتـــه
إن قلبـــي وهـــو قلبـــي لـــو تجنّـــى مـــا صـــحبته
كـــل شيء مـــن حبيبـــي مـــا خـــلا الغـــدرَ احتملتـــه
أنـــا في الحـــب غيـــورٌ ذاك خلقـــي لا عدمتـــه
أبـــصر المـــوت إذا أبـــصـــر غـــيري مـــن عـــشقته

* * *

نوح الحمام

لقد ألممنا إلمامة قصيرة بنوح الحمام عند أسباب المدامع، واليوم نفصل مذاهب الشعراء في هذا الباب: فمنهم من يحن إلى الحمائم الشادية، ويتمنى لو عُدن إليه، فإذا عدن أسلمنه إلى البكاء، كما قال المجنون:

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة ... فإني إلى أصواتكن حزينُ
فعُدْن فلما عدن كدن يمتنني ... وكدتُ بأشجاني لهنّ أبينُ
فلم ترَ عيني مثلهن بواكيا ... بكينَ ولم تذرف لهنّ عيون

ومن الشعراء من يذكر أن الحمائم الباكية تبعث الهوى في قلب الخليّ، فكيف بالشجيّ، وأن أنغامها ليست دموعا ولكنها أمضى من الدموع، كما قال أبو تمام:

بعثن الهوى في قلب من ليس هائما ... فقل في فؤادٍ رُعنه وهو هائمُ
لها نغمٌ ليست دموعا فإن علت ... مضت حيث لا تمضي الدموع

ومنهم من يستريح إلى نوح الحمام، ويراه تداويا من الداء بنفس الداء، كقول ابن عبد ربه:

فكيف ولي قلبٌ إذا هبت الصبا ... أهاب بشوق في الضلوع دفينِ
ويهتاج منه كلما كان ساكنا ... دعاء حمام لم تبت بوكون
وإن ارتياحي من بكاء حمامةٍ ... كذي شجنٍ داويته بشجون
كأنّ حمام الأيك لما تجاوبت ... حزينٌ بكى من رحمةٍ لحزين

ويسمون الحمامة «مطوقة» لطوقها المخضب الجميل، كما قال ابن عبد ربه:

ونـــائحٌ في غـــصون الأيـــك أرّقنـــي ... ومـــا عنيـــت بـــشيء ظـــل يعنيـــه
مطـــوقٌ بخـــضابٍ مـــا يزايلـــهُ ... حتـــى تزايلـــه إحـــدى تراقيـــهِ
قـد بـات يـشكو بـشجو مـا دريـت بـهِ ... وبـت أشـكو بـشجوٍ لـيس يدريـه

ومن الشعراء من يقارن بينه وبين الحمامة الباكية، فيذكر أنها تبكي بلا دمع، وأن إلفها منها قريب، كما قال أبو محلم الشيباني من قصيدة اقترحها عليه طاهر بن الحسين، وقد كبرت سنه، وطالت غربته:

وأرقنـــي بـــالريّ نـــوح حمامـــة ... فنحـت وذو الـشجو الغريـبُ ينـوح
عـلى أنهـا ناحـتْ ولم تـذر دمعـةً ... ونحـت وأسرابُ الـدموع سـفوح
وناحـت وفرخاهـا بحيـث تراهمـا ... ومـن دون أفراخـي مهامـه فِـيحُ
ألا يـا حمـام الأيـك إلفـكَ حـاضرٌ ... وغـصنك ميـادٌ ففـيمَ تنـوحُ
أفـق لا تـنحْ مـن غـير شيءٍ فـإنني ... بكيـت زمانـا والفـؤاد صـحيح
ولوعـا فـشطت غربـةً دار زينـبٍ ... فهـا أنـا أبكـي والفـؤاد جـريح

ومما يجدر أن يكون «صورة شعرية» في وصف الحمامة الباكية قول الطغرائي:

أيكيـةٌ صـدحت شـجوا عـلى فـننٍ ... فأشعلت ما خبا من نار أشجاني
ناحت وما فقدت إلفا ولا فُجعت ... فـذكرتني أوطـاري وأوطـاني
طليقـةٌ مـن إسـار الهـمِّ ناعمـةٌ ... أضحت تجدد وجد الموثق العاني
تـشبّهت بي في وجـدي وفي طـربي ... هيهـات مـا نحـن في الحـالين سيّانِ
مـا في حـشاها ولا في جفنهـا أثـرٌ ... مـن نـار قلبـي ولا مـن مـاء أجفـاني
ياربـة البانـة الغنـاءِ تحـضنها ... خـضراءٌ تلتـفّ أغـصانا بأغـصان
إن كـان نوحـك إسـعادا لمغـتربٍ ... نـاءٍ عـن الأهـل ممنـوٍّ بهجـران
فقارضـيني إذا مـا اعتـادني طـربٌ ... وجـدا بوجـدٍ وسُـلوانا بـسلوان

أو لا فقصرَكِ حتى استعين بمن ... يعنيه شأني ويأسو كلمَ أحزاني
ما أنت مني ولا يعنيكِ ما أخذت ... مني الهموم ولا تدرين ما شاني
كِلي إلى الغيم إسعادي فإن له ... دمعا كدمعي وإرنانا كإرناني

وهذه القصيدة من أبدع ما قال الشعراء في الحمائم الشاديات. وهي أنموذج لملاحة التقسيم، وبراعة التصوير، وحلاوة التعبير، ويقرب منها قول ديك الجن:

حمائم وُرقٌ في حمى ورق خُضرِ ... لها مُقَل تُجري الدموع ولا تجري
تكلفن إسعاد الغريبة إن بكت ... وإن كن لا يدرين كيف جوى الصدر
لها حُرقٌ لو أن خنساء أعْولتْ ... بهن لأدّت حق صخرٍ إلى صخرِ
فقلت لنفسي ها هنا طلب الأسى ... ومعدنه أن فاتني طلب الصبر

وقد يحسن لفت النظر إلى الخرافة القديمة في نوح الحمام: فإن العرب يذكرون أنه كان لهن ملك في عهد نوح يسمى (الهديل) فهن يبكينه إلى الآن!؟ وهو المعنى بقول نصيب:

لقد راعني للبين نوح حمامةٍ ... على غصن بانٍ جاوبتها حمائمُ
هواتفُ أمَّا من بكين فعهدهُ ... قديمٌ وأما شجوهنَّ فدائمُ

وممن ذكر الهديل حُميد بن ثور في هذه الأبيات الحسان:

إذا نادى قرينته حمامٌ ... جرى لصبابتي دمعٌ سفوحُ
يُرَجِّع بالدعاء على غصون ... هَتوفٌ بالضحى غرد فصيح
هفا لهديله مني إذا ما ... تغرّد ساجعا قلبٌ قريح
فقلت حمامة تدعو حماما ... وكل الحب نزّاعٌ طمُوح

قال أبو بكر بن دريد: خرجنا من عمان في سفر لنا، فنزلنا في أصل نخلة، فنظرت فإذا فاختتان تزقوان في فرعها، فقلت:

أقــول لورقــاوَين في فــرع نخلــةٍ ... وقد طفّل الإمساء لو جنح العصر
وقـد بـسطت هـاتي لتلـك جناحهـا ... ومـال عـلى هاتيـك مـن هـذه النحـرُ
ليَهْنِكـــيما أن تُراعـــا بفرقـــةٍ ... ومـا دب في تـشتيت شـملكما الـدهر
فلــم أر مــثلي قطــعَ الــشوق قلبــه ... عــلى أنــهُ يحكــي قــساوته الــصخر

ومن جيّد الشعر في الموازنة بين العاشق وبين الحمامة الشادية قول ابن سنان الخفاجي:

أتظــن الــورقُ في الأيــك تغنــى ... أنهــا تــضمر حُزنــا مثــل حــزني
لا أراك الله نجـــــدا بعـــــدها ... أيهــا الحــادي بهــا إن لم تحبنــي
هــل تُبــاريني إلى بــث الجَــوى ... في ديــار الحــي نــشوى ذات غُــصنٍ
هــبْ لنــا الــشبقَ ولكــن زادنــا ... أننــا نبكــي عليهــا وتغنَّــي
يــا زمــانَ الخيــفِ هــل مــن عــودة ... يــسمح الــدهر بهــا مــن بعــد ضــنّ
أرضـــينا بثنيـــات اللـــوى ... عــن زرودٍ يــا لهــا صــفقة غــبنِ

وقد ينكر الشاعر على الحمامة أن تشكو الفراق، وهي كثيرة الألاف، وحالية بالطوق والخضاب، كقول ابن سنان صاحب الأبيات السالفة:

وهاتفــةٍ في البــان تُمــلي غرامهــا ... علينــا وتتلــو مــن صــبابتها صُــحفا
عجبــت لهــا تــشكو الفــراق جهالــةٌ ... وقــد جاوبــت مــن كــل ناحيــةٍ إلفــا
ويــشجي قلــوب العاشــقين حنينهــا ... ومــا فهمــوا ممــا تغنّــت لــه حرفــا
ولــو صــدقت فــيما تقــول مــن الأسـى ... لمــا لبــستْ طوقــا ولا خــضبت كفّــا

ولكن الأرجاني يصفها بصدق اللوعة، فيذكر أنها مزقت أثواب الحِداد، وأن صدورها ضاقت بأنفاسها ففضت مجامع الأطواق وأنها نزفت دمعها وأفنته بطول البكاء، وذلك في قوله:

ومما شجاني وقد ودعوا ... بكاءُ الحمام على ساقها
تنوح على بُعد ألافها ... وتظهر مكنون أشواقها
لبسنَ حدادا ومزّقنهُ ... فلم تدّخر غير أزياقها
وضاقت صدورا بأنفاسها ... ففضّت مجامع أطواقها
وقد نزفت في الهوى دمعها ... فلم يبق ماءٌ بآماقها

ولم يكثر الشعراء الحديث عن غناء الكروان، ويظهر أنهم لم يتمتعوا بأغانيه الجميلة على ضفاف النيل في سنتريس، والدهر كله فداء للحظة واحدة من الأصائل، أو العشيّات، أو الأسحار، في مغاني سنتريس.

ويعجبني في وصف الكروان قول الأستاذ عباس العقاد:

يا مُحييَ الليل البهيم تهجدا ... والطير آويةٌ إلى الأوكان
يحدو الكواكب وهو أخفى موضعا ... من نابغ في غمرة النسيان
قلْ يا شبيه النابغين إذا دعوا ... والجهل يضرب حولهم بجران
كم صيحةٍ لك في الظلام كأنها ... دقات صدر للدجنة حانِ
خفاقة النغمات تطفرُ في الدجى ... فوق النسائم طفرة النشوان
هنّ اللغاتُ ولا لغاتِ سوى التي ... رُفعتْ بهن عقيرة الوجِدان
إن لم تقيدها الحروف فإنها ... كالوحي ناطقةٌ بكل لسان
أغنى الكلام عن المقاطع واللغى ... بثّ الحزين وفرحةُ الجذلان
إني لأسمع منكَ إذْ ناديتني ... معنى يقصِّر عنه كل بيان
أصغي إليك إذا هتفت وفي يدي ... سِفرٌ يغرد صامت الأوزان

شـــعر الطيـــور ولا ريـــاء يـــشوبهُ يـــذري ببـــدع قـــصائد الإنـــسان
يـــا ســـاليا يـــشكو ويـــصدح وحـــدَه علـــم ســـميرَك راحـــة الـــسُّلوان

ومن خير ما وُصِفت به الحمامة من ناحية الخِلقة الجميلة، قول بعض الأعراب:

وقـبلِيَ أبكـي كـلّ مـن كـان ذا هـوى هتـوف البـواكي والـديارُ البلاقـعُ
وهـنّ عـلى الأطـلال مـن كـل جانـب نـوائح مـا تخـضلّ منهـا المـدامعُ [١]
مزبرجـة الأعنـاق غـر ظهورهـا مُخطمـةٌ بالـدرّ خُـضرٌ روائـع [٢]
تـرى طُـررا بـين الخـوافي كأنهـا حـواشي بُـردٍ زينتهـا الوشـائع [٣]
ومـن قِطـع اليـاقوت صـيغت عيونهـا خواضـب بالحنّـاءِ منهـا الأصـابع

ويعجبني خطاب عبد البر بن فرسان الغسان لطائر مغرد ضم أفراخه إليه:

أعِـدهنّ ألحانـا عـلى سـمع مُعـربٍ يطـاوحُ مرتاحـا عـلى القُـضب مُعجـما
وطـر غـير مقـصوص الجنـاحُ مرَفهـا مُـسوّغ أشـتاتٍ الحبـوب مُـنعما
مُخـلّى وأفراخـا بـوكرك نُومـا ألا ليـت أفراخـي معـي كـن نُومـا

وقد أبدع الرصافي شاعر الأندلس حين تغنى يوما من أيام شبابه وقد خلا فيه بمن يهوى في روضة لم يشاركهم في سكناها غير الهديل، وأبياته الآتية غاية من غايات الحسن في وصف الشمس وهي تجنح للغروب!

وعـــشيٍّ رائـــق منظـــرُه قـد قطعنـاهُ عـلى صرف الـشّمول
وكـــأن الـــشمس في أثنائـــه ألـصقتْ بـالأرض خـدا للنـزول

---

(١) المدامع هنا أماكن الدمع وهي العيون.
(٢) مزبرجة: من الزبرج وهو الزخرف. ومخطمة من الخطم بفتح فسكون وهو منقار الطائر.
(٣) الوشائع جمع وشيبة وهي الطرائق في الثوب.

والـــصبا ترفـــع أذيـــال الرّبـــا ومحيـــا الجـــو كالـــسيف الـــصقيل
حبـــــذا منزلنـــــا مغتبقـــــا حيـــث لا يطرقنـــا غـــير الهـــديل
طـــائرٌ شـــادٍ وغـــصنٌ منـــثنٍ والـدّجى تـشرب صـهباء الأصـيل

ومما يقرب من هذا الباب وليس منه قول القاضي أبي حفص القرطبي:

هـــمُ نظـــروا لواحظهـــا فهـــاموا وتـــشربُ لـــبّ شـــاربها المـــدامُ
يخـــاف النـــاس مقلتهـــا ســـواها أيـــذعر قلـــب حاملـــه الحـــسام
ســـما طـــرفي إليهـــا وهـــو بـــاك وتحـــت الـــشمس ينـــسكب الغـــمامُ
وأذكـــر قـــدها فـــأنوح وجـــدا عـــلى الأغـــصان ينتحـــبُ الحـــمام
وأعقـــب بينُهـــا في الـــصدر غـــما إذا غرَبـــت ذكـــاءُ أتـــى الظـــلام

❊ ❊ ❊

التقرب بالدموع

خير ما تقرب به المحب إلى حبيبه دمع مسفوح، وقلب مجروح ووجد مشبوب، وصبر مغلوب!! والتقرب بالدمع نوع من الاستعطاف تغزى به قلوب الحسان، ومن طريفه قول الأبيوردي:

أشكو الهوى لترقي يا أميمةُ لي ... فطالما رفقَ المشكوُّ بالشاكي
يشقى بعضي ببعضي في هواك فما ... للعين باكية والقلب يهواك

وهذا المعنى غير معروف عند العرب: فهم يرون بكاء العين من فضل حزن الفؤاد، حتى ليقولون: نعمت العين، وشقي القلب، ولكن الأبيوردي عكس المعنى، فجعل نعيم القلب في الهوى، وعذاب العين في البكاء، ثم قال:

إن يحك ثغرك دمعي حين أسفحهُ ... فإنني جدت للمحكيّ بالحاكي
ما كنت أحسب أنّ الدرّ مسكنه ... يكون جيدَك أو عينيّ أو فاكِ

وأوضح من هذا وأجمل قول الشريف:

أهونْ بما حملتنيه من الضنى ... لو أن طيفك كان من عوّادي
ولقلما زار الخيال بمقلةٍ ... روعاءَ نافرةٍ بغير رُقادِ
ما تلتقي الأجفان منها ساعةً ... وإذا التقت فلغضّ دمع بادِ
لا يبعدن قلبي الذي خلفتهُ ... وقفا على الإتهام والإنجاد
إن الذي غمر الرقاد وسادَهُ ... لم يدرِ كيف نبا عليّ وسادي
ولقد بعثت من الدموع إليكم ... بركائبٍ ومن الزفير بحادي
لولا هواك لما ذللت وإنما ... عزّي يعيرني بذل فؤادي

وهكذا يجمع الشريف الرضي بين العزة القرشية، والذلة العذرية: فهو عزيز ذليل!! وللبحتري حوار لطيف في هذا الباب، فمن ذلك قوله:

صلي مغرما قد واتر الشوقُ دمعَهُ ... سجاما على الخدين بعد سجامِ
فليس الذي حللتهِ بمحلل ... وليس الذي حرّمته بحرام

وقد ردد هذا المعنى في موطن آخر فقال:

أَلامُ على هواكِ وليس عدلا ... إذا أحببتُ مثلك أن ألاما
فقد حرّمت من وصلي حلالا ... وقد حللت من هجري حراما

ولا يسعني وقد أسرف البحترتي في ذكر الحرام والحلال، إلا الرجاء في أن ينصف هذا المظلوم يوم يقوم الحساب!! وقد رق شعر العباس بن الأحنف حين يقول:

أما استوجبت عيني فديتك نظرة ... إليك وقد أبكيتها حججا عشرا
لعمري لئن أقررت عيني بنظرةٍ ... إليك لقد عذبتِها بالبكا دهرا

ويقرب من هذا قوله من كلمة ثانية:

جرى السيل فاستبكاني السيل إذ جرى ... وفاضت له من مقلتيّ غروبُ
وما ذاك إلا حين أيقنت أنهُ ... يمر بوادٍ أنت منه قريب
يكون أَجاجا دونكم فإذا انتهى ... إليكم تلقى طيبكم فيطيب
أيا ساكني أكناف دجلة كلكم ... إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ

وقد تلطف ابن التعاويذي في شكوى حاله إلى من يهوى بقوله:

يا موحش العين التي ... أنست بطول بكائها
غادرت بين جوانحي ... نفسا تموت بدائها
تشتاق عيني أن تراك ... وأنت في سودائها

فـــــإذا بخلـــــت بنظـــــرة ســـــمحت بجُمّـــــة مائهـــــا

ومن مبتدعات المتأخرين في هذا المعنى قول بعض الشعراء:

وقلــتُ شــهودي في هــواك كثــيرةٌ وأصــدقها قلبــي ودمعــي مــسفوحُ
فقــال شــهودٌ لــيس يقبــل قولهــا فــدمعك مقــذوف وقلبــك مجــروح

وهو كلام قد يطمئن له الفقهاء والمحدثون، لطول ما يبحثون في القذف والتجريح، وما أغنى الشعر عن تفسير أولئك وتأويل هؤلاء!!

وقد يتوسل المحب بفنائه في الوجد، ومن شعراء العصر من أجاد هذا المعنى، كصاحب البدائع حين يقول:

يــا أهــل أســيوط لا زلــتم بعافيــةٍ وإن تمــرّد في وجــدي بكــم دائــي
أســلمتموني لــدهري بعــدما بليــت مــن قــسوة الــصد والتــبريح أحــشائي
فلــو أتــت ظبيــةُ الحمــراء غازيــةً قلبــي لمــا وجدتْــه غــير أشــلاءِ [1]
يــا ويــحَ نفــسي، أتنــسوني وأذكــركم مُقــرح الجفــن في صــبح وإمــساءِ

* * *

إن الــذين بــأمر الحــب قــد ملكــوا لم يتقــوا الحــب في ضري وإيــذائي
لم يُــدنني الــشوقُ يومــا مــن منــازلهم إلا تولــوا مــع الأيــام إقــصائي
كــم رُحــتُ أحمــل آمــالي لحــيهمُ وعــدتُ أحمــل آلامــي وأرزائــي
يــا لوعــة القلــب لا شــكواي نافعــةٌ ولا بكــايَ بــشافٍ مــس ضرّائــي
أبيــتُ أنــدب عهــدا مــرّ طيبــهُ كلمحــة الــبرق في أعطــاف ظلــماء
وأَرســل الزفــرة الحــرّاء لافحــة كوقــدة الجمــر في أجــسام قــصباءِ

* * *

(١) الحمراء: حي جميل من أحياء أسيوط.

يـــا مـــن يعـــزّ علينـــا أن نجـــازيهم صـــدا بـــصدٍ وإغـــضاء بإغـــضاء
لـــو ترحمـــون وصـــلتم شـــيقا كلفـــا ألقـــي جفـــاكم عليـــه ألـــف بأســـاءِ

* * *

ثورة الوجد

نذكر هنا طرفا من الشعر الموجع، الذي يمثل ثورة الوجد، ولوعة الأسى، فمن ذلك قول أبي تمام:

سقيمٌ لا يموتُ ولا يُفيقُ ... قد أقرح جفنه الدمعُ الطليقُ
شديد الحزن من يراهُ ... أسير الصبر ناظرهُ أريقُ
ضَجيع صبابةٍ وحليفُ شوقٍ ... تحمّل قلبُه ما لا يُطيقُ
يظل كأنه مما احتواهُ ... يُسعّر في جوانبه الحريق

وأي حال أدعى للرحمة، وأوجب للإشفاق، من حال هذا المحب السقيم، الذي لا يموت ولا يفيق. والذي يحزن من يراه: لصبره الأسير، وناظره الأريق والذي حالف في ضعفه الشوق، وضاجعَ الصبابة، حتى لكأنه مما به، تُسعّر النار في ضلوعه!

ويقرب من هذا قول ابن الرومي في فراق اثنين من خلانه:

لم يسترح من لهُ عينٌ مُؤرقة ... وكيف يعرف طعمَ الراحةِ الأرقُ
محمدٌ وعليّ فتتا كبدي ... إذا ذكرتهما والعيسُ تنطلقُ
خِلان حل بقلبي من فراقهما ... ما كنت أحذر منه قبل نفترقُ
قلبٌ رقيقٌ تلظت في جوانبه ... نار الصبابة حتى كاد يحترقُ
ودِدْتُ لو تم لي حجي بقربهما ... ما كلّ ما تشتهيه النفس يتفق

ومما يمثل ثورة الوجد في الصدر، مع الغيظ مما جنت يد الليالي، قول المتنبي:

أكيدا لنا يا بينُ واصلتَ وصلنا ... فلا دارنا تدنو ولا عيشنا يصفو

أردد ويلي، لو قضى الويل حاجة ... وأكثر لهفي، لو شفا غُلةً لهفُ
ضنًى في الهوى كالسم في الشهد كامنا ... لذذتُ به جهلا وفي اللذة الحتْف

وكان الأبيوردي يمثل وجده بوجد الظبية تترك ولدها في طلب الكلأ ثم تعود سريعة إلى لقائه فتجده مات! وإليك من شعره هذه اللؤلؤة الفتانة:

وما أم ساجي الطرف مال به الكرى ... على عذَبات الجزع تحسبه قلبا
تُراعي بإحدى مُقلتيها كِناسَها ... وترمي بأخرى نحوهُ نظرا غربا
فلاحَ لها من جانب الرمل مرتعٌ ... كأن الربيعَ الطلقَ ألبَسه عُصبا
فمالت إليه والحريصُ إذا غدت ... به سورةُ الأطماع لم يحمَد العُقبي
وآنسها المرعى الخصيب فصادفت ... مدى العين في أرجائه بلدا خصبا
فلما قضت منه اللبانة راجعت ... طلاها فألفته قضى بعدها نحبا
أتيح له عاري السواعد لم يزل ... يخوض إلى أوطاره مطلبا صعبا
فوّلت على ذُعرٍ وبالنفس ما بها ... من الكرب ما لُقيتَ في حادث كربا
بأوجدَ مني يوم عجّتْ ركابها ... لبينٍ فلم تترك لذي صبوةٍ لُبا

وهذه الصورة الشعرية كثيرة الأمثال في الآداب القديمة، وإنما نسبناها إلى الأبيوردي لأنه يرددها في شعره، فمن ذلك قوله في كلمة ثانية:

وما مُغزلٌ تعطو الأراكَ يهزّهُ ... نسيمٌ تناجيه الخمائلُ وانِ [١]
وتُزجي بروقيها أغن كأنه ... من الضعف يطوي الأرض
فمال إلى الظلّ الأراكيّ دونها ... وكانا به من قبلُ يرتديان
وُصبت عليه الطلس وهي سواغب ... تجوبُ إليه البيدَ بالنسلان [٣]

(١) المغزل: أم الغزال، الخمائل جمع خميلة وهي ألفاف الشجر.
(٢) الرسفان، المشي في القيد.
(٣) الطلس، الذئاب. ولواغب، الجياع. والنسلان، مشي الذئب إذا أسرع.

فعـــادت إليـــه أمـــه وفؤادُهـــا ... هفـا كجنـاح الـصقر في الخَفَقـان
وظلـت عـلى الجرعـاء ولهـى كئيبـة ... وقـد سـال واديهـا بـأحمر قـان
تـسوف الثـرى طـورا ويعبـث تـارة ... بهـا أولـقٌ مـن شـدة الوَلهـان (١)
بأوجـد منـي يـوم سرتُ إلى الحمـى ... وقـد نزلـت سـمراءُ سـفح أبـان (٢)

ونحب أن نلفت القارئ إلى ما في أمثال هذه الصور الشعرية من الكلف بتصوير الطبيعة، وما فيها من حياة الحيوان، فقد أغرم شعراء الغرب بهذا الأسلوب فزاد شعرهم جمالا إلى جمال. ولولا الرغبة في الإيجاز لنقلت قطعة من شعر (ألفريد دي ميسّيه) تماثل شعر الأبيوردي في هذا الجانب من البيان. والناس هم الناس، في كل قطر وفي كل جيل، والتبايُن قليل في الميول، وفي تذوق ألوان الحياة، وإن عظم الفرق حينا في التعبير عن نزعات النفوس، وشهوات العقول.

ومن خالد الشعر في ثورة الوجد نونية الوزير ابن زيدون، وقد رأينا أن نثبتها هنا كاملة - كما فعل المقري صاحب نفح الطيب - لأنها ذكرت مفرقة في أكثر المؤلفات:

أضـحى التنـائي بـديلا مـن تـدانينا ... ونـاب عـن طِيـب لُقيانـا تجافينـا
مـن مُبلـغ الملبـسينا بـانتزاحِهمُ ... حُزنـا مـع الـدهر لا يَـبلى ويُبلينـا
إن الزمـان الـذي قـد كـان يـضحكنا ... أنـسًا بقـربهمُ قـد عـاد يُبكينـا
غـيظ العـدِا مـن تساقينا الهوى فدعوا ... بـأن نغـص فقـال الـدهر آمينـا
فانحـل مـا كـان معقـودا بأنفـسنا ... وانبـت مـا كـان موصـولا بأيـدينا
بـالأمس كنـا ومـا يُخـشى تفرقنـا ... فـاليوم نحـن ومـا يُرجـى تلاقينـا

(١) نسوف، تشم. الاولق، الجنوب.
(٢) أبان، جبل شوقي الحاجر فيه نحل.

يا ليت شعري ولم نُعتب أعاديكم ... هل نال حظا من العُتبى أعادينا [١]
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم ... رأيا ولم نتقلد غيره دينا
كنا نرى اليأس تُسلينا عوارضهُ ... وقد يئسنا، فما لليأس يُغرينا
بِنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين نُناجيكم ضمائرُنا ... يقضي علينا الأسى، لولا تأسّينا [٢]
حالتْ لبُعدكم أيامنا فغَدت ... سودا وكانت بكم بيضا ليالينا
إذ جانبُ العيش طلقٌ من تألفنا ... ومورد اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هصرنا فنون الوصل دانيةً ... قطوفها فجنينا منه ما شينا
ليُسقَ عهدكم عهدُ السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يُغيّرُنا ... إذ طالما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
يا ساري البرق غاد القصر فاسق به ... من كان صِرف الهوى والود يسقينا
واسأل هنالكَ هل عنى تذكّرنا ... إلفا تذكَّره أمسى يعنِّينا [٣]
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا ... من لو على البعد حيا كان يُحيينا
وبيتِ مُلك كأن الله أنشأه ... مِسكا وقد أنشأ الله الورى طينا
أو صاغهُ ورقا محضا وتوَّجه ... من ناصع التبر إبداعا وتحسينا [٤]
إذا تأوّد آدتهُ رفاهيةٌ ... تُدمي العقول وأدمته البُرى لينا [٥]
كانت له الشمس ظِئرا في تكللهِ ... بل ما تجلى بها إلا أحايينا [٦]

---

(١) أعتبه، أرضاه. والعتبين الترضية.
(٢) التأسي، التعزي.
(٣) عناه، أشقاه.
(٤) ورق ككتف، الفضة.
(٥) تأرد، تثنى. آدته. أثقلته. البري، الخلاخيل.
(٦) الظئر من معانيه جانب القصر.

كـــأنما نبتـــت في صـــحنِ وجْنتـــه ... زُهـــر الكواكـــب تعويـــذا وتزيينـــا
مـــا ضر أن لم نكـــن أكفـــاءهُ شرفـــا ... وفي المـــودة كـــافٍ مـــن تكافينـــا [١]
يـــا روضـــةً طالمـــا أجنـــتْ لواحظنـــا ... وردا جنـــاه الـــصبا غـــضا ونـــسرينا
ويـــا حيـــاةً تملأنـــا بزهرتهـــا ... مُنـــى ضروبـــا ولـــذاتٍ أفانينـــا [٢]
ويـــا نعـــيما خطرنـــا مـــن نـــضارته ... في وشي نُعمـــى ســـحبنا ذيلـــهُ حينـــا
لـــسنا نـــسميكِ إجـــلالا وتكرمـــةً ... فقـــدرك المعـــتلي عـــن ذاكِ يُغنينـــا
إذا انفـــردتِ ومـــا شـــوركتِ في صـــفةٍ ... فحـــسبنا الوصـــف إيـــضاحا وتبيينـــا

* * *

يـــا جنـــة الخُلـــد أَبـــدِلنا بسَلـــسَلها ... والكـــوثر العـــذبِ زقّومـــا وغِـــسلينا
كأننـــا لم نبـــتْ والوصـــلُ ثالثنـــا ... والسعد قد غض من أجفان واشينا
سِران في خـــاطر الظلـــماءِ تكتمنـــا ... حتـــى يكـــاد لـــسان الـــصبح يُفـــشينا
لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت ... عنـــه النهـــى وتركنـــا الـــصبر ناســـينا
إنـــا قرأنـــا الأســـى يـــوم النـــوى سُـــورَا ... مكتوبـــة وأخـــذنا الـــصبر تلقينـــا
أمـــا هـــواك فلـــم نعـــدِل بمـــشربه ... شِربـــا وإن كـــان يروينـــا فيُظمينـــا [٣]
لم نجـــفُ أُفـــق جمـــالٍ أنـــتِ كوكبُـــه ... ســـالينَ عنـــه ولم نهجـــره قالينـــا
ولا اختيـــارا تجنبنـــاكِ عـــن كثـــبٍ ... لكـــن عـــدتنا عـــلى كـــرهٍ عوادينـــا [٤]
نأســـى عليـــك إذا حُثـــت مشعـــشعة ... فينـــا الـــشمول وغنانـــا مُغنينـــا
لا أكـــؤس الـــراح تبـــدي مـــن شـــمائلنا ... سِـــيما ارتيـــاحٍ ولا الأوتـــار تلهينـــا
دومـــي عـــلى العهـــد مـــا دمنـــا محافظـــة ... فـــالحر مـــن دانَ إنـــصافا كـــما دِينـــا

---

(١) متكافئ التكافؤ والتماثل.

(٢) تملأنا، تمتعنا.

(٣) الشرب بكسر الشين كالمشرب وهو المورد.

(٤) عن كثب، عن قرب.

فما استعضنا خليلا عنك يحبسنا ... ولا استفدنا حبيبا منك يُغنينا
ولو صَبا نحونا من أفق مَطلعِه ... بدر الدجى لم يكن حاشاكِ يصبينا
أوْلي وفاء وإن لم تبذلي صلةً ... فالطيف يقنعنا والذكر يكفينا
وفي الجواب شفاءٌ لو شفعتِ به ... بيضَ الأيادي التي ما زلت تولينا

وقد أغرمَ الشعراء بتخميس هذه القصيدة، وتسديسها، وتشطيرها وكذلك شغلت الأذهان زمنا غير قليل. وقد أرسل ابن زيدون هذه القصيد إلى معشوقته ولادة وهي سيدة أندلسية ظريفة من بنات الخلفاء الأمويين، وقد كانت في جمالها شاعرة مجيدة ومن شعرها هذان البيتان تدعو بهما ابن زيدون:

ترقب إذا جَنّ الظلام زيارتي ... فإني رأيتُ الليلَ أكتمَ للسر
وبي منك ما لو كان بالفجر لم يَلحْ ... وبالليل لم يُظلم وبالنجم لم يَسْرِ

ولابن زيدون في ولادة مقطعات حسان، كقوله:

واها لعطفك والزمان كأنما ... صُبغت نضارته ببرد صباك
والليل مهما طال قصّر طوله ... هاتي، وقد غفل الرقيب، وهاك
أمّا مُنى نفسي فأنت جميعها ... يا ليتني أصبحتُ بعض مُناك
يُدني مثالك حين شطّ به النوى ... وهمٌ أكادُ به أقبّل فاكِ

ومن موجع الشعر قوله:

بيني وبينك ما لو شئت لم يضعِ ... سرّ إذا ذاعت الأسرار لم يَذعِ
يا بائعا حظهُ مني ولو بذلتْ ... ليَ الحياة بحظي فيه لم أبعِ

ولصديقنا الأستاذ أنيس ميخائيل ولع غريب بإنشاد قول ابن زيدون:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والأفق طلقٌ ووجه الروض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ في أصائله ... كأنما رقّ لي فاعتل إشفاقا

والنهـر عـن مائـه الفـضيّ مبتـسمٌ ... كـما حللـتَ عـن اللبّـات أطواقـا
يـومٌ كأيـام لـذاتٍ لنـا انـصرمتْ ... بتنـا لهـا حـين نـام الـدهر سُرّاقـا
نلهـو بـما يـستميل العـين مـن زَهَـرٍ ... جـال النـدى فيـه حتـى مـال أعناقـا
كأنـه أعينـهُ إذ عاينـت أرقـي ... بكـت لمـا بي فجـال الـدمع رقراقـا
وردٌ تـألق في ضـاحي منابتـهِ ... فـازداد منـه الـضحى في العـين إشراقـا
سرى ينافحـه نيلـوفرٌ عبـقٌ ... وَسـنان نبَّـه منـه الـصبح أحـداقا
كـلّ يهـيج لنـا ذكـرى تـشوقنا ... إليـك لم يعـدُ عنـا الـصدر أن ضـاقا
لـو كـان وفى المنـى في جمعنـا بكـم ... لكـان مـن أكـرم الأيـام أخلاقـا
لا سـكَّن الله قلبـا عـن ذكـركم ... فلـم يطـر بجنـاح الـشوق خفاقـا
لـو شاء حملي نسيم الـريح حين هفا ... وافـاكمُ بفتـى أضـناه مـا لاقـى
كان التجازي بمحض الود مُذ زمن ... ميـدان أنـسٍ جرينـا فيـه أطلاقـا
فـالآن أحمـد مـا كنـا لعهـدكم ... سـلوتُم وبقينـا نحـن عـشاقا

وإني لمفتون بهذا الشطر الحزين:

سلوتُم وبقينا نحن عُشاقا

فإنه يمثل المحب، وقد سلا أحبابه، وبقي وحده يعاني آلام الوجد، وأهوال الصدود.

* * *

الأرق والسهاد

شكا الشعراء قديما وحديثا طول الليل بعد الفراق، وعند الهجر والصدود. فمنهم من يستنجد محبوبه، ويستعديه على وحشة الليل، ومضاضة الأرق، كقول الأبيوردي.

أأَمَـيمَ إن خفِيَـتْ عليـك صـبابتي ... فـسَلي ظـلامَ الليـل كيـف أكـون
واسـتخبرى عنـي النجـومَ فقـد رأت ... سَـهري وأرْوقـة الغياهـب جُـون
ولـئن أذلـتُ مـصونَ دمعـي في الهـوى ... فعـلى البكـاءِ يُعـوّلُ المحـزون

وهذه الأبيات من خير ما قال المحبون في شكوى الوجد، وعبثه بكرائم النفوس. ومنهم من يستعين من حوله، ويرجوهم أن يحدثوه عن النهار، أو يصفوه لهن فقد طال ليله، حتى نسي النهار، وأوصاف النهار، كما قال ابن الأحنف:

أيهـا الراقـدون حـولي أعينـوني ... عـلى الليـلِ حـسبةً وائتجـارا
حـدثوني عـن النهـار قلـيلا ... أو صـفوهُ فقـد نـسيت النهـارا

وابن الأحنف يجيد شكوى الليل الطويل، والسهاد المملول، فمن ذلك قوله:

نـام مـن أهـدى ليَ الأرقـا ... مُـستريحا سـامني قلقـا
لـو يبيـت النـاس كلهـمُ ... بـسهادي بـيض الحـدقا
أنـا لم أرزق مـودتكم ... إنـما للعبـد مـا رزِقـا
كـان لي قلـب أعـيش بـه ... فاصـطلى بالحـب فاحترقـا

وتوجعني شكواه في قوله:

أنـــــا لم أرزق مـــــودتكم إنـــما للعبـــد مـــا رزقـــا

فقد تكلفُ النفس بفتنة من فِتن الحسن في هذا الوجود، ثم لا تجد إليها السبيل، على أن هذا الحسن قد يكون زمامه بيد من لا يشعر بروعة الجمال!

ومن الشعراء من يظعن أحبابه بالليل، فيظعن بذلك الكرى عن جفونه كالبحتري حين يقول:

أمولعـــة البـــين رب تفـــرّق جرحـت بـه قلبـا بحبـك مولعـا
ولي لوعـة تـستغرق الهجـر والنـوى جميعـا وحـب ينفـد الـدمع أجمعـا
عـلى أن قلبـي قـد تـصدع شـمله فنونـا لـشمل البـيض حـين تـصدعا
ظعـائنُ أظعـنّ الكـرى عـن جفوننـا وعوّضـننا منـه سـهادا وأدُمعـا
نـوين النـوى ثـم استجبن لهـاتفٍ مـن البـين نـادى بـالفراق فأسـمعا
وحـاولن كـتمان الترحـل بالـدجى فـنمّ بهـن المـسك حـين تـضوّعا

وقد يفزع المحب إلى تحكيم العدل والحق، حين تطول لياليه. كقول ابن الرومي:

أيـا شـمس النهـار سـنا وعِـزا يُقـصر عـنهما نظـرٌ ولمـسُ
أحـلَّ أن تنـامي عـن سـهادي ولي مـذ بـان عنـي النـومُ خمـسُ
أميـز كـل شيء مـن أمـوري سـوى أمـري لـديكِ ففيـه لـبس
غرسـت هـوى فربِّيـه بحفـظٍ فلـيس يُـربّ بالتـضييع غـرس

ومن الشعراء من يتفنن في وصف الليل فيذكر أن نجومه أقسمت لا تزول. كقول أحدهم:

ألا هـل عـلى الليـل الطويـل مُعـينُ إذا نزحـتْ دار وحـن حـزينُ
أكابـد هـذا الليـل حتـى كـأنما عـلى نجمـه أن لا يغـور يمـين

ووالله مـــا فـــارقتكم قاليـــا لكـــم ولكـــن مـــا يُقـــضى فـــسوف يكـــون

ومنهم من يزيد على ذلك شوقه إلى تمزيق سرابيل الليل، وظهور تباشير الصبح، كقول حُندج بن حندج:

في ليل صول تناهى العرضُ والطولُ كـــأنما ليلـــهُ بالليـــل موصـــول
لا فـارقَ الـصبح كفـي إن ظفـرتُ بـه وإن بـــدت غـــرةٌ منـــه وتحجيـــلُ
لـــساهرٍ طـــال في صـــولٍ تململـــه كأنـــه حيـــةٌ بالـــسوطِ مقتـــول
متـى أرى الـصبح قـد لاحـت مخائلـه والليـل قـد مُزقـت عنـه الـسرابيل
ليـــلٌ تحـــيّر مـــا يـــنحطّ في جهـــةٍ كأنـــه فـــوق مـــتن الأرض مـــشكوك
نجومـــه ركـــدٌ ليـــست بزائلـــةٍ كـــأنما هُـــن في الجـــو القناديـــل
مـا أقـدر الله أن يُـدني عـلى شـحَط مـــن داره الحـــزن ممـــن دارهُ صـــول
الله يطـــوي بـــساط الأرض بيـــنهما حتـى يـرى الربـع منـه وهـو مـأهول

نعم وما أقدر الله أن يدني على النوى من دارُه سِنتريس ممن داره أسيوط

لـــوددتُ إذ سـكنوا هنالـك دارهـم وعـــدتهم عنـــا أمـــورٌ تـــشغلُ
أنـــا نُطـــاع إذا فتنقـــل أرضـــنا أو أن أرضـــهم إلينـــا تُنقـــل

وقد شبه ابن الرومي نجوم الليل بنجوم الشيب حين قال:

رب ليـــلٍ كأنـــه الـــدهر طـــولا قـــد تنـــاهى فلـــيس فيـــه مزيـــد
ذي نجـــوم كـــأنهن نجـــوم الـــشيـ ـــب ليـــست تـــزول لكـــن تزيـــد

قال أبو بكر الوليد بن البزاز: كان علي بن الجهَم يستنشدني كثيرا شعر خالد الكاتب فأنشده فيقول: ما صنع شيئا. ثم أنشدته يوما قوله:

رقـــدتَ ولم تـــرثِ للـــساهرِ وليـــلُ المحـــبّ بـــلا آخـــرِ
ولم تـــدر بعـــد ذهـــاب الرّقـــا دِ مـــا صـــنع الـــدمع بالنـــاظر

فقال: قاتله الله! لقد أدمن الرمية حتى أصاب الغِرّة! وجمال هذا الشعر يرجع إلى شكوى المحب ما صنع الدمع بناظره بعد جفوة النوم. ومثله قول أبي العتاهية:

أمسى ببغداد ظبيٌ لست أذكره ... إلا بكيتُ إذا ما ذكره خطرا
إن المحب إذا شطت منازله ... عن الحبيب بكى أو حنّ أو ذكرا
يا رب ليلٍ طويل بتّ أرقبُه ... حتى أضاءَ عمود الصبح فانفجرا
ما كنت أحسب إلا مُذ عرفتكم ... إن المضاجع مما يُنبتُ الإبرا
والليل أطول من يوم الحساب على ... عين الشجيّ إذا ما نومُهُ نَفرا

ومن المحبين من يخاطب الليل. فيذكر في خطابه أن بعض ما به كاف لمحو الليل لو عَرض له، كقول سعيد بن حميد:

يا ليل بل يا أبَدُ ... أنا ئمٌ عنك غدُ
يا ليلُ لو تلقى الذي ... ألقى بها أو تجد
قصّر من طولك أو ... ضُعِّفَ منك الجَلد
أشكو إلى ظالمةٍ ... تشكو الذي لا تجد
وقفٌ عليها ناظري ... وقفٌ عليها السُّهد

وأود لو تنبه القارئ إلى حسن هذا البيت:

أشكو إلى ظالمةٍ ... تشكو الذي لا تجدُ

وقد ذكر الفرزدق العلة في طول الليل فقال:

يقولون طال الليل والليل لم يطل ... ولكن من يبكي من الشوق يسهر

وقد تابعه بشار في هذا المعنى فقال:

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ... ونفى عني الكرى طيفٌ ألمّ

وإذا قلـــت لهـــا جـــودي لنـــا خرجـتْ بالـصمت عـن لا ونعـم
نفـسي يـا عبـدَ عنـي واعلمـي أننـي يـا عبـدَ مـن لحـمٍ ودم
إن في بُـــرديَّ جـــسما نـــاحلا لـــو توكـــأت عليهـــا لانهـــدم

وقد ردد هذا المعنى في كلمة ثانية فقال:

طـال هـذا الليـل بـل طـال الـسهر ولقـــد أعـــرف لـــيلي بالقِـــصر
لم يطـــل حتـــى جفـــاني شـــادنٌ نـــاعم الأطـــراف فتـــان النظـــر
لي في قلبـــي منـــه لوعـــةٌ ملكـــتْ قلبـي وسـمعي والبـصر
وكـــأن الهـــم شـــخص مائـــلُ كلـــما أبـــصره النـــومُ نَفـــر

على أن بشارا يتخطى هذا الحد، فيجاري الشعراء ويحسب أن ليس لليله نهار، وذلك في قوله:

أقـــول وليلتـــي تـــزداد طـــولا أمـــا لليـــل بعـــدهم نهـــارُ
جفـت عينـي عـن التغمـيض حتـى كـــأنّ جُفونهـــا عنهـــا قـــصارُ

وليس للبيت الثاني قيمة من الوجهة الأدبية، لأن الغمض لا يجفو العيون، لقصر الجفون، كما يقول. وإنما يجفوها لثورة الوجد، وهجمة الأشجان!

ويقول في كلمة ثانية:

خلـيلي مـا بـال الـدجى لا تزحـزحُ ومـا لعمـود الـصبح لا يتوّضـحُ
أضـلّ النهـار المـستنير طريقـهُ أم الـدهر ليـل كلـه لـيس يـبرح
وطـال عـلي الليـل حتـى كأنـه بليلـين موصـول فـما يتزحـزح

والبيت الأخير يذكرني بقول صاحب البدائع:

وجـنّ عـلي الليـل حتـى حـسبته جفـاءَ كـريم أو رجـاءَ لئـيمِ

وإن كان هذا في الحديث عن ظلام الليل، لا عن طوله.

وتروقني البساطة في قول سويد بن أبي كاهل:

وإذا مـــا قلـــت ليـــلٌ قـــد مـــضى ... عطـــــف الأول منـــــه فرجـــــع
يـــسحب الليـــل نجومـــا ظلعًـــا ... فتواليهـــــا بطيئـــــات التبـــــع

والخيال هنا خيال بادية. ولكنه في بداوته بديع. وقول الآخر:

سلوا مضجعي هل قرّ من بعد بعدكم ... وهـل عرفـتْ طعـم الرقـاد جفـوني
ســـهرنا بـــنعمانٍ ونمـــتم ببابـــل ... فـــما لعيـــونٍ مـــا وفـــتْ لعيـــون

وهو يذكرني بقول بعض الأعراب:

لعمري لئن كنتم على النأي والغنى ... بكـم مثـل مـا بي إنكـم لـصديق
فما ذقت طعم النوم منذ هجرتكم ... ولا ســـاغ بـــين الجـــوانح ريـــق
وإذا زفرات الحب صعّدن في الحشا ... كـــررن فلـــم يُعلـــم لهـــنّ طريـــق

ومما جمع بين الشكوى من ليل الفراق، وذكرى ليل الوصال قول عبد الرحمن بن هشام:

طـــال عمـــر الليـــل عنـــدي ... مـــــذ تولعـــــتَ بـــــصدي
يـــا غـــزالا نقـــض العهـــ ... ـــــدَ ولم يـــــوفِ بوعـــــد
أنـــــسيت العيـــــد إذ بتـــــ ... ـــــنا عـــــلى مفـــــرش وردِ
واجتمعنـــــا في وشـــــاحِ ... وانتظمنـــــا نظـــــم عِقـــــد
ونجـــوم الليـــل تحكـــي ... ذهبـــــــــــا في لازورد

ومن الشعراء من لا يبالي طول الليل في غيبة الحبيب، كقول ابن زيدون:

يـــا ليـــل طـــل لا أشـــتهي ... إلا لعهـــــــدي قِـــــصَرَكْ
لـــو بـــات عنـــدي قمـــري ... مـــا بـــتّ أرعـــى قمـــرك

وليالي القمر في سنتريس عذبة المذاق، شهية الورود، وما أحسب المصريين عبدوا النيل إلا حين رأوه يداعب القمر في ضواحي سنتريس، ذات الظلال والأفنان.

ليـــالي النيـــل واللـــذاتُ ذاهبـــةٌ ... وجـدي علـيكنّ أشـجاني فأضـناني
لـو يرجـع الـدهر لي مـنكنّ واحـدةً ... في سـنتيريس ويُـدني بعـض خُـلاني
إذا تبـــين دهـــري كيـــف يرحمُنـــي ... مـن ظلـم همِّـي ومـن عـدوان أحـزاني

وقد أجاد شعراء العصر وصف الأرق في الليل الطويل. فمن ذلك قول شوقي:

بـــدأت الطيـــف بالجميـــل وزارا ... يـا رسـول الرضـا وقيـت العثـارا
خُـذ مـن الجفـن والفـؤاد سـبيلا ... وتـــيمم مـــن الـــسويداء دارا
أنـــت إن بـــتّ في الجفـــون فأهـــل ... عـــادة النـــور ينـــزل الأبـــصارا
زار والحـرب بـين جفنـي ونـومي ... قـــد أعـــدّ الـــدُّجى لهـــا أوزارا
ســـألتني عـــن النهـــار جفـــوني ... رحـــم الله يـــا جفـــوني النهـــارا
قلـــنَ نبكيـــه قلـــت هـــاتي دموعـــا ... قُلـــن صـــبرا فقلـــت هـــاتي اصـــطبارا
يـــا ليـــاليّ لم أجـــدك طـــوالا ... بعـــد لـــيلي ولم أجـــدكِ قِـــصارا
إن مـــن يحمـــل الخطـــوب كبـــارا ... لا يبـــالي بحملهـــن صِـــغارا
لمُ نفـــق منـــك يـــا زمـــان فتـــشكو ... مـدمن الخمـر لـيس يـشكو الخُـمار

وقال حافظ:

سـكن الظـلامُ وبـات قلبـك يخفـق ... وسـطا عـلى جنبيـك هـمّ مُقلِـقُ
حـارَ الفـراش وحِـرت فيـه فـأنتما ... تحـت الظـلام معـذبٌ ومـؤرق
درج الزمـان وأنـت مفقـود المنـى ... ومـضى الـشباب وأنـت سـاهٍ مطـرق

وقال القاياتي:

جـــنّ الظـــلام فـــما يـــزاح ... يـــا ويلتـــا أيـــن الـــصباح
ليـــلٌ كـــأن نجومـــه ... يطلعـــن في كبـــدي جـــراح
يـــا مـــن أتـــاح ليَ الأسـى ... بَـــردُ الفـــؤاد متـــى يتـــاح
قلـــبٌ أســـاه لاعـــجٌ ... لـــولا تحجبـــهُ لفـــاح
مـــا بـــال دمعـــيُ يـــستباحُ ... وحـــاجتي ليـــست تبـــاح

وقال العقاد يخاطب الليل:

طوْيـــتَ أزمـــة الأجـــساد منـــا ... فـــدانت وانطـــوت عنـــك القلـــوب
فـــما تـــدري أتـــسكن حـــين مالـــت ... إلى تلـــك المـــضاجع أم تجـــوب
ومـــا تـــدري أباتـــت في جحـــيم ... أم الجنـــات مرتعهـــا الخـــصيب
ومـــا تـــدري أيـــسمع في دجاهـــا ... هتـــافُ البلابـــل أم نعيـــبُ
عقـــدت مـــن الكـــرى وطنـــا رفيقـــا ... وكـــل مـــسهَّدٍ فيـــه غريـــب
تـــضيق بـــه الوســـائد والحـــشايا ... وتلفظـــه المـــسالكُ والـــدروب
وحيـــدٌ لا يقاربـــهُ بعيـــدٌ ... ولا يـــدري بلوعتـــه القريـــب
فيـــا وطـــن النيـــام بكـــل فـــجّ ... أمـــن حـــرج بـــك الـــسُّهدُ المريـــب
ويـــا ســـكن الأحبـــةِ والأعـــادي ... ألـــيس بـــساحليْك لنـــا نـــصيب
ويـــا دار الـــسلام بـــأي ســـد ... يـــصدّ الطـــرفَ مربعـــكِ الرحيـــب
لـــئن هجعـــتْ بـــساحتكِ المـــآقي ... لمـــا هجعَـــتْ بـــساحتك الخطـــوب
كـــأن جمـــوعهنّ ســـباع ليـــلٍ ... تبيـــت عـــلى فرائـــسها تلـــوب
فهـــل عنـــد الظـــلام لنـــا حـــديث ... يحـــاذر أن يُلـــمّ بـــه رقيـــبُ
أم ادخـــر الظـــلامُ لنـــا متاعـــا ... يـــضنُّ بلمحِـــهِ الحلـــمُ الكـــذوب
ســـهرنا يـــا ظـــلام فلـــم يـــصبنا ... عـــلى طـــول المـــدى إلا الـــشحوب
وإلا حُلكـــةً فيهـــا تلاقـــي ... ســـواد القلـــب والطـــرف الكئيـــبُ

والعقاد يكثر في شعره من شكوى الليل الطويل، وقد يشجيك حين ينظر إلى نفسه فيحسبها من اليأس أمست وهي خراب ينعب على أطلالها اليوم. وانظر كيف يقول:

وناعبــةٍ صــاحت ولليــل هجعــةٌ ... فقــال عــلامَ البــومُ ينعــب ناعيــا
لقبِّحــتِ مــن عميــاءَ تقــرأ في الــدجى ... إذا اســودّ أســطار الخــراب الخوافيــا
فقلتُ على النفس التي سوف تغتدي ... طُلــولا بأحنــاءِ الــضلوع حوانيــا
تجــوس أفــاعي الحــزن في جنباتهــا ... ويــا ربــما تُئــوي الــضلوعُ الأفاعيــا
فــلا تحــسبن البــومَ تنعــي المغانيــا ... فقــد تنــدب البــوم النفــوس البواليــا
وكــم وحشةٍ للنفس يخشى اقتحامها ... أخــو غمــراتٍ لــيس يخــشى الفيافيــا

وما أجمل قوله في هذه القصيدة:

ولمــا تقــضّى الليــل إلا أقلــهُ ... وحــن التنــائي جئــتُ بالــدمع باكيــا
فأقبــل يرعــاني ويبكــي وربــما ... بكــى الطفــل للبــاكي وإن كــان لاهيــا
وزحزحنــي عنــه بكــف رفيقــةٍ ... واســبل أهــداب الجفــون الــسواجيا
يقــول لقــد ران الكــرى وتفرقــت ... نجــوم الــدجى والــديك أصــبح داعيــا
فقلــت وكــم مــن ليلــةٍ إثــر ليلــةٍ ... ســهرتُ وقــد أمــسيتَ وحــدك غافيــا
فهــبْ لــوداعي مــن رقــادك ليلــةً ... تمــرُّ فــإني وقــد وهبــتُ حياتيــا
وأســلمتُ كفــي كفــهُ فأعادهــا ... وقلبــي ! فهــلا أرجــعَ القلــب ثانيــا؟

* * *

الطبيعة في أنفس الشعراء

لقد أكثر شعراء الغرب من الحديث عن الطبيعة، حتى لتحسب أن ذلك سمة من سماتهم، لا يشاركهم فيها أحد من العالمين.

ونريد أن نبين في هذه الكلمة أن شعراء العرب وردوا هذا المنهل، ونقعوا صداهم بمائه العذب الفرات، فإن الطبيعة ملك لجميع العيون، في جميع الأقطار والشعور بها، والجنوح إليها، من حاجات الفطرة، التي تسوّي بين مختلف الشعوب والتي تجمع حولها شتى العواطف والأهواء.

ونحن نعلم أن شعراء الغرب أكثروا من وصف السحاب: إذ كانت بلادهم غزيرة المطر، وإذ كانت آذانهم، وأبصارهم، أليفة لدويّ الرعد. ولمع البرق. على أن شعراء العرب لم يقصروا في هذا الباب. ويكفي أن نذكر قول البحتري يصف سحابة:

ذات ارتجـــازٍ بحنـــين الرعـــدِ ... مجـــرورةُ الـــذيل صـــدوق الوعـــدِ
مـــسفوحة الـــدمع لغـــير وجـــدِ ... لهـــا نـــسيمٌ كنـــسيم الـــورد
ورنـــةٌ مثـــل زئـــير الأســـد ... ولمـــع بـــرق كـــسيوفِ الهِنـــد
جـاءت بهـا ريـح الـصّبا مـن نجـد ... فـــانتشرت مثـــل انتشـــار العِقـــد
فراحـــت الأرض بعـــيض رغـــدِ ... مـــن وشي أنـــوار الربـــى في بُـــرد
كـــأنما غُـــدرانها في الوهـــد ... يلعـــبن مـــن حَبابهـــا بـــالنرد

ومن أظهر الدلائل على سكون العرب إلى الطبيعة، وإخلادهم إلى مواردها الشهية أنهم يقرنون الحنين على معاهدهم بالدعاء لها بالسقيا وتراوُح النسمات. وإليك قول الشريف:

أمعاهـدَ الأحبـاب هـل عـودٌ إليّ ... مغـدّى نبـلَّ بـه الجـوى ومـراح
يكفيـك مـن أنفـسنا ودموعنـا ... أن تُمطـري مـن بعـدنا وتراحـي
قـارب عـيش فيـك رقّ نـسيمه ... كالمـاء رقّ عـلى جنـوب يطـال
وتغـزل كـصبا الأصـائل أيقظـت ... ريّـا خُزامـى بـاللوى وأقـاح
كم فيك من صاحي الشمائل مُنتش ... بالـدّل أو مـرضى العيـون صِـحاح
فـسقى اللـوى صـوب الغـمام ودره ... وسـقى النـوازل فيـه صـوب الـراح

وقد يقوى شعورهم «بشخصية» الطبيعة، حتى ليخاطبوا الفلك الدائر، وينذرونه بالفناء! انظر قول البحتري:

أنـاةً أيهـا الفلـكَ المـدارُ ... أنهـب مـا تـصرّف أمُ جبـارُ
سـتفنى مثـل مـا تُفنـي وتـبلى ... كـما تُـبلي فيـدرك منـك ثـار
تُنـاب النائبـات إذا تناهـت ... ويـدمر في تـصرفه الـدمار
ومـا أهـل المنـازل غـير ركـبٍ ... مطايـاهم رواحٌ وابتكـار

وانظر قول أبي القاسم ابن هانئ:

تفنـى النجـوم الزّهـرُ طالعـةً ... والنـيرانِ الـشمسُ والقمـر
ولـئن تبـدّت في مطالعهـا ... منظومـة فلـسوف تنتثـرُ
ولـئن سـعى الفلـكُ المـدار بهـا ... فلـسوف يُـسلمها وينفطـر

وانظر قول العتابي في وداع جارية له:

مـا غنـاءُ الحِـذار والإشـفاق ... وشـآبيب دمعـك المهـراقِ
لـيس يقـوى الوجـد منـك عـلى الوجـ ... ـدِ ولا مقلتـا طلـيح المـآقي
غـدَرات الأيـام منتزعـاتٌ ... مـا جنينـا مـن طـول هـذا العنـاق
إن قـضى الله أن يكـون تـلاقٍ ... بعـدما تنظـرين كـان تـلاقِ
هـوّني مـا عليـك واقنَـي حيـاءً ... لـستِ تبقـين لي ولـست ببـاق

أينـــا قـــدمت صروف المنايـــا فالـــذي أخـــرت سريـــع اللحـــاق
غُـــرّ مـــن ظـــن أن تفـــوت المنايـــا وعراهـــــا قلائـــــد الأعنـــــاق
كـــم صـــفيين مُتعـــا باتفـــاقٍ ثـــم صـــارا لغربـــة وافـــتراق
قلـــت الفبرقـــدين والليـــل مُلـــقٍ سُـــودَ أكنافـــه عـــلى الآفـــاق
أبقيـــا مـــا بقيـــتما ســـوف يُرمـــى بـــين شخـــصيكما بـــسهم الفـــراق

وإنما قلت «شخصية الطبيعة» لأدل القارئ على مبلغ ما سما إليه العرب حين كلفوا بالنظر إلى الوجود ... وانظر قول الحسن بن وهب في وصف النار وقد نفرت منها إحدى الجواري الحسان:

بـأبي كرهـت النـار حتـى أبعـدت فعلمـــت مـــا معنـــاك في إبعاهـــا
هـــي ضرةٌ لـــكِ في الـــتماع ضـــيائها وهُبـــوب نفحتهـــا لـــدى إيقادهـــا
وأرى صـنيعك في القلـوب صـنيعها بـــــسيالها وأراكهـــــا وعـــــدادها
شركتـــكِ في كـــل الأمـــور بفعلهـــا وضـــيائها وصـــلاحها وفـــسادها

ولينظر القارئ نظرة خاصة إلى قول علي بن شعيب:

انزعـــي الـــوشيَ فهـــو يـــستر حـــسنا لم تحـــــزْهُ بـــــرقمهن الثيـــــاب
ودعينـــــي عـــــسى أقبـــــل ثغـــــرا لـــذّ فيـــه اللمـــى وطـــاب الرُّضـــابُ
وعجيـــــبٌ أن تهجرينـــــي ظلـــــما وشـــــفيعي إلى صِـــــباك الـــــشباب

فإنا نجده تخطى كل الأسوار الصناعية التي يحيط بها الشعراء أغراضهم، ثم هجم على المعنى وأخذ بنواصيه، حين قال «وشفيعي إلى صباك الشباب» ولم يقـل: وشـفيعي إلى صـباك حبـي وهيـامي، ووجـدي وغرامـي، وخـشوعي وخضوعي. إلى آخر ما يقول المتيمون!

وانظر قول محمد البطليوسي:

غـصبوا الـصباح تقـسموه خـدودا ... واسـتنهبوا قُـضبَ الأراك قـدودا
رأوا حـصا اليـاقوت دون محلهـم ... فاسـتبدلوا منـه النجـوم عقـودا
واسـتودعوا حـدق المهـا أجفـانهم ... فـسبوا بهـنّ ضراغـما وأسـودا
لم يكفهـم حمـل الأسـنّة والظُّبـا ... حتـى اسـتعانوا أعينـا ونهـودا
وتـضافروا بـضفائرٍ أبـدت لنـا ... ضـوء النهـار بليلهـا معقـودا
صـاغو الثغـور مـن الأقـاحي بينهـا ... مـاء الحيـاء لـو اغتـدى مـورودا

ويكاد هذا الشعر يكون عبادة للطبيعة، ولن يغيب على أحد ما فيه من سمو الخيال.

وانظر كيف يكون كمون الحتف في الجفون، وكمون الموت في السيوف. في قول السريّ الرفاء:

بنفـسي مـن أجـود لـه بنفـسي ... ويبخـل بالتحيـة والـسلامِ
ويلقـاني بعـزةِ مـستطيلٍ ... وألقـاه بذلـة مـستهام
وحتفـي كـامنٌ في مُقلتيـه ... كمـون المـوت في حـد الحـسام

ويجيد شعراء العرب حين يمزجون وصف الطبيعة بالمعاني الوجدانية فكأنما يريدون أن يشركوا الوجود في نعيمهم وبؤسهم. وهذا في ذاته ملحظ بديع، ولننظر قول صردر:

يقـول خلـيلي والظبـاء سـوانحٌ ... أهـذي التـي تهـوى؟ فقلـت نظيرهـا
لـئن أشـبهت أجيادهـا وعيونهـا ... لقـد خالفـت أعجازهـا وصـدورها
فيـا عجبـا منهـا يـصدّ أنيـسها ... ويـدنو عـلى ذعـر إلينـا نفورُهـا
ومـا ذاك إلا أن غـزلان عـامرٍ ... يـثقن بـأن الزائـرين صُـقورها
ووالله مـا أدري غـداةَ نظرننـا ... أتلـك سـهامٌ أم كـؤسٌ تـديرها
فـإن كـنّ مـن نبـلٍ فـأين حفيفهـا ... وإن كـنّ مـن خمـر فـأين سرورهـا

أيـــا صـــاحبيّ أســـتاذنا في خُمرهـــا ... فقـد أذِنـتْ لي في الوصـال خـدورها
هباهـا تجافـت عـن خليـل يروعهـا ... فهـــل أنـــا إلا كالخيـــال يزورهـــا
وقـد قلـتما لي لـيس في الأرض جنـةٌ ... أمـا هـذه فـوق الركائـب حُورهـا
فـلا تحـسبي قلبـي طليقـا فـإنما ... لـه الـصدر سـجنٌ وهـو فيـه أسـيرها
أراكَ الحمـى قـل لي بـأي وسـيلةٍ ... وصـلت إلى أن صـادفتك ثغورهـا
وأن فـروع البـان مـن أرض بيـشةٍ ... حبيـــبٌ إليّ ظِلهـــا وحرورهـــا
ألـذّ مـن الـورد الجنـيّ عَرارهـا ... وأحـلى مـن الـشهد المـصفى بريرهـا
عـلى رسـلكم في الحـب إنـا عِـصابةٌ ... إذا ظفِـرتْ في الحـب عـفّ ضـميرها

ولسنا بصدَد الموازنة بين شعراء الغرب والشرق في النظر إلى الطبيعة، فإن هذا باب طويل. وإنما نشير فقط إلى أن الناس سواء في الإحساس بمظاهر الوجود. وإنما يختلفون في طرائق التعبير، وأساليب البيان.

* * *

مداراة الرقباء

للعشاق أساليب مختلفة في معاملة الرقباء والوشاة. فمنهم من يداريهم ويرصد غفلتهم. كقول ابن المعتز:

أردُّ الطرف من حَذري عليه ... وأمنحه التجنُّبَ والصدودا
وأرصد غفلة الرقباء عنه ... لتسرقَ مقلتي نظرا جديدا

وكقول السري الرفاء:

ونواظرٍ وجد المحب فتورها ... لما استقلّ الحيُّ في أعضائه
ما كان هذا البين أول جمرة ... أذكت لهيب الشوق في أحشائه
لولا مساعدة الدموع ودفعها ... خوف الفراق أتى على حوبائه [1]
وأنا الفداءُ لمن مخيلةُ برقِهِ ... حظي وحظ سوايَ من أنوائه
قمرٌ إذا ما الوشي صِين أذاله ... كيما يصون بهاءَه بدهائه [2]
خفِرُ الشمائل لو ملكت عِناقه ... يومَ الوداع وهبته لحيائه
ضعُفتْ معاقد خصره وعهوده ... فكأن عقد الخصر عقد وفائه
أدنو إلى الرقباء لا من حبهم ... وأصد عنه وليس من بغضائه

وفي هذا المعنى يقول عبد الله بن كعب العُميري:

أيا نخلة مرانَ هل لي إليكما ... على غفلات الكاشحين سبيلُ
أَمنيكما نفسي إذا كنت خاليا ... ونفعكما إلا العناءَ قليل
وما ليَ شيءٌ منكما غير أنني ... أُمني الصدى ظِلّيكما فأطيل

(١) الحوباء: النفس.
(٢) أذاله: أهانه.

ومن المتيمين من يرجو من محبيه مقارعة الوشاة. كقول أحد الشعراء:

تبـدّل هـذا الـسِّدر أهـلا وليتنـي ... أرى الـسدر بعـدي كيـف كـان بدائلـهْ
وعهدي به عذبَ الجنى ناعم الذَّرى ... تطيـب وتنـدى بالعـشيِّ أصـائله
فـما لـك مـن سـدرٍ ونحـن نحبـه ... إذا مـا وشـى الـواشي بنـا لا تجادلـه
كـما لـو وشـى بالـسد واش رددتـه ... كئيبـا ولم تـصلُح لـدينا شـمائله

وكقول كثير:

فيـا عـزّ إن واشٍ وشـى بي عنـدكم ... فـلا تكرميـهِ أن تقـولي لـه أهـلا
كـما لـو وشـى واشٍ بعـزةً عنـدنا ... لقلنـا: تزحـزحْ لا قريبـا ولا سـهلا

وقد يُعنى المحب بتكذيب الوشاة، فيما أدعوا من سلوانه، كقول أبي حية النميري:

وخـبَّرِكِ الواشـون أن لـن أحـبكم ... بـلى وسـتور الله ذات المحـارمِ
وإن دمًـا لـو تعلمـين جنيتِـه ... عـلى الحـيّ جـاني مثلـه غـيرُ سـالمِ
أصـد ومـا الـصد الـذي تعلمينـه ... عـزاءٌ بنـا إلا ابـتلاع العلاقـم
حيـاءً وتُقيـا أن تـشيع نميمـةٌ ... بنـا وبكـم أفٌّ لأهـل الـنمائم

ومن المعذبين من يشجيه أن لا ينفع العذل عنده، في حين أن من يهواه يأتمر بأمر الوشاة. ويسمع نُصح اللائمين.

فمن ذلك قول الأبيوردي:

رمتني بسهم راشه الكحل بالردى ... وأقتـل ألحـاظ المِـلاح كحيلهـا
مريـضة أرجـاء الجفـون وإنـما ... أصـحُّ عيـون الغانيـات عليلهـا
فولـت وقـد ابقـت بقلبـي علاقـة ... تمـر بهـا الأيـام وهـي مقيلهـا
وقلـت لأدنـى صـاحبيّ وقـد وشـى ... بـسري دمعـي إذ تـراءت حمولهـا

ذر اللـوم إني لـست أَرعيـك مـسمعي ... فتلـك هـوى نفـسي وأنـت خليلهـا
وليـت لـسانا أرهـف العـذل غربـه ... عـلى الـصب مفلـول الـشياة كليلهـا
أردّ عـذولي وهـو يمحـضني الهـوى ... بغـيظ، ويحظـى بـالقبول عـذولها
ويعتـادني ذكـر العقيـق وأهلـه ... بحيـث الحـمام الـوُرقُ شـادٍ هـديلها
تنـوح وتبكـي فـوق أفنـان أيكـةٍ ... فـداهنّ مـن أرض العـراق نخيلهـا
ولـولا تبـاريح الـصبابة لم أَبـل ... بكاهـا ولا أذرى دمـوعي عويلهـا

ومـن بـديع الـشعر في مدافعـة الوشـاة، قـول الرصـافي الأندلـسي في غـلام حائك:

قـالوا وقـد أكثـروا في حبـه عـذَلي ... لـو لم تهـم بمُـذال القـدر مبتـذلِ
فقلـت لـو كـان أمـري في الـصبابة لي ... لاخـترت ذاك ولكـن لـيس ذلـك لي
علقتـهُ حبَبِـيَّ الثغـر عـاطرهُ ... حلـو اللمـى سـاحرَ الأجفـان والمقَـل
غُزيّـلٌ لم تـزل مـن الغـزل جائلـةً ... بنانـه جـوَلان الفكـر في الغـزَل
جـزلان تلعـبُ بـالمِحواك أنملـه ... عـلى الـسدى لعـب الأيـام بالأجـل
ضـمَّ بكفيـه أو فحـصا بأخمـصهِ ... تخـبُّط الظبـي في أشراك مُحتبـل

وأحب لـو تأمـل القـارئ هـذه (الـصورة الـشعرية) التي تمثل هـذا الحائك الجميل. بالظبي يتخبط في الأشراك. وإنها لوثبة من وثبات الخيال.

* * *

نجل الحسان

نذكر هنا طرفا مما قال الشعراء في بُخل الحِسان: وكل حسناء بخيلة، وكل جميل ضنين! وأشهر الشعر في هذا المعنى قول مهيار:

يا لُواة الدين عن ميسرةٍ ... والبخيلاتُ ما كنّ لئاما
حمّلوا ريح الصبا نشركم ... قبل أن تحمل شيحا وخزامى
وابعثوا لي في الكرى طيفكم ... إن أذِنتم لجفوني أن تناما

ويجمل بنا أن نذكر قصيدة كثير التائية، ففيها صورة شعرية لصدق اللوعة، عند بخل الحبيب. وهي فوق ذلك غُرة من غرر الآداب العربية. قال:

خليليّ هذا ربع عزّة فاعقلا ... قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلتِ
وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ... ولا موجعات القلب حتى تولت
فقد حلفت جهدا بما نحرت له ... قُريشٌ غداة المأزمين وصلتِ
أناديك ما حج الحجيجُ وكبرت ... بفيفا غزال رُفقةٌ وأهلت
وكانت لقطع الحبل بيني وبينها ... كناذرة نذرا فأوفت وحلت
فقلت لها يا عز كل مصيبة ... إذا وُطِّنت يوما لها النفس ذلت [١]
ولم يلق إنسانٌ من الحب ميعةً ... تعم ولا غمّاءَ إلا تجلت [٢]
كأني أنادي صخرة حين أعرضت ... من الصم لو تمشي بها العصم زلت [٣]

---

(١) ذلت، هانت.

(٢) الميعة والغماء، الشدة. وتجلت، انصرفت.

(٣) العصم، جمع أعصم وهو من الظباء والوعول ما في ذراعيه أو أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر. وزلت: زلقت.

صـــفوحا فـــما تلقـــاك إلا بخيلـــة ... فمن مل منها ذلك الوصل ملت [١]
أباحـتْ حمـى لم يَرعـه النـاس قبلهـا ... وحلـت تلاعـا لم تكـن قبـل حُلـت [٢]
فليـت قلـوصي عنـد عـزة قُيـدت ... بحبـل ضـعيف غُـر منهـا فـضلت
وغـودر في الحـي المقيمـين رحلهـا ... وكـان لهـا بـاغٍ سـواي فبلـت [٣]
وكـن كـذي رجلـين رجـل صـحيحة ... ورجـل رمـى فيهـا الزمـان فـشلت
وكنـت كـذات الظلـع لمـا تحاملـت ... عـلى ظلعهـا بعـد العثـار اسـتقلت [٤]
أريـــد الثـــواءَ عنـــدها وأظنهـــا ... إذا مـا أطلنـا عنـدها المكـث ملـت
فـما أنـصفت أمـا النـساء فبغـضت ... إليّ وأمـــا بـــالنوال فـــضنت
يكلفهـا الغـيران شـتمي ومـا بهـا ... هـــواني ولكـــن للمليـــك اسـتدلت
هنيئـــا مريئـــا غـــير داءٍ مُخـــامرٍ ... لعـزة مـن أعراضـنا مـا اسـتحلت
فـــوالله مـــا قاربـــت إلا تباعـــدت ... بـــصرمٍ ولا أكثـــرتُ إلا أقلـــت
فـإن تكـن العتبـى فـأهلا ومرحبـا ... وحقـت لهـا العتبـى لـدينا وقلـت [٥]
وإن تكـــن الأخـــرى فـــإن وراءنـــا ... منادح لـو سارت بها العيس كلت [٦]
فـلا يبعـدنْ وصـلٌ لعـزة أصـبحتْ ... بعافيـــة أســـبابه قـــد تولـــتِ
أسـيئي بنـا أو أحـسني لا ملومـةً ... لـــدينا ولا مقليّـــة إن تقلـــتِ [٧]
ولكـن أنـيلي واذكـري مـن مـودةٍ ... لنـا خُلـة كانـت لـديكم فطلـت
فـإني وإن صـدّت لمـثنٍ وصـادقٌ ... عليهـا بـما كانـت إلينـا أزلـت [٨]

---

(١) صفوح، معرضة.
(٢) التلاع، جمع تلعة وهي ما ارتفع من الأرض.
(٣) بلت المطية: ضلت.
(٤) ظلع البعير: غمز في مشيه. واستقل: نهض من عثرته.
(٥) العتبى والأعتاب: الترضية.
(٦) المنادح: جمع مندوحة وهي ما اتسع من الأرض.
(٧) تقلت: ظهرت بالقلى وهو البغضز ومقلية: مبغوضة.
(٨) أزلتك أسدت.

فما أنا بالداعي لعزة بالجوى ... ولا شامتٌ إن نعلُ عزة زلت
فلا يحسب الواشون أن صبابتي ... بعزة كانت غمرة فتجلت
فأصبحت قد أبللت من دنفٍ بها ... كما أدنفت هيماءُ ثم استبلت (١)
فوالله ثم الله ما حلّ قبلها ... ولا بعدها من خُلة حيث حلت
وما مرّ من يوم عليّ كيومها ... وإن عظمت أيام أخرى وجلت
وأضحت بأعلى شاهق من فؤاده ... فلا القلب يسلوها ولا العين ملت
فيا عجبا للقلب كيف اعترافه ... والنفس لما وطنت كيف ذلت (٢)
وأني وتهيامي بعزة بعدما ... تخليت مما بيننا وتخلت
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما ... تبوأ منها للمقيل اضمحلت
كأني وإياها سحابة ممحل ... رجاها فلما جاوزته استهلت (٣)
فإن سأل الواشون فيم هجرتها ... فقل نفسُ حر سلّيتْ فتسلت (٤)

ومن الشعراء من ينص على أن شح الحسان سماحة، كالتهامي حين يقول:

ماتت لفقد الظاعنين ديارهم ... فكأنهم كانوا بها أرواحا
ولقد عهدت بها فهل أرينه ... مغدى لمنتجع الصبى ومراحا

(١) أبل من مرضه برئ منه. والدنف المرض. والهيماء: المريضة بالهيام وهو داء يصيب الإبل فلا تصبر على الماء.
(٢) الاعتراف: الاصطبار. وذلت: رضيت.
(٣) ممحل: أصابه المحل وهو القحط.
(٤) تلك هي نائية كثير. ولقد كان بها جد مفتون. حتى أنه سئل أنت أشعر أم جميل؟ وقال، بل أنا. فقيل لهك أتقول هذا وأنت راويتهظ فقال: جميل يقول:

رمى الله في عيني بنينة بالقذى ... وفي الغر من أنيابها بالقوادح

وأنا أقول:

هنيئا مريئا غير داء مخامر ... لعزة من أعراضنا ما استحلت

بالنافثـــات النافـــذات نـــواظرا ... والنافـــذين أســـنة وصِـــفاحا
وأرى العيـــون ولا كـــأعين عـــامرٍ ... قـــدرا مـــع القـــدر المتـــاح مُتاحـــا
متـــوارثي مـــرض الجفـــون وإنـــما ... مـرض الجفـون بـأن يكـن صـحاحا
مـــن كـــان يكلـــف بالأهلـــة فليـــزر ... ولـــدي هِـــلال رغبـــة وبراحـــا
لا عيـب فـيهم غـير شـح نـسائهم ... ومـــن الـــسماحة أن يكـــن شـــحاحا
طرقتـــه في أترابهـــا فجلـــتْ لـــه ... وهنـا مـن الغـرر الـصِّباح صـباحا
أبـــرزن مـــن تلـــك العيـــون أسـنةً ... وهـــززن مـــن تلـــك القـــدود رماحـــا
يـــا حبـــذا ذاك الـــسلاح وحبـــذا ... وقـــت يكـــون الحـــسن فيـــه ســـلاحا

ويأسى ابن التعاويذي على أن يرجو عطف البخيلة، وهو جواد الكف. وذلك قوله:

نأيـت فحرمـت الجفـون عـلى الكـرى ... وأغريـــت دمـــع العـــين بـــالهملان
وأعهـد قبـل البـين قلبـي يطيعنـي ... ولكنـــه يـــوم الـــوداع عـــصاني
ومـا زال مطبوعـا عـلى الـصبر قُلبـا ... ســـواءٌ بعـــادٌ عنـــده وتـــداني
فـما بالـه يـوم النـوى سـار منجـدا ... مـع الركـب في أسر الـصبابة عـان
فليـت طبيبـا أمرضـتني جفونـه ... وفي يـــده منهـــا الـــشفاء شـــفاني
وليت غريمي في الهوى وهو واجد ... تحـــرج مـــن ليّانـــه فقـــضاني [1]
ولـولا الهـوى يـا آل خنـساءَ لم يكـن ... ليملكنـــي مـــنكم خـــضيب بنـــان
ولا بـتُّ في أبيـاتكم سـائلا قِـرى ... بغـــير قنـــا أو طالبـــا لأمـــان
أَرجِّـي جـواد الكـف عطـف بخيلـة ... وأخـشى حديـد القلـب فتـك جبـان
وقبلـك مـا أنهـضتُ عزمـي لحاجـةٍ ... فأدركتهـــا إلا بحـــدِّ سِـــنان
وأولى بمـــثلي أن يكـــون مهـــادهُ ... سريـــر حِـــصانٍ لا سريـــر حـــصان
وبي أنـفٌ أن اقتـضي بـسوى الظُّبـى ... ديـــوني إذا غـــير الحبيـــب لـــواني

(١) اللِّيان: مصدر لويز يقال: لوى غريمه إذا مطله.

الأمر للحب

ومن الشعراء من يتحدث عن صبره المغلوب، ثم يجعل الأمر كله للحب. كما أنشد أحمد بن يحيى:

من كان يزعم أن سيكتم حبه ... حتى يُشكك فيه فهو كذوب
الحبُّ أغلب للفؤاد بقهره ... من أن يُرى للستر فيه نصيب
وإذا بدا سر اللبيب فإنه ... لم يبدُ إلا والفتى مغلوب
إني لأبغض عاشقا متستترا ... لم تتهمه أعينٌ وقلوب

وفي هذا المعنى يقول الأقرع بن معاذ القشيري في حبيبة غلبته على قلبه، واستأثرت به من بين النساء:

يقر بعيني أن أرى ضوءَ مُزنةٍ ... يمانيةٍ أو أن تهبّ جنوب
لقد شغفتني أم بكر وبغّضت ... إليّ نساءٌ ما لهن ذنوبُ
أراكِ من الضرب الذي يجمع الهوى ... ودونك نسوانٌ لهنّ ضروب
وقد كنت قبل اليوم أحسب أنني ... ذلولٌ بأيام الفراق أديب

وقد وضح هذا المعنى كل الوضوح في قول الضحاك:

يقولون مجنونٌ بسمراءَ مولعٌ ... ألا حبّذا جنّ بنا وولوع
وإني لأخفي حب سمراءَ منهم ... ويعلم قلبي أنه سيشيع
ولا خير في حبّ يُكنُّ كأنه ... شغافٌ أجنته حشا وضلوع

ومن العشاق من يخلع العذار، لروعة الحسن في محبوبه، وصولة الحب في قلبه. كقول عمارة اليمني:

ظبـيٌ أعـار الليـل طُـرة شـعره وأمـدّ ضـوء الـصبح بـالإشراق
وسـنان ذاب الـسحر في آماقـه وأذاب مـاء الـروح مـن آمـاقي
كتـب الجـمال عـلى صـحيفة خـدِّه عـذرَ المحـبّ وحجـة المـشتاق
مـا كنـت أدري يـوم رؤيـة وجهـه أن الخـدود مـصارع العـشاقِ

وأحب أن يتأمل القارئ جمال التصوير في قوله:

وسـنانُ ذاب الـسحر في آماقـه وأذاب مـاء الـروح مـن آمـاقي

فقد جعل الدمع ذوب الروح، وهو خيال بديع [1]. وعذر المحب الذي كتبه الجمال على خد المحبوب يذكرنا بقول بعض الظرفاء:

يـا مليـح الـدّل والغـنَجِ لـك سـلطانٌ عـلى المهـجِ
إن بيتـا أنـت سـاكنه غـير محتـاجٍ إلى الـسُّرُج
وجهـك المعـشوق حجتنـا يـوم يـأتي النـاس بـالحُجج

* * *

(١) في كتاب البدائع رسالة ممتعة عن دولة الحسن وعالم الجمال، كتبها المؤلف في وصف ليلة من ليالي الرقص في مصر الجديدة، فليراجعها القارئ إن شاء.

حمل السلام

للشعراء فنون مختلفة في نجوى الحبيب البعيد. فمنهم من يقصد إلى غرس الرفق في قلوب أحبابه، بوصف ما هو عليه من الخطر، كقول الطغرائي:

ويا أيها الغادي تحمّل رسالة ... على ما بها إن الحديثَ طويلُ
وقل للأُلَى حلوا الحمى سُقي الحمى ... عزاءكم فالعامري قتيل

ومنهم من يوصي الرسول بملاطفة المحبوب واستدراجه. وأطرف ما قيل من الشعر في هذا المعنى قول الوأواء الدمشقي:

بالله ربكما عُوجا على سكنى ... وعاتباه لعل العتبَ يعطفه
وحدّثاه وقولا في حديثكما ... ما بال عبدكم بالهِجران تتلفه
فإن تبسم قولا في ملاطفةٍ ... ما ضرّ لو بوصال منك تسعفه
وإن بدا لكما في وجهه غضبٌ ... فغالطاهُ وقولا ليس نعرفه

وهو مأخوذ من قول عمر بن أبي ربيعة في وصف قوادة:

فأتتها طبة عالمةٌ ... تمزج الجد مرارا باللعبْ
تُغلظ القول إذا لانت لها ... وتراخى عند سورات الغضب

قيل إن ابن أبي عتيق قال لعمر لما سمع هذا الشعر: ما أحوج المسلمين إلى خليفة يدبر أمورهم مثل قوادتك هذه [١]. ولعله تذكر قول معاوية: لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت. قيل وكيف ذاك؟ فقال إذا شدوا تراخيت وإن تراخوا شددت:

(١) في كتاب «حب ابن أبي ربيعة وشعره» تفاصيل ممتعة لعبث هذا الشاعر بالنساء.

وقد تلطف البها زهير في وصية الرسول بقوله:

فيا رسولي إلى من لا أبوح بهِ ... إنّ المهمات فيها يعرف الرجل
بلغ سلامي وبالغ في الخطاب له ... وقبّل الأرض عني حينما تصل
بالله عرّفه حالي إن خلوت به ... ولا تُطل فحبيبي عنده مَلل

وإنك لتضحك بملء فيك حين تتأمل قوله:

إن المهماتِ فيها يُعرف الرجلُ

فكأنما هي قيادة حربية، لا قيادة غرامية!

ومنهم من يحمّل النسيم تحياته إلى من يهوى. كما قال بعض الظرفاء:

فيا نسيمَ الصبا أنت الرسول له ... والله يعلم أني منك غيرانُ
بلغ سلامي إلى من لا أكلمه ... إني على ذلك الغضبان غضبان
لا يا رسوليَ لا تذكر له غضبي ... فذاك منيَ تمويهٌ وبهتان
وكيف أغضب لا والله لا غضبٌ ... إني لما رام من قتلي لفرحان
أكل يوم لنا رسلٌ مرددةٌ ... وكل يوم لنا في العَتب ألوان
أستخدم الريح في حمل السلام لكم ... كأنما أنا في عصري سليمان

وقد ذكر أمين الدين بن عطايا السبب في اختيار النسيم لحمل الرسالة حين قال:

أنا أهوى غصن النقا وهو لاهٍ ... وفؤادي بحبه في التيه
يا نسيم الصبا ترفق عليه ... وتلطف به ولا تُؤذيه
وتحمّل رسالة ليس إلا ... كَ أمينا في حملها أرتضيه
وإذا لم يكن رسولي نسيما ... نحو غصن النقا فمن يثنيه

وأظهر من ذلك ما حُكي أن ابن سعيد المغربي مشى مع جماعة من أدباء المصريين وفيهم أبو الحسين الجزار. فمروا في طريقهم بمليح نائم تحت شجرة، فهبت الريح فكشفت ثيابه عنه. فقال الجزار: قفوا ! لينظم كل منا شيئا في هذا! فقال ابن سعيد:

الـــريح أقـــودُ مـــا تكـــونُ لأنهـــا ... تُبـــدي خفايـــا الـــردف والأعكـــان
وتميـــل بالأغـــصان عنـــد هبوبهـــا ... حتـــى تقبـــل أوجـــه الغـــدران
ولـــذلك الأحبـــاب يتخـــذونها ... رســـلا إلى الأحبـــاب والأوطـــان

وهو شعر حسن. غير أنه لا وجه لذكر الأوطان في هذا الموطن إذ لا علاقة لها بالقيادة، ولو قال الخلان أو الأخدان لكان أنسب وأقرب إلى المراد. وقال ابن الخياط:

يـــا نـــسيم الـــصبا الولـــوع بوجـــدي ... حبـــذا أنـــت لـــو مـــررت بهنـــدِ
ولقـــد رابنـــي شـــذاك فبـــالله ... متـــى عهـــده بـــأظلال نجـــد

ومنهم من يوصي الركبان بحمل سلامه، وتبليغ شكواه، كقول الشريف:

دعا بالوحافِ السُّود من جانب الحمى ... لـــديغ هـــوى لبيـــتُ حـــين دعـــاني
تعجب صـحبي مـن بُكـائي وأنكـروا ... جـــوابي لمـــا لم تـــسمع الأذنـــان
فقلـــت نعـــم لم تـــسمع الأذن دعـــوةٌ ... بـــلى إن قلبـــي ســـامع وجنـــاني
ويـــا أيهـــا الركـــب اليمانـــون خـــبروا ... طليقـــا بـــأعلى الخيـــف أني عـــاني
عِـــدوه لقـــائي أو عِـــدوني لقـــاءه ... ألا ربـــما دانيـــت غـــير مـــدان

وهذا شعر موجع، يغري القلب بالحزن، والعين بالدمع، وأشجى منه قول مهيار:

تحـرش بأحقـاف اللـوى عمـر سـاعةٍ ... ولـولا مكـان الريـب قلـت لـك ازددِ

وقل صاحب لي ضل بالرمل قلبه ... لعلك أن يلقاك هادٍ فتهتدي
وسلم على ماءٍ به بُرد غُلتي ... وظِل أراكٍ كان للوصل موعدي
وقُل لحمام البانتينِ مهنئا ... تغن خليا من غرامي وغرد
أعندكم يا قاتلين بقيةٌ ... على مهجةٍ إن لم تمتْ فكأن قدّ
ويا أهل نجدٍ كيف بالغور بعدكم ... بقاء تهامي يهيمُ بمنجدِ
ملكتم عزيزا رقهُ فتعطّفوا ... على منكرٍ للذل لم يتعود

وحدث أبو العباس محمد بن يزيد قال: خرجت مع الحسن بن رجاء إلى فارس فلما صرنا إلى موضع يعرف بشعب بوان رأيت على حائط مكتوبا بخط جليل:

إذا أشرف المكروب من رأس تلعة ... على شِعب بوّانٍ أفاق من الكربِ
وألهاه بطنٌ كالحريرة مسُّه ... ومطرد يجري من البارد العذب
وطيب ثمار في رياض أريضةٍ ... وأغصان أشجار جناها على قرب
فبالله يا ريح الجنوب تحملي ... إلى شعب بوانِ سلام فتى صبّ

وإذا تحت ذلك الخط الجليل بخط أدق منه:

ليت شعري عن الذين تركتنا ... خلفنا بالعراق هل يذكرونا
أم لعل المدى تطاول حتى ... قدُم العهد بيننا فنسونا

ولا يفوتنا أن نمتع القارئ بقول الشريف:

حي بين النقا وبين المصلى ... وقفات الركائب الأنضاء
ورواح الحجيج ليلة جمع ... وبجمع مجامع الأهواءِ [1]

(١) ترد كلمة «جمع» كثيرا في شعر الشريف. وهو من مناسك الحج. ويوم جمع يوم عرفة. وأيام جمع أيام منى.

وتعهـــد ذكـــرى إذا كنـــت بالخيـــ ـــف لظبـي مـن بعـض تلـك الظبـاء
قـل لـه هـل نـراك تـذكر مـا كـا ـــن ببـــاب القبيبـــة الحمـــراءِ
قـــال لي صـــاحبي غـــداة التقينـــا نتـــشاكى حـــرّ القلـــوب الظـــماء
كنـــت خبرتنـــي بأنـــك في الوجـــ ـــد عقيـــدي وإن داءَك دائـــي
مـــا تـــرى النفـــر والترحـــل للبيـــ ـــن فـــماذا انتظارنـــا بالبكـــاءِ
لم يقلهـــا حتـــى انثنيـــت لمـــا بي أتلقـــى دمعـــي بفـــضل ردائـــي

دموع الغانيات

لا نريد هنا الدمع يسفحه الندم، بل الدمع يرسله الوفاء. لأن عبرة النادم رفق بنفسه التي أفسدها الإسراف. أما عبرة المودّع فهي رفق بمحبه الذي أشجاه الفراق!

قال جرير في بكاء الحسان عند الوداع:

إن الـــذين غـــدوا بلبـــك غـــادروا وشـــلا بعينـــك مـــا يـــزال معينـــا
غيَّـــضن مـــن عـــبراتهن وقلـــن لي مـــاذا لقيـــت مـــن الهـــوى ولقينـــا

وهو كلام فطري لا كلفة فيه. وما أبدع قول الظاعنات:

ماذا لقيت من الهوى ولقينا!

ومثله قول ابن التعاويذي:

لمـــــا وقفنـــــا للـــــودا ع وقـــد دعـــا داعـــي الرحيـــل
وتخاذلـــــت أنـــــصار دمعـــــ ـــي في هـــوى الظبـــي الخـــذول
قالـــــت وأدمعهـــــا تـــــسيـ ـــل أســـى عـــلى الخـــد الأســـيل
يـــا بـــين كـــم أجليـــت يـــو م نـــوى الأحبـــة عـــن قتيـــل

وهذا شعر خفيف الروح، لطيف النسيم. ويشبه قول بعض الأعراب:

ومما شجاني أنها ودعت ... تولت وماء العين في الجفن حائرُ
فلما أعادت من بعيد بنظرةٍ ... إليّ التفاتا أسلمته المحاجر

وقد أنصف الأبيوردي معشوقته إذ يقول:

وما أنس لا أنس الوداع وقد بدت ... تُغيض دمعا فاض وابله سكبا
مهفهفة لم ترض أرتابها لها ... ببدر الدجى شبها وشمس الضحى
تنفسُ حتى يُسلم العقدَ سلكهُ ... وأكظم وجدا كاد ينتزع القلبا
وتذري شآبيب الدموع كأنما ... أذابت بعينيها النوى لؤلؤا رطبا

ولو سلمت هذه الأبيات من مثل هذا الغزل الطريف لكان أنسب بموقف التوديع. ومثلها في ذلك قول السري الرفاء:

تنادوا لتفريق الفريق فأصبحت ... مدامعنا تندى لفرقتهم دما
سلام على من سار قلب محبه ... إليه فلم يرجع صحيحا مسلما
يحلّ عقود الدر دمعا ومنطقا ... وينظمها حليا عليه ومبسما
أماط عن العذب اللثاةِ لثامه ... فعاد بديباج الحياء ملثما
وكلمني جفناه بالدمع خفية ... فهمّ غليل الشوق أن يتكلما

ومن العشاق من ينسب إلى حبيبته التباكي، وإلى نفسه مر البكاء، ثم يفرق بين العبرتين ويميز بين الزفرتين. كالأرجاني إذ يقول:

سفرت كي تزود الحب منها ... نظرة حين آذنت بالتنائي
ورأت أنها من الوجد مثلي ... ولها للفراق مثل بكائي
فتباكت ودمعها كسقيط الطل ... في الجلنارة الحمراء
فترى الدمعتين في حمرة اللو ... ن سواء وما هما بسواء
خدها يصبغ الدموع دمعي ... يصبغ الخد قانيا بالدماء

خـــضب الـــدمع خـــدها بـــاحمرار كاختـــضاب الزجـــاج بالـــصهباء

وما أدري بأي قلب يلح هذا الشاعر ليحول دموع محبوبته إلى دماء!! وما أرفق المتنبي إذ يقول:

وجـلا الـوداع مـن الحبيـب محاسـنا حُـسن العـزاء وقـد جلـين قبـيحُ
فيـدٌ مـسلمة وطـرف شـاخص وحـشا يـذوب ومـدمع مـسفوح

ألم تر إليه وقد انخلع قلبه حين رأى حبيبته باكية، فلم يذكر إلا أنها جميلة، وأن الصبر على فراقها أعز منالا من نجوم السماء!

وتعجبني هذه النجوى في قول ابن الرومي يصف عتاب حسناء:

زارت عـلى غفلـة مـن الحـرسِ تهـدي إليّ الـسلام في الغلـسِ
أني تجـشمت نحـو أرحُلنـا الهـو ل ولم ترهبـي أذى العـسس
قالـت ترامـى بنـا إليـك مـن الـشو ق مُغِـصّ بالبـارد الـسلس
كـم زفـرة لي تبيـت تـنهض أحـشا ئـي ودمـع عليـك منـبجس
وأنـت لاهٍ بغيرنـا ولنـا منـك هـوى ممـسك عـلى الـنفس
عجبـت مـن ذلتـي ومـن قلبـك القا سي علينـا وخلقـك الـشكسِ
لا تـأمنن الهـوى وسـطوته واخـش رداه ومنـه فـاحترسِ

وهذا الشعر جميل في معناه، ولكن يظهر أن أُسلوبه لا يمثل الرقة في نجوى الحسناء، وقد مسها الحب بناره، وأحرقها بجواه! ولو تناول ابن أبي ربيعة أو ابن الأحنف هذا المعنى لرأيت له ثيابا أرق من هذه الثياب، وأسلوبا غير هذا الأسلوب!

ومن بارع الشعر في دموع الحسان قول جميل:

لمـا دنـا البـين بـين الحـي واقتـسموا حبـل النـوى فهـو في أيـديهم قِطـع

جـادت بأدمعهـا لـيلى وأعجلنـي ... وشـك الفـراق فـما أَبقـي ومـا أدعُ
يـا قلـب ويحـك مـا عيـشي بـذي سـلم ... ولا الزمـان الـذي قـد مـرّ مُرتجـع
أكلـما بـان حـيّ لا تلائمهـم ... ولا يبـالون أن يـشتاق مـن فجعـوا
علقتنـي بهـوى عـنهم فقـد جعلـت ... مـن الفـراق حـصاه القلـب تنـصدع

وهذا الشعر يمثل الطبيعة في مواقف الوداع، فالشاعر هنا شائق ومشوق. ولا كذلك أبيات الرومي التي حصر دمعها في عيون زائرته الحسناء. ومن هذه الناحية يعجبني ما أنشده صاحب الأمالي:

ولمـا رأت أن النـوى أجنبيـة ... وأن خلـيلا مـن غـد سـيبينُ
بكت فبكى من لاعج الشوق والأسى ... وكـل بكـلٍ إن يبـين ضـنينُ
فقلـت ولم أملـك سـوابق عـبرة ... عـلى الخـد منـي الـدموع هتـون
لقد كنت أبكي قبل أن تشحط النوى ... فكيـف إذا مـا غبـت عنـك أكـون

وانظر كيف يصف العرجي خوف محبوبته من فراقه:

ومـا أنـس ملأشـياء لا أنـس موقفـا ... لنـا ولهـا بالـسفح دون ثبـير
ولا قولهـا وهنـا وقـد بـل جيبهـا ... سـوابق دمـع لا يجـفّ غزيـر
أأنـت الـذي خـبرت أنـك بـاكر ... غـداة غـد أو راحـل بهجـير
فقلـت يـسيرٌ بعـد شـهر أغيبـه ... ومـا بعـض يـوم غبتـه بيـسير
وقلـت لهـا قـول امـرئ شـفه الهـوى ... إليهـا ولـو طـال الزمـان فقـير
فـما أنـا إن شـطت بـك الـدار أو نـأت ... بي الـدار عـنكم فـاعلمي بـصبور

وكنا نحب أن نعلم بقية العتاب في قوله:

أحـين عـصيت العـاذلين إلـيكم ... ونازعـت حـبلي في هـواك أمـيري
وباعـدني فيـك الأقـارب كلهـم ... وبـاح بـما يخفـي اللـسان ضـميري

ولكن الرواة لم يذكروا هذه القصيدة كاملة.

والشعر الذي تقدم لا يمثل عواطف النساء تمام التمثيل، لأنه من أحاديث الرجال. ولو أن المرأة تكلمت لعرفنا منها وكيف تشعر بلوعة الفراق. وإليك ما قالته امرأة من بني أسد في حبيب بنقض العهود:

بنفسي من أهوى وأرعى وصاله ... وتنقض مني بالمغيب وثائقه
حبيب أبي إلا اطراحي وبغضتي ... وفضّله عندي على الناس خالقه

وانظر قول ابنة الحباب:

محا حب يحيى حب يعلى فأصبحت ... ليحيى توالي حبنا وأوائله
ألا بأبي يحيى ومثنى ردائه ... وحيث التقت من متن يحيى حمائله

فإن هذا الشعر يمثل إحساس النساء بجمال الرجال. وما أوجع الشوق في قول هذه الشاعرة:

أأضرب في يحيى وبيني وبينه ... تنائف لو تسري بها الريح كلتِ
ألا ليت يحيى يوم عيهم زارنا ... وأن نهلت مني السياط وعلت

وفي الآداب العربية قطع منثورة تمثل ما تشتهي المرأة من الرجل، ولكنها من القلة بحيث لا تصور تماما نفوس النساء، ولا تزال لغزا من الألغاز، ولو أنها تحدث عن عواطفها كما تحدث الرجل عن عواطفه، لعرفنا بعض ما ستره هذا الصمت البليغ!

* * *

ندم المفارق

أشهر الشعر في ندم المحب، على فراق من يحب، ما قاله قيس بن ذريح وقد طلق لبنى. قال محمد بن زياد الأعرابي: لما ألحّ ذُرَيح على ابنه قيس في طلاق لبنى، فأبى ذلك قيس، طرح ذريح نفسه في الرمضاء وقال: لا والله. لا أريم هذا الموضع حتى أموت. أو يخليها. فجاءه قومه من كل ناحية، فعظموا عليه الأمر وذكروه بالله وقالوا: أتفعل هذا بأبيك وأمك، وإن مات شيخك على هذه الحال كنت معينا عليه وشريكا في قتلهن ففارق لبنى على رغم أنفه وقلة صبره. وبكى حتى بكى لهما من حضرهما. وأنشأ يقول:

أقـــول لخلتـــي في غـــير جـــرمٍ ... ألا بينـــي بنفـــسك أنـــت بينـــي
فـــوالله العظـــيم لنـــزع نفـــسي ... وقطـــع الرجـــل منـــي واليمـــينِ
أحـــبّ إليّ يـــا لبنـــى فِراقـــا ... فبكِّـــى للفـــراق وأســـعديني
ظلمتـــك بـــالطلاق بغـــير جـــرمٍ ... لقـــد أذهبـــت آخـــرتي ودينـــي

قال: فلما سمعت بذلك لبنى بكت بكاء شديدا وأنشأت تقول:

رحلـــت إليـــه مـــن بلـــدي وأهـــلي ... فجـــازاني جـــزاء الخائنينـــا
فمـــن يـــرني فـــلا يغـــترّ بعـــدي ... بحلـــو القـــول أو يبلـــو الـــدفينا

فلما انقضت عدتها وأرادت الشخوص إلى أهلها أُتيت براحلة لتحمل عليها. فلما رأى ذلك قيس داخله منه أمر عظيم، واشتد لهفه، وأنشأ يقول:

بانـــت لبينـــى فأنـــت اليـــوم متبـــول ... وأنـــك اليـــوم بعـــد الحـــزم مخبـــول
فأصبحت عنك لبنى اليوم نازحة ... ودل لبنـى، لهـا الخـيرات، معـسول
هـــل تـــرجعن نـــوى لبنـــى بعافيـــةٍ ... كـــما عهـــدت ليـــالي العـــشق مقبـــول

وقـــد أراني بلبنـــى حـــق مقتنـــع ... والـشمل مجتمـعٌ والحبـل موصـول
فـصرت مـن حـب لبنى حين أذكرهـا ... ألقـــب مـــرتهن والعقـــل مـــدخول
أصبحت من حب لبنى حين أذكرها ... في كربـــة ففـــؤادي اليـــوم مـــشغول
والجـــسم منـــي منهـــوك لفرقتهـــا ... أخـو هُيـام مـصاب القلـب مـسلول
أســـتودع الله لبنـــى إذ تفـــارقني ... عـن غـير طـوع وأمـر الـشيخ مفعـول

ثـم ارتحلت لبنى فجعل قيس يقبل موضع رجليها من الأرض وحول خبائها فلما رأى ذلك قومه أقبلوا على أبيه بالعذل واللوم، فقال ذريح لما رأى حاله: قد جنيت عليك يا بُني! فقال له قيس: قد كنت أخبرك أني مجنون بها فلم ترض إلا بقتلي: فالله حسبك وحسب أمي!! وأقبل قومه يعذلونه بتقبيله التراب، فأنشأ يقول:

فـــما حبـــي لطيـــب تـــراب أرضٍ ... ولكـــن حـــب مـــن وطـــئ الترابـــا
فهـــذا فعـــل شـــيخنا جميعـــا ... أرادا لي البليـــــــة والعـــــــذابا

ولقيس بن ذريح شعر أجود مما تقدم، وأدلّ على لوعته وأسفه لفراق لبنى كقوله:

تبكـي عـلى لبنـى وأنـت تركتهـا ... وكنـت كـآتٍ غيـهُ وهـو طـائعُ
فـــلا تبكـــين في إثـــر شيء ندامـــة ... إذ نزعتـــه مـــن يـــديك النـــوازع
فلـــيس لأمـــر حـــاول الله جمعـــه ... مُـــشِتٌ ولا مـــا فـــرق الله جـــامع
كأنـــك لم تقنـــع إذا لم تلاقهـــا ... وإن تلقهـــا فالقلـــب راض وقـــانع
فيـا قلـب خـبرني إذا شـطت النـوى ... بلبنـى وصـدت عنـك مـا أنـت صـانع
أتـصبر للبـين المـشت مـع الجـوى ... أم أنـت امـرؤ نـاسي الحيـاء فجـازع
فـما أنـت أن بانـت لبينـى بهـاجع ... إذا مـا اسـتقلت بانيـام المـضاجع
وكيـف ينـام المـرء مستـشعر الجـوى ... ضـجيج الأسـى فيـه نكـاسٌ روادع

ولا خـــير في الـــدنيا إذا لم تُواتنـــا ... لبينـى ولم يجمـع لنـا الـشمل جـامع
ولـولا رجاء القلب أن تعطف النوى ... لمـــا حملتـــه بيـــنهن الأضـــالع
لـــه وجبـــاتٌ إثـــر لبنـــى كأنهـــا ... شـــقائق بـــرق في الـــسحاب لوامـــع
نهـاري نهـار النـاس حتـى إذا دجـا ... لي الليـــل هزتنـــي إليـــك المـــضاجع
أقـــضي نهـــاري بالحـــديث وبـــالمنى ... ويجمعنـــي بالليـــل والهـــمّ جـــامع
ألا إنـــما أبكـــي لمـــا هـــو واقـــع ... وهـل جـزع مـن وشـك بينـك نـافع

ومن جيد شعره أيضا هذه القصيدة:

سـأصرم لبنـى حبـل وصـلك مجمـلا ... وإن كـان صرم الحبـل منـك يـروعُ
وسـوف أسـلي الـنفس عنـك كـما سـلا ... عـــن البلـــد النـــائي البعيـــد نزيـــع
وإن مـــسني للـــضرّ منـــك كآبـــة ... وإن نـــال جـــسمي للفـــراق خـــشوع
سـقى طلـل الـدار التـي أنـتم بهـا ... بـــشرقيّ لبنـــى صـــيفٌ وربيـــع
يقولـــون صـــبٌ بالنـــساء مُوكـــل ... ومـــا ذاك مـــن فعـــل الرجـــال بـــديع
مـضى زمـن والنـاس يستـشفعونني ... فهـــل لي إلى لبنـــى الغـــداة شـــفيع
أيـا حرجـات الحـي حيـث تحملـوا ... بـــذي ســـلمٍ لأجـــادكن ربيـــع
وخيماتـك الـلاتي بمنعـرج اللـوى ... بلـــين بـــلى لم تـــبلهن ربـــوع
إلى الله أشـكو نيـة شـقت العـصا ... هـي اليـوم شـتى وهـي أمـس جميـع
وإن انهـــمال العـــين بالـــدمع كلـــما ... ذكرتـــك وحـــدي خاليـــا لـــسريع
فلـو لم يهجنـي الظـاعنون لهـاجنى ... حمـــائم ورق في الـــديار وقـــوع
تجـاوبن فاستبكين مـن كـان ذا هـوى ... نـــوائح مـــا تجـــري لهـــن دمـــوع
لعمـــرك إني يـــوم جرعـــاء مالـــكٍ ... لعـــاص لأمـــر المرشـــدين مُـــضيع
نـدمت عـلى مـا كـان منـي، فقـدتني ... كـــما ينـــدم المغبـــون حـــين يبيـــع
إذا مـــا لحـــاني العـــاذلات بحبهـــا ... أبـــت كبـــد ممـــا أَجـــنُّ صـــديع
وكيـــف أطيـــع العـــاذلات وحبهـــا ... يـــؤرقني والعـــاذلات هُجـــوع

عـدمتك مـن نفـس شـعاع فـإنني نهيتـك عـن هـذا وأنـت جميـع
فقربـت لي غـير القريـب وأشرقـت هنـاك ثنايـا مـا لهـنّ طلـوع
وضـعفني حبيـكِ حتـى كـأنني مـن الأهـل والمـال الـتلاد خليـع
وحتـى دعـاني النـاس أحمـق مائقـا وقـالوا مطيـع للـضلال تبـوع

ويعجبني قوله:

نـدمت عـلى مـا كـان منـي، فقـدتني! كـما ينـدم المغبـون حـين يبيـع

وهو في شعره يمثل الفطرة الخالصة من شوائب التكلف، فإنه فجع بفر جليلته، والحليلة المعشوقة متاع عزيز.

وفي وصف أثر الطلاق يقول أحد الأعراب:

نـدمت ومـا تغنـي الندامـة بعـدما جـرجن ثـلاث مـا لهـنّ رجـوع
ثـلاث يُحـرّمن الحـلال عـلى الفتـى ويـصدعن شـعب الـدار وهـو جميـع

والتعبير بشعب الدار تعبير دقيق، ما كان يغني عنه أن يقول: (ويصدعن شعب القلب) لأن فراق الحليلة هدم للبيت من أساسه.

ومن شجى الشعر في ندامة المفارق عينية بن زريق، وقد ترك ابنة عمه ببغداد ورحل إلى الأندلس في سبيل الرزق، ثم حيل بينه وبين ما يريد، فأرسل هذه الزفرة الباقية:

أسـتودع الله في بغـداد لي قمـرا بـالكرخ مـن فلـك الأزرار مطلعـهُ
ودعتـه وبـودي لـو يـودعني صـفو الحيـاة وأني لا أَودعـه
وكـم تـشفع بي أن لا أفارقـه وللـضرورات حـال لا تـشفعه
وكـم تـشبث بي يـوم الرحيـل ضـحى وأدمعـي مـستهلات وأدمعـه
لا أكـذب الله ثـوب العـذر منخـرق منـي بفرقتـه لكـن أرقعـه

إني أوسع عذري في جنايته ... بالبين عنه وقلبي لا يوسعه
أعطيت ملكا فلم أحسن سياسته ... كذلك من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غدا لابسا ثوب النعيم بلا ... شكر عليه فعنه الله ينزعه
اعتضت من وجه خلي بعد فرقته ... كأسا يُجرّع منها ما أجرعه
كما قائل لي ذنب البين قلت له ... الذنب والله ذنبي لست أدفعه
هلا أقمت فكان الرشد أجمعه ... لو أنني حين بات الرشد أتبعه
لو أنني لم تقع عيني على بلد ... في سفرتي هذه إلا وأقطعه
يا من أقطع أيامي وأنفدها ... حرنا عليه وليلي لست أهجعه
لا يطمئن بقلبي مضجع وكذا ... لا يطمئن به مذ بنت مضجعه
ما كنت أحسب أن الدهر يفجعني ... به ولا أن بي الأيام تفجعه
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد ... عسراء تمنعني حقي وتمنعه
وكنت من ريب دهري جازعا فرقا ... فلم أوقّ الذي قد كنت أجزعه
بالله يا منزل القصف الذي درست ... آثاره وعفَت مذ بعتُ أربعه
هل الزمان معيد فيك لذتنا ... أم الليالي التي أمضته ترجعه
في ذمة الله من أصبحت منزله ... وجاد غيث على مغناك يُمرعه
من عنده لي عهدٌ لا يضيع كما ... عندي له عهد صدق لا أضيعه
ومن يصدع قلبي ذكره وإذا ... جرى على قلبه ذكرى يصدعه
لأصبرن لدهر لا يمنعني ... به ولا بي في حال يمتعه
علما بأن اصطباري معقب فرجا ... فأضيق الأمر لو فكرت أوسعه
علّ الليالي التي أضنت بفرقتنا ... جسمي ستجمعني يوما وتجمعه
وإن تغل أحدا منا منيته ... لابد في غده الثاني سيتبعه
وإن يدم أبدا هذا الفراق لنا ... فما الذي بقضاء الله نصنعه

ومما يتصل بندامة المفارق ما قاله ابن الرومي في فرصة ضاعت منه فعض من بعدها البنان. فلنذكرها على سبيل الفكاهة، لما فيها من ظرف المجون:

أستغفر الله من تركي علانية ... ذنبا هممت به في شادن خنث [1]
ظبيٌ دعتني عيناه ومنطقه ... بنية صدقت عن ظاهر عبث
فلم أجبه وحظي في إجابته ... لكن سكتّ كأني غير مكترث
لا بل فررت وظل الصيد يطلبني ... والله ما كنت فيها بالفتى الدّمثِ
أقسمت بالله لما كنت محتجزا ... أني ابنعثت بقلب غير منبعث

* * *

(١) الشادن: الغزال. والخنث: المتثنى.

غربة المحب

نتكلم قليلا عن غربة المحب، وكل مهجور غريب، لأن الأمر كما قال الشريف:

ليس الغريب الذي تنأى الديار به ... إن الغريب قريبٌ غير مودود

فمن الشعراء من يغترب في سبيل حبه. كما قال حذيفة الغنوي:

يقولون من هذا الغريب بأرضنا ... أما والهدايا إنني والغريب
غريب دعاه الشوق واقتاده الهوى ... كما قيد عود بالزمام أديب [1]
وماذا عليكم أن أطاف بأرضكم ... مطالب دين أو نفته حروب
أمشي بأعطان المياه وأبتغي ... قلائص منها صعبة وركوب

ومن شجي الشعر في غربة المحب قول بعض الأعراب:

وفي الجيرة الغادين من بطن وجرة ... غزال كحيل المقلتين ربيب
فلا تحسبي أن الغريب الذي نأى ... ولكن من تنأين عنه غريب

ومما يتصل بهذا المعنى قول بعض الأعراب يذكر اختصاصه بالبلوى في اغتراب محبوبته:

أرى كل أرض دمنتها وإن مضت ... لها حججٌ يزداد طيبا ترابها [2]
ألم تعلمن يا رب أن رُب دعوة ... دعوتك فيها مخلصا لو أجابها
وأقسم لو أني أرى نسبا لها ... ذئاب الفلا حُبت إليّ ذئابها

---

(١) العود الجمل، وأديب ذلول.

(٢) دمنتها: مشت عليها.

لعمـر أبي لـيلى لـئن هـي أصـبحت بـوادي القـرى مـا ضرّ غـيري اغترابها

وغربة المحب تتمثل في حرمانه. وكيف لا يكون غريبا من يقول:

أيـا منـشر المـوتى أقـدني مـن التـي بهـا نهلـت نفـسي سـقاما وعلّـتِ
لقـد بخلـت حتـى لـو أني سـألتها قذى العين من ساقي التراب لضنت
ومـا أمّ بـوٍّ هالـك بتنوفـة إذا ذكرتـه آخـر الليـل حنـتِ
بـأكثر مـن لوعـةٍ غـير أننـي أطـامن أحـشائي عـلى مـا أجنّـت

ويظهر أن قذى العين كان في أنفس العرب مثلا لما لا يضن به، فقد رددوا ذكره في أشعارهم، كما قال بعض بني أسد:

وكيـف طـلابي وصـل مـن لـو سـألته قـذى العـين لم يطلـب وذاك زهيـد [١]
ومـن لـو رأى نفـسي تـسيل لقـال لي أراك صـحيحا والفـؤاد جليـد

* * *

(١) أطلبه: أعطاه ما طلب.

الأمل الضائع

نذكر في مقدمة هذا الباب رسالة كتبها صاحب البدائع، ونقلها إلى الفرنسية حضرة الأديب عبد المجيد عيسى البيه. وهي تمثل الوجد يضطرم في الصدر، بعد قسوة الإخفاق.

* * *

تأيمت حتى لامني كل صاحب رجاء سُليمي أن تئيم كما إمتُ
لئن بعت حظي منك يوما بغيره لبئس إذا يوم التغابن ما بعت

كنت أصبح على بأساء الحياة، وأحتمل ما فيها من هم وغم، لو أن عندي بقية من الأمل أرفِّه بها أحزاني، وأدفن فيها آلامي! ولكن حال القنوط دون الرجاء، وأتى اليأس دون الطمع، فلم يبق غير الجزع من مُسعد، ولا سوى النوح من شفاء!

فيا جيرة ما كان أهنأ وردهم، وأطيب عيشهم، ويا أحبابا ذقت الفرح بقربهم، وعرفت الهمّ لبعدهم، ويا من أفناني فراقهم، وكان أحياني لقاؤهم، وبربكم ما الذي لقيتم بعدي، فقد لقيت بعدهم ذلا وهوانا، وظلما وعدوانا، ومن عسى أن يكون قد ظفر بودكم، ونعم بحسنكم، فأصفاكم من الحب أجمله، ومن الأنس أكملهن فقد صحبت بعدكم من جحد نعمتين وأنكر خلتي، ومن سقيته الشهد فسقاني الصاب، وأوليته القرب فأولاني القطيعة؟!

فيا ليت شعري من ألوم؟

أألوم نفسي على أن لم أعق في بركم أهلي وإخواني، فأسير حيث سرتم، وأقيم حيث أقمتم.

تفرّق أهلي من مقيم وظاعن فيا ليت شعري أي أهليّ أتبع
أقام الذين لا أبالي فراقهم وشطّ الذين بينهم أتوقع

أم ألومكم على أن تركتموني وحيدا وآثرتم وطنكم، وأهلكم، ولم تبالوا بمن خلفتموه طريح حزنه، وأسير همه؟

أم ألوم قوما جعلتهم منكم بدلا فكانوا شر بدل، واتخذتهم من بعدكم ذخرا فكانوا كالهباء، ورجوتهم حصنا أتقي به الدهر الخائن، والزمن الجائر، فإذا هم أذل من قراد بمنسم، وإذا المتفيئ ظلهم، والراجي برهم، يطمع في غير مطمع، ويلجأ إلى شر وزَر؟!

ألم ألوم دهرا اضطركم إلى الرحلة فرحلتم، وحكم عليّ بالمقام فأقمت، ثم أمدنا من اليأس لبعد الدار، وشطّ المزار، ما جعل الأمر في التلاقي خائبا، ورجاء التداني كاذبا:

وقلما أبقى على ما أرى يوشك أن ينعاني الناعي
ما أقتل اليأس لأهل الهوى لا سيما من بعد إطماعِ

ما هذا الذي صنعتم؟ أخضعتم لليأس، وأذعنتم للقنوط، ولم ترهبوا العتاب إذ لم تأملوا اللقاء، فزففتم تلك الشمس إلى غيري، وآثرتم بها سواي؟!

يا عزّ إن ضاعت عهودي عندكم فأنا الذي استودعت غير أمينِ
أو عدت مغبونا فما أنا في الهوى لكم بأول عاشق مغبون

غلب اليأس عليكم فمللتم - ولا وفاء لملول - فكان منكم ما أقضّ المضجع، وأورث الجفن السهاد، فهل تعلمون ما صنع اليأس بنا ونال القنوط منا؟ ولكن هيهات بعد اليوم أن ينفع العزاء.

هي الغاية القصوى فإن فات نيلها ... فكل مُنى عليّ حرام

* * *

وقد نظرت ما قال الشعراء في الأمل الضائع، ووجدت لهم فيه أفانين، فمنهم من يأسف على أن لم يؤهله وجهه للعشق، كالذي يقول:

جارية أعجبها حسنها ... فمثلها في الناس لم يُخلق
خبرتها أني محب لها ... فأقبلت تضحك من منطقي
والتفتت نحو فتاة لها ... كالرشأ الوسنان في قرطق
قالت لها قولي لهذا الفتى ... انظر إلى وجهك ثم اعشق [1]

ومن جيد الشعر في ضياع الأمل قول عمر بن أبي ربيعة في سكينة بنت الحسين:

قالت سكينة والدموع ذوارف ... تجري على الخدين والجلبابِ
ليت المغيري الذي لم أجزه ... فيما أطال تصيدي وطلابي
كانت تردّ لنا المنى أيامنا ... إذ لا نلام على هوى وتصابي
خبرت ما قالت فبت كأنما ... يُرمى الحشا بنوافذ النشاب
أسكين ما ماء الفرات وبردُه ... مني على ظمأ وفقد شراب
بألذ منكِ وإن نأيت وقلما ... يرعى النساء أمانة الغياب

(١) رواية صديقنا الدكتور إبراهيم زكي الساعي لهذا البيت هكذا (انظر لأسنانك ثم أعشق) لأن بريق الثنايا هو شارة الحسن والقوة عند أطباء الأسنان.

أن تبـــذلي لي نـــائلا أشـــفي بـــه ... ســقم الفــؤاد فقــد أطلــت عــذابي
وعــصيت فيــك أقــاربي فتقطعــت ... بينـــي وبيـــنهم عـــرى الأســـباب
فتركتنـــي لا بالوصـــال ممـــسكا ... مـــنهم ولا أســـعفتني بثـــواب
فقعــدت كــالمهريق فــضلة مائــه ... في حـــر هـــاجرة للمـــع سراب

ولم أر من الشعراء من بكى الأمل الضائع كما بكاه كثير في قوله:

وأدنيتنـــي حتـــى إذا مـــا اســـتبيتني ... بقــول يُحِــل العــصم ســهل الأبــاطحِ
توليـــت عنـــي حـــين لا لي مـــذهبٌ ... وغــادرتِ مــا غــادرت بــين الجــوانح

وهي صورة شعرية تمثل المحب، وقد استدرجه محبوبه، حتى أخذ الطمع بنواصي آماله، ثم تركه في اللحظة الأخيرة، يتعثر في أذيال الخيبة والقنوط!

وفي هذا المعنى يقول الشريف:

كــم قــد نــصبت لــك الحبائــل طامعــا ... فنجـــوتَ بعـــد تعـــرض لوقـــوعِ
وتركتنـــي ظمـــآن أشرب غُلتـــي ... أســـفا عـــلى ذاك اللمـــى الممنـــوع

ومن الأمل الذاهب أن يكون من تحبه من بلد غير بلدك، وقوم غير قومك، كما قال نُصيب:

أرِق المحـــب وعـــاده سُـــهده ... لطـــوارق الهـــم التـــي تـــردُه
وذكـــرت مـــن رقـــت لـــه كبـــدي ... وقـــسا فلـــيس تـــرق لي كبـــده
لا قومـــه قـــومي، ولا بلـــدي ... فنكـــون حينـــا جـــيرة بلـــده
ووجـــدت وجـــدا لم يكـــن أحـــدٌ ... مـــن أجلـــه بـــصبابة يجـــده

ونصيب يتحدث كثيرا عن عقم الأماني، حتى ليقول:

ألا هـــل عـــلى البـــين المفـــرّق مـــن بـــدّ ... وهـــل مثـــل أيـــام بمنقطـــع الـــسدّ
تمنيـــت أيـــام أولئـــك والمنـــى ... عـــلى عهـــد عـــادٍ مـــا تعيـــد ومـــا تبـــدي

الكتمان

من الشعراء من لا يهمه من الكتمان غير ستر تفاصيل الود. وأسرار القرب، ولا يرى بعد ذلك حرجا في ذكر اسم من يحب، كما قال جميل:

لا لا أبوح بحب بثنة إنها ... أخذت عليّ مواثقا وعهودا

وإنه لو كان يذهب إلى نكران الاسم وجحوده، تضليلا للوشاة، لكان هذا البيت من سخف القول، وهذره. وإليك ما يقول من كلمة ثانية:

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا ... سوى أن يقولوا إنني لك عاشق
نعم صدق الواشون أنت حبيبة ... إليّ وإن لم تصفُ منكِ الخلائقُ

فإنه يدل على أنه لا يبالي أنْ يعرف بحبها. حتى قال الناس: جميل بثينة كما قالوا مجنون ليلى. ويذكر أبو علي القالي أن البيت السالف لكثير، وأنه ذكر بثينة تورية عن حبيبته، وهذا فيما أرى غير حتم، لأن كثير ما كان يعدل عن عزة إلا لضرورة الشعر. كقوله:

كفي حزنا للعين أن رد طرفها ... لعزة عِيرٌ آذنت برحيل
وقالوا نأت فاختر من الصبر والبكا ... فقلت البكا أشفى إذا لغليلي
توليت محزونا وقلت لصاحبي ... أقاتلتي ليلى بغير قتيلِ

فقد ذكر عزة عند مواتاة الشعر، وليلى عند معاصاته، وهو نوع من التلاعب بالأسماء الذي كثر في شعر العرب. وقال كثير من قصيدة أخرى:

سيهلك في الدنيا شفيق عليكم ... إذا غاله من حادث الدهر غائله
ويخفي لكم حبا شديدا ورهبة ... وللناس أشغالٌ وحبك شاغِله

كـــريمٌ يُميـــت الـــسر حتـــى كأنـــه إذا حـــدثوه عـــن حـــديثك جاهلـــه
يـــودّ بـــأن يمـــسي ســـقيما لعلهـــا إذا ســـمعت عنـــه بـــشكوى تراســـله
ويجهـــد للمعـــروف في طلـــب العـــلا لتُحمـــد يومـــا عنـــد عـــز شـــمائله

وهو في هذا الشعر لا يكتم اسم من يهوى، وإنما يكتم أحاديث الحب، وأسرار الصبابة، كما قال جابر بن ثعلب الجرمي:

ومـــستخبرٍ عـــن سر ريـــا رددتـــه بعميـــاء مـــن ريـــا بغـــير يقـــينِ
فقـــال انتـــصحني إننـــي لـــك ناصـــح ومـــا أنـــا إن خبرتـــه بـــأمين

وهذا العباس بن الأحنف كان من أكثر المحبين كتمانا، ولكنه صرح باسم محبوبته فوز، ولقد بلغ من حسد إحدى جاراته له أن سمت جاريتها «فوز» وقد قال في ذلك:

ما ينقضي عجبي من جهل حاسدة كانت بذي الأثل من خدني وأنصاري
ســـمت وليـــدتها فـــوزا مغايظـــة عـــذرت لـــو لطمتنـــي ذات أســـوار
ومـــا يـــزال نـــساء مـــن قرابتهـــا في كـــل ناحيـــة يهـــتكن أســـتاري

ومسلم بن الوليد يتغنى بكتم تباريح الصبابة في قوله:

ومـــا نلـــت منهـــا نـــائلا غـــير أننـــي بـــشجو المحبـــين الـــلألى ســـلفوا قـــبلي
بـــلى ربـــما وكلـــت نفـــسي بنظـــرة إليهـــا تزيـــد القلـــب خـــبلا عـــلى خبـــل
كتمـــت تبـــاريح الـــصبابة عـــاذلي فلـــم يـــدرما بي فاســـترحت مـــن العـــذل

وقد عارضه ابن عبد ربه بقوله:

بنفـــسي التـــي ضـــنت عـــليّ بوصـــلها ولـــو ســـألت قـــتلي وهبـــت لهـــا قـــتلي
وإن حكمـــت جـــارت عـــلي بحكمهـــا ولكـــن ذاك الجـــور أحـــلى مـــن العـــدل
وأحببـــت فيهـــا العـــذل حبـــا لـــذكرها فـــلا شيء أحـــلى في فـــؤادي مـــن العـــذل

وهو يذكرنا بقول أبي الشيص الخزاعي:

أجـــد الملامـــة في هـــواك لذيـــذة حبـــا لـــذكراك فليلمنـــي اللـــوم
أشـــبهت أعـــدائي فـــصرت أحـــبهم إذ كـــان حظـــي منـــك حظـــي مـــنهم

وقول ابن نُباتة المصري:

لثمـــت ثغـــر عـــذولي حـــين ســـمَّاكِ فلـــذ حتـــى كـــأني لاثـــم فـــاكِ

ومن العشاق من يكتم الهوى جملة واحدة كقول ابن قلاقس:

كتمـــت الهـــوى عنـــد العـــواذل ضـــنة عليـــهم بمـــن أصـــبو إليـــه وأهـــواه
ولـــو قلـــت أني عاشـــق فطنـــوا لـــه لعلمهـــمُ أن لـــيس يُعـــشق إلا هـــو

وهو مذهب غريب، وأغرب منه مذهب من يقول:

وقائلـــة مـــا بـــال جـــسمك لا يُـــرى ســـقيما وأجـــسام المحبـــين تـــسقمُ
فقلـــت لهـــا قلبـــي بحبـــك لم يـــبح لجسمي فجسمي بالهوى ليس يعلم

وللعباس بن الأحنف شجون من الحديث عن الكتمان، فتارة يذكر أنه باح بحبه حين طال بلاؤه. كقوله:

هـــذا كتـــاب بـــدمع عينـــي أمـــلاه قلبـــي عـــلى لـــساني
إلى حبيـــب كنيـــت عنـــه أجـــل ذكـــر اســـمهِ لـــساني
قـــد كنـــت أطـــوي هـــواه عنـــه مـــذ كنـــت في ســـالف الزمـــان
فبحـــت إذ طـــال بي بلائـــي ولم يكـــن لي بـــه يـــدانِ

وهو هنا يكتم حبه عن محبوبه، فضلا عن الناس. وتارة يذكر أنه سيموت مكتوم السر إلا عمن يحب. فيقول:

أبكـــي الـــذين أذاقـــوني مـــودتهم حتـــى إذا أيقظـــوني في الهـــوى رقـــدوا

واستنهضوني فلما قمت منتصبا ... بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا
جاروا عليّ ولم يوفوا بعهدهم ... قد كنت أحسبهم يوفون إن وعدوا
لأخرجنّ من الدنيا وحبكم ... بين الجوانح لم يشعر به أحد
حسبي بأن تعلموا أن قد أحبكم ... قلبي وأن تسمعوا صوت الذي أجد

وحينا يذكر أنه سلا، لينصرف الناس عن التحدث بحبه رفقا بمحبوبته فيقول:

كذبت على نفسي فحدثت أنني ... سلوت لكيما ينكروا حين أصدق
ولا من قلى مني ولا عن ملالة ... ولكنني أبقي عليك وأشفِقُ
عطفت على أسراركم فكسوتها ... قميصا من الكتمان لا يتخرق

وقد يعتذر عن هجره فيقول:

الله يعلم ما أردت بهجركم ... إلا مصانعة العدو الكاشحِ
وعلمت أن تباعدي وتستري ... أدنى لوصلكِ من دنو فاضح

وأحلى من هذا قوله في تعيين الغرض من الصدود:

سأهجر إلفي وهجرانها ... إذا ما التقينا صدود الخدود
كلانا محب ولكننا ... ندافع عن حبنا بالصدود

وتأمل قوله «صدود الخدود» يريد بذلك أن كلا منهما يصدف بخده عن صاحبه، أما القلوب فهي في ائتلاف. وطورا يكتفي بحديث العيون، كقوله:

كلانا مظهر للناس بغضا ... وكلٌّ عند صاحبه مكينُ
تخبرنا العيون بما أردنا ... وفي القلبينِ ثم هوى دفين

وقد يسرّ الحزن، ويبدي السرور، مبالغة في التستر، كقوله:

عيون العائدات تراكِ دوني ... فيا حسدي لعيني من يراكِ

أريـــدك بـــالكلام فـــأتقيهم وأعمـــد بـــالكلام إلى ســـواك
وأكثـــر فـــيهم ضـــحكي ليخفـــى فـــسني ضـــاحك والقلـــب بـــاك

وقد أفصح عن ضرورة الكتمان بقوله:

سأســـتر والـــستر مـــن شـــيمتي هـــوى مـــن أَحـــب بمـــن لا أَحـــب
ولا بـــد مـــن كـــذب في الهـــوى إذا كـــان دفـــع الأذى بالكـــذب

وربما تمنى لو استطاع أن يكاتم قلبه الحب. فيقول:

إذا لم يكـــن للمـــرء بـــد مـــن الـــردى فـــأكرم أسـباب الـــردى سـبب الحـب
ولـــو أن خلقـــا كـــاتم الحـــب قلبـــه لمـــت ولم يعلـــم بحـــبكم قلبـــي
إذا قيـــل تقريـــك الـــسلام تماســـكت حشاشة قلبي وانجلت غمرة الكرب

وقد ييأس من كتم الحب فيقول:

أمـــا الهـــوى فهـــو شيء لا خفـــاء بـــه شـــتان بـــين ســـبيل الغـــيّ والرشـــد
إن المحبـــين قـــوم بـــين أعيـــنهم وسـمٌ مـن الحـب لا يخفى عـلى أحـد

وقد يبالغ بالكتمان حتى يضل الناس من أجل حبه في بيداء من الظنون، ليس لليل نهار، كما يقول:

قـد سـحب النـاس أذيـال الظنـون بنـا وفـــرّق النـــاس فينـــا قـــولهم فِرقـــا
فجاهـــلٌ قـــد رســـى بـــالظن غـــيركم وصـــادق لـــيس يـــدري أنـــه صـــدقا

وقد ذكروا أن العباس بن الأحنف مات هو وإبراهيم الموصلي والكسائي في يوم واحد. فرفع ذلك إلى الرشيد. فأمر المأمون أن يصلي عليهم. فصفوا بين يديه. ثم سأل عنهم واحدا واحدا وأمر بتقديم ابن الأحنف فصلى عليه. فلما فرغ وانصرف دنا منه هاشم بن عبد الله بن مالك الخزاعي فقال: يا سيدي كيف آثرت العباس بالتقدمة على من حضر؟ فأنشده المأمون هذين البيتين:

سـمّاكِ لي نـاس وقـالوا إنهـا ... لهـي التـي تـشقى بهـا وتكابـد
فجحـدتهم ليكـون غـيرك ظـنهم ... إني ليعجبنـي المحـب الجاحـدُ

ثم قال أتحفظها؟ فقال نعم. فقال: أليس من قال هذا الشعر أولى بالتقدمة فقال بلي يا سيدي! (١).

ومن جيد ما قيل في كتمان السر قول قيس بن ذُريح:

لو أن أمرا أخفى الهوى عن ضميره ... لمـت ولم يعلـم بـذاك ضـمير
ولكـن سـألقى الله والـنفس لم تـبح ... بـسرك والمـستخبرك كثـير

ومن الشعر الموجع في الكتمان قول جاهر بن عبد الحكيم الكلبي:

قـضى كـل ذي ديـن فـوفى غريمـه ... ودَينـك عنـد الزاهريـة مـا يُقـضى
أكـاتم في حبـي ظريفـة بـالتي ... إذا استبصر الواشون ظنوا به بغضا
صـدودا عـن الحـي الـذين أودهـم ... كـأني عـدو لا يـزور لهـم أرضـا
ولم يـدعُ باسـم الزاهريـة ذاكـرٌ ... عـلى آلـةٍ إلا ظللنـا لهـا مـرضى
ومـا نقـع الهـيمان بالـشرب بعـدهم ... ولا ذاقت العينان مذ فارقوا غمضا

وقد يتهم المرء بحب من لا يحب، فيتمنى لو تصدق التهمة، كما قال صاحب البدائع:

عجبـت لهـم أني رمـوني بحبهـا ... ولا مهجتـي رهـنٌ لـديها ولا قلبـي
فيـا رب صـدق في هواهـا عـواذلي ... فـإن عنـاء أن أَلام بـلا ذنـب
وإلا فـلا تقطـع عـليّ ملامهـم ... فـإن مـلام المـرء فاتحـة الحـب

(١) وضع صاحب البدائع كتابا خاصا سماه «صبابة ابن الأحنف» تناول فيه بالتفصيل حياة هذا الشاعر الوجدانية، ووازن بينه وبين ابن أبي ربيعة وأبي نواس.

طرفة أدبية

قال بعضهم لمحبوبته:

سري وسرّك لا يعلـــم بـــه أحـــد إلا الإله وإلا أنـــتِ ثـــم أنـــا

فقالت له لا تنس القوادة، فعندها الخبر اليقين!

* * *

قسوة التجني

أكثر الشعراء من شكوى الهجر والصدود. وأكثروا القول كذلك عن قسوة التجني، فمن ذلك قول ابن نُباتة السعدي:

يا دهر لا غفلات العيش عائدةٌ ... ولا الشباب الذي أبليته فيها
إن كنت تمتع سُعدى من مطالبها ... فلست تمنع سعدى من تمنيها
لله نغمة أوتارٍ ومسمعةٌ ... باتت تدل على شوقي أغانيها
وقهوةٌ كشعاع الشمس طالعة ... أفنيت بالمزج فيها ريق ساقيها
لو كنت أخضع في الدنيا لنائبة ... خضعت من هجرها أو من تجنيها
تستعذب الدمعَ عيني في محبتها ... كأن ما تمتريه العين من فيها

وما أجمل قول ابن الرومي:

يا عليلا جعل العلة مفتاحا لظلمي
ليس في الأرض عليلٌ غير جفنيك وجسمي

وقد كتبت الآنسة حياة فهمي كلمة عنوانها (لعن الله الحب) ونشرتها في الصباح: فأجابها الشاعر المبدع السيد حسن القاياتي بقوله:

تلوم حياةٌ على العاشقين ... رويدا ورفقا بنا يا حياتي
جهلت الغرام فلمت المحبّ ... هنيئا لعينيك في الناعسات

ثم نسأل صاحب البدائع عن رأيه في تجني هذه الفتاة. فأجابه بما نصه: «يرى سيدي الشاعر أن الآنسة حياة جهلت الحب، فلامت المحبين. ولو قال غير ذلك لأصاب شاكلة الصواب. لأن المرأة كالسياسي سواء بسواء. يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون. فإذا قال السياسي (لا)

فاعلم أنه يريد (نعم) وإذا قال (نعم) فاعلم أنه يريد (لا) وإذا قالت المرأة (لا أحب) فاعلم أنها (تحب) وإذا زعمت أنها (كارهة) فاعلم أنها (راضية) فإن كنت في ريب من ذلك يا صديقي الأديب فإني أذكرك بقولك من قصيدة نشرتها لك في جريدة الأفكار سنة ١٩١٩:

عهد السياسة كاذبٌ لله درك يا سجاح!

وقد قال (تاسو) أحد شعراء إيطاليا: إن المرأة تفر، وتود أن تلحق وهي فارة: وتأبى، وتود في إبائها أن تُسرق. وتناضل، وترغب أن يظفر بها في النضال!!

فقول الآنسة حياة «لست ممن تغلب الحب على قلوبهم» معناه إن الحب صيرها باكية العين، دامية الفؤاد! وقولها «الحب عدو لدود للإنسان، فيجب أن يُبعد عن القلوب» معناه أن الحب مادة الحياة. فيجب أن تزود به القلوب!

وقولها «تباعدوا عن الحب» معناه أقبلوا على الحب بسمعكم وبصركم، أيها الشباب!

هذا يا صديقي ما تريده الآنسة حياة فهمي! فهي حين تقول «لعن الله الحب» إنما تريد «حيا الله الحب» وأنت بما تريد عليم!

ولا يفوتني قبل ختام هذه الكلمة أن أوجه للآنسة حياة هذا السؤال:

إنك تأمرينا بأن لا نحب (سمعا وطاعة!) ولو أني سمعت هذه النصيحة قبل خمسة عشر عاما لنجوت من الحب. ولاسترحت الآن من تسطير مدامع العشاق، ولكني يا مولاتي لسوء الحظ قد أحببت، وقد ضُربت بمحبتي الأمثال، وأريد أن أسلم من الحب على يدك الطاهرة، جعل الله في يمناك

الشفاء، من كل داء، فهل لك أن تصفي لي طريق الخلاص من هذا الضلال القديم، ومن أسماء الحب الضلال؟

أنا في انتظار الجواب!

ملحوظة – أرجو أن تحترس الآنسة حياة، وهي تكتب أنواع العقاقير، من أن تنهاني عن التطلع إلى العيون، والخدود، والثغور، والنحور، والنهود، فإنه لا سبيل إلى مثل هذا المتاب!! وإنما أريد أن أسلو وأنا أعبث بأفنان الجمال، كما يُرد الشارب الكأس وهي تتوهج بين أنامل الساقي الجميل!!

وقد رد السيد حسن القاياتي على هذه الكلمة بخطاب شائق ولولا الرغبة في الإيجاز لأمتعنا به القارئ، ومن السهل الرجوع إليه في كتاب البدائع.

وقد حَسُن التجني في قول أحد الشعراء:

صـــدّ عنـــي محمـــد بـــن ســـعيدِ أجمـــل العـــالمين ثـــاني جِيـــدِ
لـــيس مـــن بغـــضةٍ يـــصد ولكـــن يتجنـــى لحـــسنه في الـــصدود

* * *

ظلم الحبيب

وفي الحب وحده يحلو الظلم حتى لتحكم عُلَيْة بنت المهدي بأن الحب بُني عليه. وتقول:

وُضع الحبُّ على الجَور فلو ... أنصف المعشوق فيه لم يُسُجْ
ليس يستحسن في شرع الهوى ... عاشقٌ يُحسن تأليف الحُجَج

وقال النميري:

راحتي في مقالة العُذّالِ ... وشفائي في قيلهم بعد قالِ
لا يطيب الهوى ولا يحسن ... الحب لصبٍ وهجرةٍ وتَقال

ويعلل بعضهم جمال الظلم في الحب بقوله:

لولا اطراد الصيد لم تكُ لذةٌ ... فتطاردي لي في الوصال قليلا
هذا الشراب أخو الحياة وما له ... من لذة حتى يصب غليلا

ومثله قول الآخر:

دع الصبّ يصلى بالأذى من حبيبه ... فإن الأذى ممن تُحب سرورُ
غبار قطيع الشاءِ في عين ذئبها ... إذا ما تلا آثارهنّ ذرور

وأنشد الأصمعي:

لا خير في الحب وقفا لا تحركه ... عوامل اليأس أو يقتاده الطمعُ
لو كان لي صبرها أو عندها جزعي ... لكنت أملك ما آتي وما أدع
إذا دعا باسمها داعٍ ليحزنني ... كادت له شعبةٌ من مهجتي تقع
لا أحمل اللوم فيها والغرام بها ... ما كلف الله نفسا فوق ما تسع

ومن جيد الشعر في ظلم الحبيب قول أبي حية النميري:

رمتني وسِتر الله بيني وبينها ... ونحن بأكناف الحجاز رميم
رميم التي قالت لجارات بيتها ... ضمنت لكم أن لا يزال يهيمُ
ألا ربَّ يومٍ لو رمتني رميتها ... ولكنّ عهدي بالنضال قديم
فيا عجبا من قاتلٍ لي أودُّه ... أشاط دمي شخص عليّ كريم
يرى الناس أني قد سلوت وأنني ... لمدنف أحشاء الضلوع سقيم

وهذا الشعر غاية في رقة المعنى وجزالة الألفاظ.

وما أجمل الرفق في قول ابن الرومي:

أصبحت مملوكا لأحسن مالك ... لو كان كمل حسنَه إسجاحه
لم يَعنهِ أرَقي وفيه لقيتهُ ... حتى أضرَّ بمقلتي إلحاحهُ
كلا ولا دمعي وفيه سفحته ... حتى أضر بوجنتي تَسفاحه
لا مسّه بعقوبةٍ من ربهِ ... إقلاقه قلبي ولا إتراحه
يا ليت شعري هل يبيتُ معانقي ... ويداي من دون الوشاح وشاحه
هل أنتَ مُنصف عاشقٍ متظلمٍ ... طول النحيب شكاته وصياحه
قَسما لقد خيمت منك بمنزلٍ ... ليَ حرفهُ ولمن سِوايَ بطاحهُ
ما بال ثغركَ مشرَبا لي سُكرُه ... ولمن سواي فدتك نفسي راحه
نفسي معذبةٌ به من دونه ... ويُباحه دوني ولست أباحُه

وأحب لو تأمل القارئ قول الشريف:

ولي ناظرٌ بعد بين الخليـ ... ـط مات من الدمع إنسانه
رواءٌ من الماء آماقُهُ ... ظِماءٌ من النوم أجفانه

فأين من الداء إفراقه [١] ... وأين من القلب سُلوانهُ
فيا ظالما طيبا ظلمُه ... كثيرا على القلب أعوانه
يباع بسومك حبُّ القلوب ... وتفلق عندك أثمانهُ [٢]
وشر الإساءة من مالكٍ ... أساء وما نيلَ إحسانه

وقال نُوَيب:

أيا ثارات من قتلته سعدي ... دمي لا تطلبوه لها حلالُ
أرقّ لها وأَشفق بعد قتلي ... على سُعدى وإن قل النوال
وما جادت لنا يوما ببذل ... يمينٌ من سعادَ ولا شمال

ونوَيب هذا هو الذي يقول:

ألا في سبيل الله نفسٌ تقسّمتْ ... شعاعا وقلب للحسان صديقُ
أفاقت قلوبٌ كن عذّبن بالهوى ... زمانا وقلبي ما أراه يُفيق
عصيت بك الناهين حتى لو أنني ... أموت لما أرعى عليّ شفيق

* * *

(١) أفرق من دائه أبرئ منه.
(٢) غلق الثمن: ضاع.

قساة القلوب

والعشاق يرمون أهل الحسن بقسوة القلب، وغلظ الكبد، ويحسب ابن الأحنف أن قلوب الحسان قُدَّت من الصخر. فيقول:

أظـــن ومـــا جربـــت مثلـــك إنـــما ... قلـــوب نـــساءِ العـــالمين صُـــخور
ذرينـــي أنـــم إن لم أنـــل منـــك زَورةً ... لعـــلّ خيـــالا في المنـــام يـــزور
بكيـــت إلى سِرب القطـــاحين مـــرّ بي ... فقلـــت ومـــثلي بالبكـــاء جـــديرُ
أسرب القطـا هـل مـن يعـير جناحـه ... لعـلي إلى مـن قـد هويـت أطـير

وقد نظر المرحوم إسماعيل باشا صبري إلى استعارة الجناح فقال:

يـا سرحـة بجـوار المـاء نـاضرةً ... سـقاكِ دمعـيَ إن لم يـوفِ سـاقيكِ
عـارٌ عليـك وهـذا الظـل منتـشرٌ ... فتـك الهجـير بمـثلي في نواحيـك
هـل مـنُ معـيري جنـاحَي طـائرٍ غـردٍ ... كـي أقطـع العمـر شـدوا في أعاليـك
فـلا أَنفّـر عـن أرض غُرسـتِ بهـا ... ولا يـرنَّ بـسمعي غـير واديـك

ومن المحبين من يصف قلب محبوبته بالطمأنينية والهدوء، في حين أن قلبه يتلظى على جمر الصدود. كما قال بشار [١]:

أيهـــا الـــساقيان صـــبا شرابي ... واســـقياني مـــن ريـــق بيـــضاء رودِ
إن دائـــي الـــصدى وإن دوائـــي ... شربـــةٌ مـــن رُضـــاب ثغـــرٍ بـــرودِ
ولهـــا مبـــسمٌ كغـــرّ الأقـــاحي ... وحـــديثٌ كـــالوشي وشي الـــبرودِ
نزلـــت في الـــسواد مـــن حبـــة القلـــ ... ـــب ونالـــت زيـــادة المـــستزيد

(١) في كتاب البدائع بحث شائق عن ظلم العواطف، فارجع إليه لترى ما صنع الدهر بشعر بشار.

ثـــم قالـــت نلقـــاك بعـــد ليـــالٍ والليـــالي يبلـــين كـــل جديـــد
عنـدها الـصبر عـن لقـايَ وعنـدي زفـــراتٌ يـــأكلن قلـــب الحديـــد

وما أظرف قول أبي نواس في معشوقته جنان:

جِنـــان تـــسبني ذكـــرتْ بخـــيرٍ وتـــزعم أننـــي رجـــل خبيـــث
وأن مـــــودتي كـــــذبٌ ومـــــينٌ وأني للـــــذي أهـــــوى بثـــــوثُ
ولـــــيس كـــــذا ولا ردّ عليهـــــا ولكـــــن الملـــــولَ هـــــو النكـــــوث
ولي قلـــــبٌ ينـــــازعني إليهـــــا وشـــوق بـــين أضـــلاعي حثيـــث
رأت كلفـــي بهـــا ودوام عهـــدي فملتنـــي كـــذا كـــان الحـــديث

وأبدع ما قيل في قسوة قلب الجميل قول خالد الكاتب:

ليـــت مـــا أصـــبح مِـــن رقـــة خـــدّيك بقلبـــك

ولقساة القلوب يقول صاحب البدائع:

لقـــد صـــددنا كـــما صـــددُتم فهـــل نـــدمتم كـــما نـــدمنا
وشـــفنا الوجـــدُ مُـــذ جفـــوتم فـــأظهر الـــدمع مـــا كتمنـــا
وهبـــت روحـــي وقلـــت عطفـــا فـــما عطفـــتم ومـــا رجعنـــا
ملكتموهـــا ومـــا وصـــلتم لقـــد غنمـــتم ومـــا غنِمنـــا
ومـــا ازددت خوفـــا عـــلى فـــؤادي إلا وزدتـــــم رضى وأمنـــــا
ومـــا رجـــائي وقـــد قـــويتم عـــلى جفـــائي وزدت وهنـــا
قتلـــت نفـــسي عـــلى جفـــاكم ومـــا قـــرعتم عـــليّ ســـنا
لهفـــي عـــلى الـــسالف المفـــدّى لـــو كـــان يجـــدي الفِـــدا لجُـــدنا
فـــما ذكرنـــا الـــذي تقـــضّى إلا عـــلى حـــسنه انتحبنـــا

❋ ❋ ❋

لـو كنـت أشـكو الهـوى لـصخر ... لحـنّ وجـدا وأنّ حُزنـا
وذاب مـن هـول مـا أراه ... فقـد برانـا الهـوى وذنبـا
إن كـان ذنـبٌ فـسامحونا ... ويـشهد الله مـا أسـأنا

وصاحب البدائع هو الذي يقول:

أيهـا الظـالمُ الجميـلُ سـلامٌ ... مـن أسـير قيدتْـه بجفاكـا
كيـف أصـليتني مـن الهجـر نـارا ... وحرمـت العيـون مـن أن تراكـا
ليـت مـن شـاء أن يطـول أسـانا ... في سـبيل الهـوى أطـال أسـاكا
سـوف أنجـو مـن الغـرام وأغـدو ... مُطلـق الـنفس مـن قيـود هواكـا
فاسـقني المـرّ مـن صـدودك واحكـم ... جـائر الحكـم في ظـلال صِـباكا

وقد حسب بعض الناقدين أن في هذا الشعر نذيرا بنقض العهد، وجحود الود، وليس الأمر كما يحسبون، وإنما هي صورة لحالة من حالات النفس، حين يثور الوجد، ويتمنى المحب ليأسه لو أفلت من إشراك هواه، وهيهات هيهات!

❊ ❊ ❊

سيف الفراق

نتكلم في هذا الحديث عن وصف الشعراء لفتك الفراق بالنفوس وقتله للقلوب، فمنهم من يذكر تعثره في الطريق، وضلاله عن القصد، بعد فراق من يحب، كما قال بعض الأعراب:

وما وجد مغلوبٍ بصنعاءَ موثقٍ ... بساقيْه من ثقل الحديد كُبولُ
ضعيف الموالي مُسلمٌ بجريرةٍ ... له بعد نومات العيون عويل
يقول له الجلاد أنت معذبٌ ... غداةَ غدٍ أو مُسلمٌ فقتيل
بأوجعَ مني لوعة يوم راعني ... فراق حبيبٍ ما إليه سبيل
غداةَ أسيرُ القصد ثم تردُّني ... عن القصد لوعات الهوى فأميل

وهذه القطعة من غرر الشعر، وهي آية في وصف الحيرة يرمي بها المحب المشوق، بعد فراق لا يُرجى أن يعقبه لقاء. وتأمل كيف شبه حاله بحال مغلوب كبّل بالحديد، في جريرة لا يغني في دفعها ضعف مواليه، وقد أصبح موضع النذير من الجلاد في كل صباح ومساء، وحسب الفراق أن يرمي المحب في مثل هذه الحال!

وأنشد الجاحظ:

أزف البين المبين ... قطع الشكّ اليقين
حنّت العيش فأبكا ... ني من العيش الحنينُ
لم أكن لا كنت أدري ... إن ذا البين يكون
علموني كيف أشتا ... قُ إذا خفّ القطين

وكان أستاذنا الشيخ سيد المرصفي يسخر ممن يقول:

وأنـــا بكيـــت مـــن الفـــرا ... ق فهـــل بكيـــت كـــما بكيـــت
ولطمـــت خـــدي خاليـــا ... ومرســـته حتـــى اشـــتفيت
وعـــواذلي ينهيننـــي ... عمـــن هويـــت فـــما انتهيـــت

وأنا أحسب أن البكاء ولطم الخدود أهون ما يجري بعد الفراق، ويا ويلتاه من الفراق!

وما أصدق من يقول:

أمُزمعـــةٌ لـــيلى ببـــينٍ ولم تَمُـــتْ ... كأنـــك عـــمّا قـــد أظلـــكَ غافـــلُ
ستعلم إن شطّت بهم غُربة النوى ... وزالـــوا بلـــيلى أن قلبـــك زائـــل

ومن المتيمين من يشجيه أن يقاسي أحبابه متاعب السفر، ومشاق السُّرى، ومصاعب الإدلاج. ثم يرجع إلى نفسه فيتوجع لحاله بعد الفراق. كقول أبي تمام:

لـو كـان في البـين إذ بـانوا لهـم دعـةٌ ... لكـان بيـنهم مـن أعظـم الـضررِ
فكيـف والبـين موصـولٌ بـه تعـبٌ ... تكلـف البيـد في الأدلاج والبُكـر
لـو أن مـا يبتليني الحادثـات بـه ... يكـون بالمـاء لم يُـشرب مـن الكـدَر
أو كـان بـالعيس مـا بي يـوم رحلـتهم ... أعيتْ على السائق الحادي فلم تسِر
كـأن أيـدي مطايـاهم إذا وخـدتْ ... يقعـن في حُـرّ وجهـي أو عـلى بـصري

وهذا شعر يُذيب لفائف القلوب ... وقال بعض المعذبين:

قـــد قلـــت والعـــبرات تـــسـ ... ـــفحها عـــلى الخـــد المـــآقي
حـــين انحـــدرت إلى الجزيـــ ... ـــرة وانقطعـــت عـــن العـــراقِ
يـــا بـــؤس مـــن ســـلّ الزمـــا ... ن عليـــه ســـيفا للفـــراق

إي والله:

يـــا بُـــؤسَ مـــن ســـلّ الزمـــا نُ عليـــــه ســـــيفا للفـــــراق

إنه لا محالة مقتول!

وقد يلوم المحب نفسه على فراق أحبابه، كالذي يقول:

أتظعـــن عـــن حبيبـــك ثـــم تبكـــي عليـــه فمـــن دعـــاك إلى الفـــراقِ
كأنـــك لم تـــذق للبـــين طعـــما فـــتعلم أنـــه مـــر المـــذاق
أقـــم وانعـــم بطـــول القـــرب منـــه ولا تظعـــن فتكبَـــت باشـــتياق
فـــما اعتـــاض المفـــارق مـــن حبيـــبٍ ولـــو يعطـــى الـــشآم مـــع العـــراق

ومثله من يقول:

تطـوي المراحـل عـن حبيبـك دائبـا وتظـــل تبكيـــه يـــدمع ســـاجمِ
كذبتك نفسك لست من أهل الهوى تـشكو الفـراق وأنـت عـين الظـالمِ
هـلا أقمـت ولـو عـلى جمـر الغـضى قُلِّبـــتَ أو حـــدّ الحُـــسام الـــصارم

وما أوجع ما قالته إحدى النساء:

وكنـا كغـصني بانـةٍ وسـطَ روضـةٍ نـشم شـذا الأزهـار في عيـشةِ رغـدِ
فـأفرد هـذا الغـصن مـن ذاك قـاطعٌ فيـــا فـــردة بانـــت تحـــنُّ إلى فَـــرد

ولهذين البيتين قصة محزنة يضيق عن ذكرها المجال.

❊ ❊ ❊

الهرب من الفراق

وإذا كان ما تقدم هو حال المحبين يوم الفراق، فليس ببدع أن يهرب البحتري من منظر الوداع، وأن يظرف حين يقول:

الله جـــــارك في انطلاقِـــــكْ تلقـــاء شـــامِكَ أو عِراقِـــكْ
لا تعـــــــذُلنِّي في مـــــــسيـ ـــــرك يـــومَ سِرتَ ولم أَلاقِـــك
إني خـــــــشيت مواقفـــــا للبـــين تـــسفح غـــربَ ماقِـــك
وعلمـــت مـــا يلقـــى المتيـــ ـــمُ عنـــد ضـــمّك واعتناقـــك
وعلمـــــــت أن لقاءنـــــا ســـبب اشـــتياقي واشـــتياقك
فتركـــــــت ذاك تعمّـــــــدا وخرجـــت أهـــرب مـــن فِراقـــك

وفي مقابل هذا المعنى يقول العباس بن الأحنف وقد حُرم توديع من يحب:

كفـــى حزنـــا أني بقيـــت ولـــيس لي ســـبيلٌ إلى تـــوديعكم فـــأودعُ
تلفـــتّ خلفـــي حيـــث لم تبـــق حيلـــةٌ وذوّدت عينـــي نظـــرةً وهـــي تـــدَمع

❊ ❊ ❊

غراب البين

أكثر العرب من ذكر الغرب، والتشاؤم من منظره، حتى ليقولون:

رأيت غرابا ساقطا فوق بانةٍ ... ينتِّفُ أعلى ريشه ويطايرُه
فقلت ولو أني أشاء زجرته ... بنفسي للنهدي هل أنت زاجرُه
فقال غرابٌ لاغترابٍ من النوى ... وفي البان بينٌ من حبيب تجاوره
فما أعيَف النهديّ لا درّ درُّه ... وأزجره للطير لا عزَّ ناصره

ومن الشعراء من استخف بهذه الخرافة، وسخر من المتطيرين ورأى أن الإبل هي التي تفرق الأحباب. كقول أبي الشيص:

ما فرّق الأحباب بعد الله إلا الإبلُ
والناس يلحون غرا ... ب البين لما جَهلوا
وما على ظهر غرا ... ب البينُ تُطوى الرحل
ولا إذا صاح غرا ... ب في الديار احتملوا
وما غراب البين إلا ... ناقةٌ أو جمل

ومنهم من لا يجيز ذم المطيّ، لأن لها صلة بمن يحب. كالذي يقول:

زعموا بأن مطيهم عون النوى ... والمؤذنات بفرقة الأحباب
ولو أنها حتفي لما أبغضتها ... ولها بهم سببٌ من الأسباب

* * *

فقد العزاء

وقد يعنف الهوى ويقسو، حتى يذهب بجميل الصبر، وحميد العزاء، فمن العشاق من يفقد اصطباره عند الوداع. كقول ابن نُباتة السعدي:

كيف العزاءُ وأين بابه ... والحيّ قد خفت ركابهْ
بأغر منتقبٍ ينم ... على محاسنِه نقابه
متأوّدٌ حُلو الشمائلِ ... من أساوره حِقابُه [1]
زعم المخبر أنه ... ضُربتْ على سلعٍ قبابه
فطلبتهُ كالأيم أو ... كالسيل في الليل انسيابه
فإذا أحمُّ المقلتين ... من يشين أنمله خضابه
يهتزُّ مثل السمهري ... تدافعت فيه كِعابُه
وقف الولائد دونه كالقلب ... يستره حجابُه
أقبلت أسأله وأعلم ... أن حرماني جوابه
ويلي على متلوّن الـ ... أخلاق يعجبُه شبابه
لا رُسلهُ تَترى إلينا ... بالسلام ولا كتابه

وأحب أن يتأمل القارئ هذه القصيدة البديعة، وأن يتنبه إلى دقة الوصف في جميع ما عرض الشاعر له. وعلى الأخص تلون الأخلاق، والزهو بالشباب، في أرباب الجمال!! وقال الشريف:

ورامين وهنا بالجمار وإنما ... رمَوا بين أحشاء المحبين بالجمر
رمَوا لا يبالون الحشا وترَوّحوا ... خليين والرامي يصيبُ ولا يدري

(١) الحقاب ما تشده المرأة في وسطها وتعلق به الحلى.

وقالوا غدا ميعادنا النفْر عن مِنى ... وما سرني أن اللقاء مع النفرِ
ويا بؤس للقرب الذي لا نذوُقه ... سوى ساعةٍ ثم البعاد مدى الدهر
فيا صاحبي إن تُعطَ صبرا فإنني ... نزعتُ يديّ اليوم من طاعة الصبر
وإن كنت لم تدر البكا قبل هذه ... فميعاد دمع العين مُنقلبُ السِّفرِ

وقد يستولي الحزن على القلب، ويتغلغل في سويدائه، حتى ييأس المحب من صلاحية فؤاده للسرور، لو رجعت أسبابه، كما قال بعض الشعراء:

كم استراح إلى صبرٍ فلم يُرَحِ ... صبّ إليكم من الأشواق في تَرحِ
تركتمُ قلبهُ من حزن فرقتكم ... لو يرزق الوصل لم يقدر على الفرَح

وقال خالد الكاتب يفضل اللوعة على العزاء:

عاتبت نفسي في هوا ... كَ فلم أجدها تقبل
وأطعت داعيها إلي ... ك فلم أطعْ من يعذل
لا والذي جعل الوجو ... هَ لحسن وجهك تمثلُ
لا قلتُ إن الصبر عن ... ك من التصابي أجمل

وقال إسحاق الموصلي في ذهاب الوداع بالصبر الجميل:

تقضّتْ لبناتٌ وجدّ رحيلُ ... ولم يُشفَ من أهل الصفاء غليل
ومُدّت أكفّ للوداع فصافحت ... وفاضت عيونٌ للفراق تسيل
ولابدّ للألاف من فيض عبرةٍ ... إذا ما خليلٌ بان عنهُ خليلُ
فكم من دمٍ قد طُلّ يوم تحمّلت ... أوانسُ لا يودَى لهنّ قتيلُ
غداة جعلت الصبر شيئا نسيتهُ ... وأعولتُ لو أجدى عليّ عويلُ
ولم أنس منها نظرةً هاج لي بها ... هوى منه باد ظاهرٌ ودخيل
كما نظرت حوراءٌ في ظل سِدرةٍ ... دعاها إلى ظل الكِناس مقيل

وابن زيدون يجعل صبره عن حبيبه كصبر الظماء عن الماء، فيقول:

إليـك مـن الأنـام غـدا ارتيـاحي ... وأنـت مـن الزمـان مـدى اقتراحـي
ومـا اعترضـت همـوم الـنفس إلا ... ومـن ذكـراك ريحـاني وراحـي
فـديتك إن صـبري عنـك صـبري ... لـدى عَطـشي عـن المـاء القَـراحِ
ولي أمـلٌ لـو الواشـون كفّـوا ... لأطلـع غرسـهُ ثمـر النجـاح
وأعجـبُ كيـف يغلبنـي عـدوّ ... رضـاك عليـه مـن أمـضى سـلاحي
فـؤادي مـن أسـى بـكَ غـير خـالٍ ... وقلبـي مـن هـوى لـك غـير صـاحي
فلـو أسـتطيع طـرت إليـك شـوقا ... وكيـف يطـير مقـصوص الجنـاح

ويأسي ابن الدمينة على أن لم يُغنه القرب ولم يسله البعد، فيقول:

وقـد زعمـوا أن المحـب إذا دنـا ... يمـلّ وإن النـأي يـشفي مـن الوجـدِ
بكـل تـداوينا فلـم يـشف مـا بنـا ... عـلى ذاك قـرب الـدار خـير مـن البعـد
عـلى أن قـرب الـدار لـيس بنـافعٍ ... إذا كـان مـن تهـواه لـيس بـذي عهـدِ

وأوجع الشعر في فقد العزاء قول بعض الأعراب:

فيـا ربّ إن أهلـك ولم تـرو هـامتي ... بليلى أمـتْ لا قـبر أعطـشُ مـن قـبري
وإن أكُ عـن لـيلي سـلوت فـإنما ... تسليت عـن يـأس ولم أسْـل عـن صـبر
وإن يـكُ عـن لـيلى غنـى وتجلـد ... فـرب غنـي نفـس قريـب مـن الفقـر

* * *

بكاء الشباب

ولعل أشجى ما يمر بخاطر المرء أن يهجره الغيد بعد انصرام الشباب، والشباب هو شفيع الفتى إلى قلوب الحسان، فإذا مضى فقد أصبح بلا شفيع، والويل للمفرد المغلوب!

من أجل ذلك تفنن الشعراء، في بكاء الشباب، والتنكر للمشيب. فمنهم من تبيض في رأسه شعرة واحدة، فلا يراها قليلة، لأن قذى العين غير قليل، كما قال ابن الرومي:

طرفت عيون الغانيات وربما ... أمالت إليّ الطرف كل مميلِ
وما شبت إلا شيبة غير أنه ... قليل قذاة العين غير قليل

وابن الرومي يكثر البكاء على شبابه، ويعلل نفسه أحيانا بأن الشيب في الرأس كالنور على الغصن. ويأسى كثيرا لاحتياجه إلى الخضاب، الذي يراه أشبه بسواد الحداد، ويكاد يصرخ من خروجه إلى الحسان في شعر ميت، وقلب حي، والمحب يتفجر قلبه دائما بالحياة! وانظر كيف يقول:

شاب رأسي ولات حين مشيب ... وعجيب الزمان غير عجيب
قد يشيب الفتى وليس عجيبا ... أن يُرى النورُ في القضيب الرطيب
ساءها أن رأت حبيبا إليها ... ضاحك الرأس عن مفارق شيب
يا حليف الخضاب لا تخدع النفـ ... ـس فيما أنت للصبى بنسيبِ
ليس يُجدي الخضاب شيئا من النفـ ... ـعِ سوى أنه حدادُ كئيب

لهفَ نفسي على القناع الذي مَحّ ... وأعقِبتُ منه شرّ عقيب [١]
منع العين أن تقرّ وقرّت ... عين واشٍ بنا وعين رقيب
شَعَرٌ ميّتٌ لذي وطرٍ حيٍ ... كنار الحريق ذات اللهيبِ
ظلمتني الخطوب حتى كأني ... ليس بيني وبينها من حسيبِ

وما أروع قوله في السُّخر من الخضاب:

رأيت خِضاب المرء عند مشيبه ... حدادا على شرخ الشبيبة يُلبَسُ
وإلا فما يغزو امرؤ بخضابه ... أيطمع أن يخفى شبابٌ مُدّلسُ
وكيف بأن يخفى المشيب لخاضبٍ ... وكل ثلاثٍ صبحهُ يتنفسُ
وهبهُ يواري شيبهُ أين ماؤهُ ... وأين أديمٌ للشبيبة أمْلسُ

وقال أشجع السلمي يوصي بانتهاب اللذات، قبل أن يقف في سبيلها الهرم والمشيب:

وما لي لا أعطي الشباب نصيبه ... وغصناه يهتزان في عوده الرطبِ
رأيت الليالي ينتهبن شبيبتي ... فأسرعت باللذات في ذلك النهب
رأيت بنات الدهر يخلِسن لذتي ... لقد حزن سلمى وانتهين إلى حربي
وقد حوّلت حالي الليالي وأسرجت ... على الرأس أمثال الفتيل من العطبِ
وموت الفتى خيرٌ له من حياته ... إذا كان ذا حالين يصبو ولا يُصبي

وقال آخر في صدوف للنساء عن صَرعى المشيبِ:

هل الأدم كالآرام والدهر كالدُّمى ... مُعاودتي أيامهنّ الصوالحُ
زمانَ سلاحي بينهن شبيبتي ... لها سائقٌ من حسنهن ورامح
وأقسمن لا يسقينني قطر مُذنةٍ ... لشيبي ولو سالت بهن الأباطح

(١) مح القناع بلى. والعقيب البديل.

وكان أستاذنا المرحوم فقيد اللغة والأدب الشيخ محمد المهدي بك كثير الإعجاب بقول أبي منصور النميري في الجزع على شبابه المفقود:

ما تنقضي حسرةٌ مني ولا جزعُ ... إذا ذكرت شبابا ليس يرتجعُ
بان الشباب ونابتني بفرقته ... خُطوب دهرٍ وأيام لها خِدَع
ما كنت أوفي شبابي كنه قيمته ... حتى انقضى فإذا الدنيا له تبَع
تعجبت أن رأت أسراب دمعتهِ ... في حلبة الخد أجراها حشا وجِع
أصبحت لم تطعمي ثكل الشباب ولم ... تشجي بغصتهِ والعذر لا يقع
لا ألحينّ فتاتي غير كاذبةٍ ... عينَ الكذوب فما في ودكم طمعُ
ما بالشبيبة من وانٍ وإن رفعت ... إلا لها نبوةٌ عنه ومرتدعُ
إني لمعترفٌ ما فيّ من أربٍ ... عند الحسان فما في النفس منخدع
قد كدت تقضي على فوت الشباب ... لولا أعزيك إن الأمر منقطع

ويذكرون أن الرشيد سمع هذا الشعر، وبكى له، وأنشد:

أتأمل رجعة الدنيا سِفاها ... وقد صار الشباب إلى ذهابِ
فليت الباكيات بكل أرضٍ ... جُمعنَ لنا فنحن على الشبابِ

ومن التعليل الكاذب قول البحتري في مدح المشيب:

عذلتنا في عشقها أم عمروٍ ... هل سمعتم بالعاذل المعشوق
ورأت لمةً ألمّ بها الشيب ... فريعت من ظلمة في شروقِ
ولعمري لولا الأقاحي لأبصرتَ ... أنيق الرياض غير أنيق
وسواد العيون لو لم يجاورْهُ ... بياضٌ ما كان بالموموق
ومزاج الصهباء بالماء أملى ... بصبوح مُستَحسنٍ وغبوق
أيُّ ليلٍ يَبهى بغير نجومٍ ... أو سحاب يَندى بغير بروق

لكن ماذا يصنع الأشيب، إن لم يغالط الحسان بهذه المعاذير؟!

بلايا الغيرة

نذكر هنا ما جرى في سبيل الغيرة من الدموع. ونتقدم ذلك بقول بعض الأندلسيين وقد قبّل من يهواه:

يـــا ربّ إن قدّرتـــه لمقبّـــلِ غـــيري فللمـــسواك أو للأكـــؤسِ
وإذا قـــضيت لنـــا بـــصحبة ثالـــثٍ يـــا رب فليـــكُ شـــمعة في المجلـــس
وإذا حكمـــت لنـــا بعـــين مراقـــبٍ يـــا رب فليـــكُ مـــن عيـــون النـــرجس

ألست ترى الرعب وقد استولى على هذا الشاعر من أن ينعم بحبيبه سواهن فجعل يتمنى، لو تنفع الأماني، أن لا يراقبهم غير النرجس، وأن لا يصحبهم غير الشمعة، وأن لا يقبّل محبوبه غير الكأس أو المسواك؟!

وقد جُن العرب بالغيرة جنونا: فتخيلوا غسان بن جهضم ينشد زوجه من عالم الأرواح، وقد زُفت إلى غيره بعد موته بقليل:

غـــدرتِ ولم ترعَـــي لبعلـــك حُرمـــةٌ ولم تعـــرفي حقـــا ولم تحفظـــي عهـــدا
ولم تـــصبري حـــولا حفاظـــا لـــصاحب حلفـــتِ لـــه يومـــا ولم تنجـــزي وعـــدا
غـــدرت بـــه لمـــا ثـــوى في ضريحـــه كـــذلك ينسى كـــل مـــن سكن اللحـــدا

وتخيل رواة العرب أن موسى الهادي جاء إلى جاريته (غادر) وقد أقبلت من بعده على أخيه هارون فأنشدها وهي نائمة هذه الأبيات:

أخلفـــــتِ عهـــــدي بعـــــدما جـــــاورتُ ســـــكان المقـــــابر
ونكحـــــتِ غـــــادرةً أخـــــي صـــــدق الـــــذي ســـــماك غـــــادر
لا يَهنِـــــكِ الإلـــــف الجديـــــ ـــــدُ ولا تـــــتم عنـــــك الـــــدوائر
ولحقـــــت بي قبـــــل الـــــصبا ح وصرت حيـــث غـــدوت صـــائر

وبعد هذا التمهيد يستطيع القارئ أن يدرك لم حملت الغيرة عبد السلام بن رغبان على قتل غلامه وجاريته!! وحديث هذا الشاعر عجيب: فقد ذكروا أنه اشترى غلاما وجارية، ثم شغفاه حبا، فكان يجلس للشراب والجارية عن يمينه والغلام عن شماله!! ثم خشي أن يموت قبلهما فينعم غيره بما لهما من روعة وجمال: فذبحهما وأحرقهما وصنع من ترابهما آنيتين للشراب!!

وكان ينشد حين يشرب من الآنية التي صنعها من تراب الغلام هذه القطعة الباكية:

أشفقتُ أن يردَ الزمان بغدره ... أو أَبتلى بعد الوصال بهجره
قمرٌ قد استخرجته من دَجنهِ ... لبليتي وأثرتهُ من خِدرهِ
فقتلته وله عليّ كرامةٌ ... فله الحشا وله الفؤاد بأسره
عهدي به ميتا كأحسن نائمٍ ... والحزن يسفح مدمعي في نحره
لو كان يدري الميت ماذا بعدهُ ... بالحي منهُ بكى له في قبره
غُصصٌ تكاد تفيض منها نفسه ... ويكاد يخرج قلبه من صدره

ثم ينشد حين يشرب من الآنية التي صنعها من تراب الجارية هذه القطعة التي يندر أن نجد أحر منها في الرثاء:

يا طلعة طلع الحمام عليها ... فجنى لها ثَمر الردى بيديها
حكمت سيفي في مجال خِناقها ... ومدامعي تجري على خدّيها
رويت من دمها الثرى ولطالما ... روى الهوى شفتي من شفتيها
فوحق نعليها وما وطئ الثرى ... شيءٌ أعزّ عليّ من نعليها
ما كان قتليها لأني لم أكن ... أبكي إذا سقط الذباب عليها
لكن بخلت على الوجود بحسنها ... وأنِفْت من نظر العيون إليها

ولعل الظلم لم يرزق حجةً أقوى من هذه الحجة، ولا برهانا أسطع من هذا البرهان!! وكانت السيدة سكينة تعيب على جرير قوله:

طرقتكَ صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فاراجعي بسلام

وكانت تقول: قاتله الله ما أقساه: هلا قال: ادخلي بسلام!

فلو سمعت السيدة سكينة بهذا المحب السفاح لطال بكاؤها على صرعى الغيرة، وقتلى الإشفاق!! ولئن كان الجنون فنونا كما يقولون، فهذا ورب الكعبة أغرب فنون الجنون! وكنا نود لو حدثنا التاريخ عن أثر هذه الأعجوبة في أنفس من عاصروا ابن رغبان لنعرف رأيهم في الجناية على الجمال! ألم يكفهم أن الحسن حال تحول، ودولة تدول، حتى تسوق غيرتهم إليه الفناء؟ وبعد فقد سمي عبد السلام بن رغبان هذا «ديك الجن» وأنه في فعلته هذه لشيطان مريد!!

هذا، ومن الشعراء من يغار من عود البَشام حين يَستاك به الحبيب، ومن العقد يطوِّق به الجيد، ومن النقاب يحجب به الوجه الجميل، كما قال الشريف:

يا غزال الجزع لو كا نَ على الجزعِ لِمام
أحسد الطوق على جِيـ ـدِكَ والطوق لِزامُ
وأعضُّ الكفّ إن نا لَ ثنايا ك البَشام
وأغار اليومَ إن مرّ على فيك اللثام

ومنهم من يغار من قميص حبيبه، كما قال خالد الكاتب:

محبكَ شفّهُ ألمه وخاصَر جسمَهُ سقَمهْ
وباح بما يُجمجمُه من الأسرار مكتَتَمُه
أما ترثي لمكتئبٍ يحبك لحمه ودُمه

يغـــار عـــلى قمـــيص حيـــ ـــــن تلبـــــسهُ ويتهمـــــه

وكما قال بعض الأعراب:

أرى القمـيص عـلى لـيلى فأحـسده إن القمـيص عـلى مـا ضـمّ محـسود

ومنهم من يغار على اسم محبوبه، فيكني عنه، لئلا تتمتع به الآذان، كما قال البها زهير:

وأَنـــزه اســـمك أن تمـــر حروُفـــه مـــن غـــيرتي بمـــسامع الجُـــلاسِ
فـأقول بعـض النـاس عنـك كنايـة خـوف الوُشـاةِ وأنـت كـل النـاس

وقد يغادر المحب على حبيبه من نفسه، كما قال أبو تمام:

بنفـــسي مـــن أغـــار عليـــه منـــي وتحـــسد مقلتـــي نظـــري إليـــه
ولـــو أني قـــدرت طمـــست عنـــه عيـــون النـــاس مـــن حـــذري عليـــه
حبيـــبٌ بـــثّ في قلبـــي هـــواهُ وأمـــسك مهجتـــي رهنـــا لديـــه
فروحـــي عنـــدهُ والجـــسم خـــالٍ بـــلا روحٍ وقلبـــي في يدَيـــهِ

* * *

الاستعطاف

نذكر هنا حيل العشاق في لفت أنظار الأحباب إليهم، وتوجيه أفكارهم نحوهم، حتى ينالوا طلبتهم من القرب، وبغيتهم من الوصل، ولذلك حالات: فمن العشاق من يقبح لحبيبه المطل والخلف، حتى يبرّ بوعده، ويفي بعهده. كقول ابن الأحنف:

كأن لم يكن بيني وبينكم هوى ... ولم يك موصولا بحبلكم حبلي
وإني لأستحيي لكم من محدّثٍ ... يحدث عنكم بالملالة والمطلِ

وكقول الطغرائي:

ويا جيرتي بالجزع جسمي بعدكم ... نحيلٌ وطرفي بالسهاد كليلُ
عهدت بكم غصن الشبيبة مورقا ... فخان وخنتم والوفاء قليل
وأودعتكم قلبي فلما طلبته ... مطلتم وشر الغارمين مطول
فإن عدتمُ يوما تريدون مهجتي ... تمنّعت إلا أن يقام كفيل

ومن المتيمين من يُحرم كل شيء حتى الوعد فتراه لا يطلب الوفاء ولا يقبّح الإخلاف، وإنما يرجو وعدا يجلو به كربة قلبه، ويطفئ به نار جواه، لو تغني الوعود!

وما أزال ألمح في عالم الخيال مجنون بني عامر، وقد صادف في توحشه حي ليلى ولقيها فجأة فعرفها وعرفته، فصعق وخر مغشيا عليه، وأقبل فتيان من حي ليلى فأخذوه، ومسحوا التراب عن وجهه وأسندوه إلى صدورهم، وسألوا أن تقف له وقفة! فرقت لما رأته وقالت أما هذا فلا يجوز أن أفتضح به ثم قالت

لجاريتها: اذهبي إلى قيس فقولي له: ليلى تقرأ عليك السلام، وتقول لك أعزز علي بما أنت فيه! ولو وجدت سبيلا إلى شفاء دائك لوقيتك بنفسي!

فمضت الوليدة إليه وأخبرته بقولها فأفاق وجلس، وقال: أبلغيها السلام، وقولي لها هيهات هيهات! إن دائي ودوائي أنت، وإن حياتي ووفاتي لفي يديك، ولقد وكلت بي شقاءً لازما وبلاءً طويلا، ثم بكى، وأنشأ يقول:

أقول لأصحابي هي الشمس ضوءها ... قريبٌ ولكن في تناولها بُعدُ
لقد عارضتنا الريح منها بنفحةٍ ... على كبدي من طيب أرواحها برد
فما زلت مغشيا عليّ وقد مضت ... أناةٌ وما عندي جواب ولا ردّ
أقلب بالأيدي وأهلي بودهم ... يُفدُّونني لو يستطيعون أن يَفدوا
ولم يبق إلا الجلد والعظم عاريا ... ولا عظم لي إن دام ما بي ولا جلد
أدُنياي ما لي في انقطاعي ورغبتي ... إليك ثوابٌ منك دَينٌ ولا نقد
عِديني بنفسي أنت وعدا فربما ... جلا كربة المكروب عن قلبه الوعد
غزتني جنود الحب من كل جانب ... إذا حان من جُند قفول أتى جند

والبيت الأخير أعجوبة من أعاجيب الخيال، فما زال المحبون صرعى مساكين، إن قفلت عنهم جنود الخدود، غزتهم جنود العيون ويرحم الله من تألبت عليه جنود الحب جميعا حتى ذهبت بلبهن ولم يبق إلا أن تنكسر النصال على النصال!

وقد يستعطف المتيم المحزون ولكنه لا يطلب وعدا يطارد به جيوش الأحزان، ولا يرجو الوفاء بوعد كأن يهتدي به في ظلمات الشجون، وإنما يُلمّح وقد يكون التلميح أبلغ من التصريح. فيذكر أن الحسن يحدق به من كل جانب، ولكنه لا يصبو ولا يميل لأنه بمن يحب مشغول. وانظر قول الأبيوردي في هذا المعنى البديع:

وقتلكِ الردى بيضٌ حسانٌ وجوهها ... ومثريةٌ من نضرة وجمال
طلعن بدورا في دجى من ذوائب ... ومِسْن غصونا في متون رمالِ
أرى نظرات الصب يعثرن دونها ... بأعراف جُودٍ أو رءوس عوال
عرضن عليّ الوصل والقلب كله ... لديك فأنى يبتغين وصالي
ولولاك ما بعت العراق وأهله ... بوادي الحمى والمنديّ بضال
فما لنساء الحيّ يضمرن غيرةً ... سبتها العوالي ما لهن وما لي
ولو خالفتني في متابعة الهوى ... يميني ما واصلتها بشمالي
وفيكِ صدودٌ من دلالٍ أظنه ... على ما حكى الواشي صدود ملال

وقد يتمنى المحب أن يمرض ليعوده الحبيب. وإليك قول ابن الخياط:

أحنّ إلى سقمي لعلك عائدي ... ومن كلفٍ أني أحنّ إلى السقم
وحتامَ أستشفي من الداء ما به ... سقام وأستروي من الدمع ما يظمي
فراقٌ أتى في إثرِ هجرٍ وما أذى ... بأوجعَ من كلم أصاب على كلمِ

مسكين هذا المحب، يتمنى المرض ليعاد، فهل يعلم أن من المحبين من أشقاه المرض. فلم يسعده العُوّاد. وهل أتاه حديث ابن الأحنف وقد لجّ به المرض فأخذ يهذي بهذا الشعر الباكي الحزين:

أهابكِ أن أشكو إليك وليس لي ... يدٌ بالذي ألقى وأخفي من الوجد
وإني لصادي الجوف والماء حاضرٌ ... أراه ولكن لا سبيل إلى الوِرْدِ
وما كنت أخشى أن تكون منيتي ... بكف أخص الناس كلهم عندي

وهل وصلت إليه تلك الوصية البديعة التي بعث بها ابن الأحنف إلى حُجاج البيت الحرام وقد توقع أن يمروا بدار هواه؟

انظر إلى ذلك العليل، وقد خفي الداء، وتعذر الشفاء، وكلما عُصر الماء في فيه مجه، كما يفعل الطفل الغرير، وقد ذهبت العلة بجمال نظراته، وسحر

بسماته، وإ نودي لم يجب بغير الأنين، انظر إليه وقد تمنى جرعةُ مُزجتْ بريق حبيبته يحملها إليه الحجاج في زجاجة! ولو أمكن أن تنقل إليه النظرة، لرجاهم أن يحملوا إليه نظرة، ولو خلق الفنوغراف في ذلك الحين لرجاهم أن ينقلوا إليه نغمة من نغماتها العِذاب! ولو مهر المصورون إذ ذاك لكلفهم أن يصوروا مِشيتها الفتانة في الضحى والأصيل! انظر إليه وهو يرجوهم أن يتعللوا عند أهله فيذكروا أن تلك الجرعة العذبة إنما هي من ماء زمزم! ويحك، وأين ماء زمزم الملح الأجاج، من ماء ذلك الثغر العذب الفرات؟ انظر إليه وقد أوصاهم أن يرشوا ريق من يهوى على وجهه، فإن صادفوه ميتا فيرشوه على قبره! انظر كيف يقول:

أزوّارَ بيت الله مُروا بيثرب ... لحاجة متبول الفؤاد كئيب
وقولوا لهم يا أهل يثرب أسعدوا ... على جلب للحادثات جليبِ
فإنا تركنا بالعراق أخا هوى ... تنشب رهنا في حبال شعُوبِ
به سَقمٌ أعيا المداوين علمه ... سوى ظنهم من مخطئ ومصيب
إذا ما عصرنا الماء في فيه مجه ... وإن نحن نادينا فغير مجيب
خذوا إليّ منها جرعة في زجاجة ... ألا إنها لو تعلمون طبيبي
وسيروا فإن أدركتم بي حُشاشة ... لها في نواحي الصدر وجس دبيب
فرشّوا على وجهي أفِق من بليتي ... يثيبكم ذو العرش خير مثيب
فإن قال أهلي ما الذي جئتم به ... وقد يحسن التعليل كل أريب
فقولوا لهم جئناه من ماء زمزم ... لنشفيه من دائه بذَنوب
وإن أنتم جئتم وقد حيل بينكم ... وبيني بيومٍ للمنون عصيب
وصرت من الدنيا إلى قعر حفرةٍ ... حليفَ صفيحٍ مطبق وكثيب
فرشوا على قبري من الماء واندبوا ... قتيل كعَاب لا قتيل حروب

وكان ابن الأحنف هذا يستعطف فلا يرجو شيئا، ولا يخاف شيئا، وكل مناه أن يعلم فاتنوه أنه يحبهم، وأن يسمعوا صوت ما يجد، وأنه لمطلب زهيد، ولكنه قد يصبح صعب المنال، وانظر هذه الأبيات التي يندر أن نجد مثلها في تصوير المحب وقد خلاه من أذكوا نار جواه، وتركوه يتلوى ويتململ، فوق جمر الهوى وجمر الصدود:

أبكي الذين أذاقوني مودتهم ... حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمت منتصبا ... بثقل ما حملوني في الهوى قعدوا
جاروا علي ولم يوفوا بعهدهم ... قد كنت أحسبهم يوفون أن وعدوا
لأخرجنّ من الدنيا وحبكم ... بين الجوانح لم يشعر به أحد
حسبي بأن تعلموا أن قد أحبكم ... قلبي وأن تسمعوا صوت الذي أجد

* * *

ومن حسن الإشارة قول إبراهيم بن المهدي:

يا غزالا لي إليهِ ... شافعٌ من مُقلتيه
والذي أجللتُ خديـ ... ـه فقبّلت يديهِ
بأبي وجهك ما أكـ ... ـثر حُسّادي عليه
أنا ضيفٌ وجزاء الضيـ ... ـف إحسانٌ إليه

والإحسان الذي يرجوه هذا الشاعر يذكرنا بقول بعض الأعراب:

آل ليلى إن ضيفكم ... واجد بالحي مذ نزلا
أمكنوه من ثنيتها ... لم يُرد خمرا ولا عسلا

ومن جميل الاستعطاف قول ابن زيدون:

يا هلالا تتراءا ... هُ نفوسٌ لا عيونُ

عجبـــــا للقلـــــب يقـــــسو ... منـــــك والعِطـــــفُ يلـــــين
مـــــا الـــــذي ضرك لـــــو سُر ... بمـــــرآكَ الحـــــزين
وتلطّفـــــت بـــــصبٍ ... حينـــــهُ فيـــــك يحـــــين
فوجـــــوه اللطـــــف شـــــتى ... والمعـــــاذير فنـــــونُ

وما أوجع الأسى في قول ابن هانئ:

يـا بنـت ذي الـبُرد الطويـل نجـادُه ... أكـــذا يجـــور الحكـــم في ناديـــك
عينـــاكِ أم مغنـــاكِ موعـــدنا وفي ... وادي الكـــرى ألقـــاك أم واديـــك
منعـوك مـن سِنة الكـرى وسروا فلـو ... عثـــروا بطيـــفٍ طـــارقٍ ظنـــوك
ودعَـوكِ نـشوى مـا سـقوكِ مُدامـةٌ ... لمـــا تمايـــل عطفـــك اتهمـــوك
حـسبوا التكحّـل في جفونـك حِليـةً ... تـــالله مـــا بـــأكفهم كحلـــوا
وجلـــوكِ لي إذ نحـــن غُـــصنا بانـــةٍ ... حتـــى إذا احتفـــل الهـــوى حجبـــوا

ويندر أن تجد بين الأدباء من لا يحفظ قول ابن الطثرية:

عُقيليـــةٌ أمـــا مـــلاثُ إزارهـــا ... فَـــدِعصٌ وأمـــا خـــصرها فبتيـــل
تقـــيظ أكنـــاف الحمـــى ويظلهـــا ... بـــنعمان مـــن وادي الأراك مَقيـــل
ألـــيس قلـــيلا نظـــرةٌ أن نظرتهـــا ... إليـــك وكـــلا لـــيس منـــكِ قليـــل
فيـا خُلـة الـنفس التـي لـيس دونهـا ... لنـــا مـــن إخـــلاء الـــصفاء خليـــل
ويـــا مـــن كتمنـــا حبـــه لم يُطـــع بـــه ... عـــدو ولم يـــؤمن عليـــه دخيـــل
أمـا مـن مقـامٍ أشـتكي غربـة النـوى ... وخـــوف العـــدا فيـــه إليـــكِ سـبيلُ
فـــؤادي أســـيرٌ لا يُفـــكّ ومهجتـــي ... تفـــيض وأحـــزاني عليـــك تطـــول
ولي مقلـــةٌ قَرحـــى لطـــول اشـــتياقها ... إليـــك وأجفـــاني عليـــك هُمـــول
فـــديتك أعـــدائي كثـــيرٌ وشُـــقتي ... بعيـــدٌ وأشـــياعي لـــديك قليـــل
وكنـــت إذا مـــا جئـــت جئـــت بعلـــة ... فأفنيـــت عِـــلاتي فكيـــف أقـــول
فـــما كـــلّ يـــومٍ لي بأرضـــك حاجـــةٌ ... ولا كـــل يـــوم لي إليـــك رســـول

صحائفُ عندي للعتاب طويتها ستُنشرُ يوما والعتاب طويل
فلا تحملي ذنبي وأنت ضعيفةٌ فحمل دمي يوم الحساب ثقيل

ولنختم هذا الباب بقول صاحب البدائع:

أجبني إن تفضلت على المسكين بالردّ
أأنسى الدهر ما جادت به عيناكَ من وَعد؟
وارسم للمنى حدا وما لجوايَ من حدّ؟
وأقنع بالرّدى وردا وغيري سائغ الوردِ؟
وأرضى باللظى مثوى ووجهك جنةُ الخلدِ؟

* * *

وفيًّا حافظا أشقى ليسعد ناقض العهد
وصبًا والها أفنى ليبقى جاحد الوُدّ
فيا ويلاه من حب حملتُ بلاءَه وحدي!
أَعدّ لحمله جُهدي فيصعَق بطشهُ جهدي

* * *

الحنين

هل أتاك حديث الصمة بن عبد الله وقد خطب ابنة عمه، وكان لها محبا، فاشتط عليه عمه في المهر، فاستعان بأبيه وكان مثريا فلم يعنهن فأم عشيرته فأسعفوهن ثم ساق الإبل إلى عمه، فقال لا أقبل هذه في مهر ابنتي، فسل أباك أن يبدلها لك. فسأل أباه ذلك فأبى عليهن فلما رأى ضنّ أبيه وإباء عمه قطع عقلها وخلاها فعاد كل بعير إلى أهله ... ويروى أن أباه أعطاه تسعة وتسعين بعيرا فأبى عمه إلا مائة وحلف أبوه لا يكملها. فقال الصمة: والله ما رأيت ألأم منكما، وإني لألأم منكما جميعا أن أقمت بينكما. ثم رحل إلى الشام. فقالت ابنة عمه: تالله ما رأيت كاليوم رجلا باعته عشيرته ببعير!!

تأمل أيها القارئ هذه القصة الوجيزة، وأكملها بما لديك من وثبات الخيال، ولا تطالبني بأكثر من هذا الإيجاز، فإنما أتخذه مقدمة لدرس قصيدة الصمة في الحنين ... ألم تر إليه وقد طالت غربته، فعبث الشوق بقلبهن واعتادته ذكرى أحبابه وأوطانه. فقال يعاتب نفسه، ويحاور فؤاده:

أمن ذكر دارٍ بالرقاشين أصبحت ... بها عاصفات الصيف بدءا ورجعا
حننت إلى ريا ونفسك باعدت ... مزارك من ريا وشُعبا كما معا
فما حسنٌ أن تأتي الأمر طائعا ... وتجزع إن داعي الصبابة أسمعا

ثم أخذ يخاطب رفيقيه – وقد بالغا في لومه وأطالا في تأنيبه – فقال:

ألا يا خليليّ اللذين تواصيا ... بلوميَ إلا أن أطيعَ وأتبعا
قِفا إنه لابد من رجعِ نظرة ... يمانيةٍ شتى بها القوم أو معا
لمغتصبٍ قد عزّه القوم أمره ... حياءً يكف الدمع أن يتطلعا

ثم شرع في تعجيزهم وتيئيسهم فقال:

فإن كنتم ترجون أن يذهب الهوى يقينا ونروى بالشراب فننقعا
فردّوا هبوب الريح أو غيّروا الجوى إذا حلّ ألواذ الحشا فتمنّعا

ومن يستطيع ذلك؟ تالله ما العاذل وإن اشتط في عذله، وبالغ في لومه، بقادر على نسيانك، أو سلوانك:

ظن الهوى لبسةٌ تبلى فيخلعها فكان في القلب مثل القلب في البدنِ

ثم عاد إلى رفيقيه يسألهما الإسعاد والإنجاد:

قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى وقل لنجدٍ عندنا أن يُودّعا

مسكين! وقل لنجد أن يودّع! إذا فما كنت صانعا لو أنصفته؟ أكنت تُغرب في البكاء والإعوال حتى يرحمك أعداؤك، ويرثي لك حاسدوك؟ أم كنت تقتل نفسك جوى وحزنا؟ ثم قال:

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربى وما أجمل المصطافَ والمتربّعا
وليست عشيات الحمى برواجعٍ إليك ولكن خلّ عينيك تدمعا

اتق الله في نفسك يا ابن عبد الله وارحم شبابك وصبرك:

واستبق دمعك لا يودي البكاء به واكفف مدامع من عينيك تستبق
فما الشئون وإن جادت بباقيةٍ ولا الجفون على هذا ولا الحدَقُ

ثم أخذ يصف موقفه وقد حال (البِشْر) بينه وبين أحبابه وأوطانه فقال:

ولما رأيت (البشر) أعرض دوننا وحالت بنات الشوق يحنّ نُزّعا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

وقد رأيت من الأدباء من يستنكر هذا الخيال، وهو عندي من دلائل الوله وعلائم الصبابة المضلة. ثم قال في وصف ما لاقى في تلفته من العنت:

تلفت نحو الحيّ حتى وجدتني ... وَجِعْت من الإصغاء لِيتا وأخدعا

وهو معنى جميل نال في هذا البيت حظه من البيان. وقد تبعه الشريف الرضي فأبدع وأجاد في قوله:

ولقد مررت على ديارهم ... وربوعها بيد السبلى نهْبُ
فوقفت حتى ضج من لغَبٍ ... نضوى ولجّ بعذلي الركب
وتلفتت عيني فمذ خفيَتْ ... عني الربوع تلفت القلب

ويمتاز بيت الصمة بتمثيله ما يعرف الناس في مثل هذه المواقف من ظاهر التعب. فأما بيت الشريف فلا يعرف حسنه غير من كابد الشوق وعانى الصبابة. ثم قال الصمة في تتمة الحديث عن جواه:

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني ... على كبدي من خشيةٍ أن تصدعا

ولم أر هذا المعنى لأحد قبل الصمة. وقد أكمله ابن نباتة السعدي بقوله:

أصم على قلبي يدي مخافةً ... إذا لاح لي برقٌ من الشرق لامعُ
وهل ينفع القلبَ الذي بان إلفه ... إذا طار شوقا أن تضم الأضالع

ومن الحنين قول ابن عبد ربه:

ودّعتني بزفرة واعتناقِ ... ثم نادت متى يكون التلاقي
وبدت لي فأشرق الصبح منها ... بين تلك الجيوب والأطواق
يا سقيم الجفون من غير سقم ... بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أفظع يوم ... ليتني مت قبل يوم الفراق

لأن الشاعر قد يرتحل فيأخذ في ذكر المعاهد والعهود، وقد يظعن حبيبه ويقيم، فيأخذ في الإعوال عليه، والحنين إليه، وهناك من غرائب الهوى وعجائب الصبابة حالة ثالثة ليست أقل من سابقتيها جوى وحزنا، بل ربما كانت أكثر حيرة: وهي أن يلتقي الركبان وفيهما محب ومحبوب، ثم يفترقان قبل أن يتلاقى الصبان: ويجتمع الخلان، فلا يدري العاشق أي عهد يبكي، وأي حظ يندب، كما لا يعرف أيلوم نفسه لأنه ظعن وترك حبيبه مقيما، أم يشكو دهره لأن حبيبه سار وخلفه، أم يُعول إعوالا مبهما لا يعرف مصدره، ولا يفهم مبعثه، والشعر في هذا المعنى أقرب إلى الذكرى منه إلى الحنينن ومن الجيد فيه قول الأرجاني:

أستودع الله قوما كيف أبعدنا ... تقلب الدهر منهم حين أدنانا
زمّوا الغداة مطاياهم لفرقتنا ... لما أنخنا للقياهم مطايانا
لم تشتبك بعدُ أطناب الخيام لنا ... ولا المنازل ضمتهم وإيانا
لكنهم عاجلونا بالنوى ومضوا ... وخلفوا الطرب المشتاق حيرانا
لم يملأ العين من أحبابه نظرا ... إذ غادر الدمع منه الجفن ملآنا

وإني موافيك ببديع الشعر وشجيه، فيما يمثل حال المحب نأى عنه حبيبه، أو خلف أحبابه وسار، فمن الأول قول سبط التعاويذي:

أتعود أيامي برامةَ بعدما ... سكنت بجرعاء الحمى آرامها
وأحلها البين المشتّ محِلةً ... بعُدت مراميها وعزّ مرامُها
سارقتها نظر الوداع فما ارتوت ... نفسٌ يزيد على الورود هيامها
يا غادرين وغادروا بجوانحي ... لبعادهم نارا يُشب ضِرامها
بنتم فلا عيني تجفّ غروبها ... أسفا ولا كبدي يُبلّ أوامها
جودوا لعين المستهام بهجعة ... فعسى تمثلكم لها أحلامها

لا تتلفوا بالبين مهجة عاشق ... سيّان بينَ حميمها وحِمامها
أعداه من هِيف الخصور نُحولها ... يومَ النوى ومن العيون سقامها

ولم أجد في هذا المعنى أشجى وأوجع من قول بعض المتيمين:

لبكاء هذا اليوم صنت مدامعي ... وكذا العزيز لكل خطب يُذخرُ
يا ساكني وادي العقيق فدتكم ... عينٌ مدامعها عقيق أحمر
بنتم فما استعذبت بعد حديثكم ... لفظا ولم يحسُن لعينيَ منظر

والبيت الأخير مأخوذ من قول ابن أبي ربيعة:

لم يحبب القلب شيئا مثل حبكم ... ولم تر العين شيئا بعدكم حسنا

فأما شعر من نأوا عن أحبابهم، وخلوا معاهد أنسهم، فهو كثير، ومن جيده قول الأبيوردي يتشوق إلى أحبابه وقد خلاهم ببغداد:

ألا ليت شعري هل أراني بغيضةٍ ... أبيت على أرجائها وأقيلُ
هواءٌ كأيام الهوى لا يغبهُ ... نسيمٌ كلحظ الغانيات عليل
وعصر رقيقُ الطرتين تدرجت ... على صفحتيه نضرةٌ وقبول
وأرضٌ حصاها لؤلؤ وترابها ... تضوّع مِسكا والمياه شمول
بها العيش غض والحياة شهيةٌ ... وليلي قصير والهجير أصيل
فقل لأخلائي ببغداد هل بكم ... سلو فعندي رنةٌ وعويل
ترنحني ذكراكمُ فكأنما ... تميل بي الصهباء حيث أميل
لئن قصرت أيام أنسي بقربكم ... فليلي على نأي المزار طويل

وقال أعرابي من بني عُقيل:

أحنّ إلى أرض الحجاز وحاجتي ... خيامٌ بنجد دونها الطرف يقصر
وما نظري نحو الحجاز بنافعي ... بشيء ولكني على ذاكَ أنظر

أفي كـــل يـــوم نظـــرةٌ ثـــم عـــبرةٌ لعينيـــك يجـــري ماؤهـــا يتحـــدّر
متـــى يـــستريح القلـــب إمـــا مجـــاورٌ حـــزينٌ وإمـــا نـــازحٌ يتـــذكر

وقال آخر في الحنين إلى أيامه السوالف:

ســـقى الله أيامـــا لنـــا قـــد تتابعـــت وسـقيا لعـصر العامريـة مـن عـصر
ليـــالي أعطيـــتُ البطالـــة مِقـــودي تمـــرّ الليـــالي والـــشهور ولا أدري

ومن شائق الحنين قول ابن الدمينة:

ألا لا أرى وادي الميـــــاه يثيـــــب ولا الـنفس عـن وادي الميـاه تطيـب
أحـــب هبـــوط الـــواديين وإننـــي لمـــــشتهرٌ بـــــالواديين غريـــــبُ
أحقـــا عبـــاد الله أن لـــست واردا ولا صـــــادرا إلا عـــــليّ رقيـــب
ولا زائـــرا فـــردا ولا في جماعـــة مـــن النـــاس إلا قبـــل أنـــت مُريـــب
وهـــل ريبـــةٌ في أن تحـــن نجيبـــةٌ إلى إلفهـــا أو أن يحـــنّ نجيـــب
وإن الكثيب الفرد من جانب الحمى إليّ وإن لم آتـــــــهِ لحبيـــــــب
لـــك الله إني واصـــلٌ مـــا وصـــلتِني ومُـــثنٍ بـــما أوليتنـــي ومثيـــب
وآخـــذ مـــا أعطيـــتِ عفـــوا وإننـــي لأزوَرُ عـــما تكـــرهين هيـــوبُ
فـــلا تتركـــي نفـــسي شـــعاعا فإنهـــا من الوجد قد كادت عليك تذوب
وإني لأســـتحييك حتـــى كـــأنما عـــليّ بظهـــر الغيـــب منـــك رقيـــبُ

وفي هذا المعنى يقول صاحب البدائع:

تجمـــل بالـــسماح ودع ملامـــي وكـــن عَـــوْن المحـــبّ المـــستهامِ
ففـــي أســـيوطَ لـــو تـــدري حبيـــبٌ هجـــرت لبعـــدهِ طيـــبَ المنـــام
أسِـــيت لـــه يحـــنّ إلى لقـــائي ودون مرامـــه كيـــد اللئـــام
إذا مـــا الليـــل جـــنّ ونـــام صَـــحبي مَـــشت نـــار التـــذكر في عِظـــامي
ســـلامٌ أيهـــا النـــائي ســـلامٌ وهـــل يغنـــي عـــن اللقيـــا ســـلامي

الرفق بالحبيب المريض

وهذا باب تتجلى فيه رِقة القلوب، فمن ذلك قول خالد الكاتب:

بجسمي لا بجسمك يا عليلُ ... ويكفيني من الألم القليلُ
تعدّاك السّقام إليّ إني ... على ما بي لشدّته حَمولُ
إذا ما كنت يا أملي صحيحا ... فحالفني وسالمك النّحول

وهذه أبيات ضعيفة، لا تتناسب مع شاعرية من يقول:

وحسبُك حسرةً لك من حبيبٍ ... رأيت زمامَه بيديْ عدو

وقد يتمنى المحب لو أعفى المرض محبوبه، ورتع كيف شاء في الأجسام الدميمة، كما قال سُحيم:

ماذا يريد السقام من قمرٍ ... كلّ جمالٍ لوجهةِ تَبَعُ
ما يرتجى خاب من محاسنها ... أمالهُ في القباحِ مُتّسَعُ
لو كان يبغي الفداء قلت لهُ ... ها أنا دون الحبيب يا وجَع

وما أرق ما يقول ابن الأحنف:

إن التي هامت بها النفس ... عاوَدها من سُقمها نُكس
كانت إذا ما جاءها المبتلى ... أبرأهُ من راحِها اللمسُ
وا بأبي الوجه المليح الذي ... قد عشقته الجنُّ والإنس
وإن تكن الحمّى أضرّت به ... فربما تنكسف الشمس

وانظر جمال الرفق في قوله:

أما والله لو تجدين جدي ... لقلقل ما وجدتِ إذا حشاكِ

وقـــاكِ الله كـــل أذى بنفـــسي وعجّـــل يـــا ظلـــومُ لنـــا شـــفاك

وأنشد أبو الحسن بن البراء:

فـديتك لـيلى مُـذ مَرضـتَ طويـل ودمعـي لمـا لاقيـت فيـك هَمـولُ
أأشرب كأســـا أم أَسرُّ بلـــذةٍ ويعجبنـــي ظبـــيٌ أغـــنُّ كحيـــل
وتـضحك سِـني أو تجـف مـدامعي وأصـــبو إلى لهـــوٍ وأنـــت عليـــل
ثكلـتُ إذا نفـسي وقامـت قيـامتي وغالـت حيـاتي عنـد ذلـك غُـول

وقال يوسف بن إبراهيم الغرناطي يخاطب الوزير ابن الحكم وقد أصابته حمى تركت على شفته بثورا:

حاشـــاك أن تمـــرض حاشـــاكا قـــد اشـــتكى قلبـــي لـــشكواكا
إن كنـت محمومـا ضـعيف القـوى فـــإنني أحـــسد حُمّاكـــا
مـــا رضـــيت حُمـــاك إذ بـــاشرت جـــسمك حتـــى قبّلـــت فاكـــا

وهذا الشعر وإن كان خطابا لوزير إلا أن فيه سِمات التشبيب!

* * *

الذبول والنحول

وقد يأسى الشعراء لما عانوا في الحب من الضمور والشحوب، فيرى بعضهم أنه لم يبق له لحم ولا دم، كما قال المؤمل:

حُلمت بكم في نومتي فغضبتم ... ولا ذنب لي إن كنتم في النوم أحلم
سأطرد عني النوم كيلا أراكم ... إذا ما أتاني النوم والناس نُوّمُ
تُصارمني والله يعلم أنني ... أبرُّ بها من والديها وأرحم
وقد زعموا لي أنها نذرت دمي ... وما لي بحمد الله لحمٌ ولا دم
برى حبها لحمي ولم يبق لي دما ... وإن زعموا أني صحيحٌ مسَلم
فلم أر مثل الحب صح سقيمُه ... ولا مثل من لم يعرف الحب يسقم
ستقتل جلدا باليا فوق أعظمٍ ... وليس يبالي القتل جلدٌ وأعظم

ومنهم من يبلى جسمه، ولا يبلى شوقه، كما قال أبو تمام:

يا جفونا سواهرا أعدمتها ... لذة النوم والرّقاد جُفونُ
بلىَ الجسمُ لكن الشوق حي ... ليس يبلى وليس تبلى الشجون
إن لله في العباد منايا ... سلطتها على القلوب العيون

ويقرب من هذا المعنى قول السري الرفاء:

فِداؤك من أوردته منهل الردى ... وورِدْ الردى للعاشقين يطيبُ
وما مات حتى أنحل الحبّ جسمَه ... فلم يبق فيه للتراب نصيب

والأرجاني يذكر أن طيفه لو زار حبيبه لحمل شخصه إليه لنحوله ويقول:

يُرَوي ضاحي الوجنات دمعي ... ويعدل عن لهيب جوى دخيلِ
وما نفعي وإن هطلت غيوثٌ ... إذا أخطأن أمكنة المحُول

هُـمُ نقـضوا عهـودي يـومَ بـانوا ... وأبْـدَوا صـفحة الطـرف الملـول
وفـوا بـالهجر لمـا أوعـدوني ... وكـم وعـدوا الوصـال ولم يفـوا لي
وفي الركـب الهلاليـين خِـشفٌ ... تعـرّض يـوم تـشييع الحُمـول
أصـاب بطرفـه الفنـان قلبـي ... وكيـف يـصاب مـاضٍ مـن كليـل
بخلـتَ وقـد حظيـتَ بـصفو ودِّي ... وإن مـن العنـاء هـوى البخيـلِ
وبـتّ لـو اسـتزرت اليـوم طيفـي ... لجـرّ إليـك شخـصي مـن نحـولي
ولكـن لا سـبيل إلى شـفاءٍ ... إذا مـال الطبيـب عـلى العليـل

ومنهم من يذكر أنه ضنى حتى لو تعلق بعود تُمام ما تأوّد، كما قال الحسين بن مطير الأسدي:

خلـيليّ هـل لـيلى مؤديـةٌ دمـي ... إذا قتلتنـي أو أمـيرٌ يقيـدها
وكيـف تقـاد الـنفس بـالنفس لم تقـل ... قتلـت ولم يـشهد عليهـا شـهودها
ولـن يلبـث الواشـون أن يـصدعوا ... إذا لم يكـنُ صـلبا عـلى البري عودهـا
نظـرت إليهـا نظـرة مـا يـسرني ... بهـا حُمـر أنعـام الـبلاد وسـودها
ولي نظـرةٌ بعـد الـصدود مـن الجـوى ... كنظـرة ثكـلى قـد أصـيب وحيـدها
فحتـا متـى هـذا الـصدود إلى متـى ... لقـد شـفّ نفـسي هجرهـا وصـدودها
فلـو أن مـا أبقيـت منـي معلـقٌ ... بعـود تُـمامٍ مـا تـأوّد عودهـا

وقال الحارثي في وصف آثار النحول:

سـلبت عظـامي لحمهـا فتركتهـا ... مجـرّدة تـضحى لـديك وتخـصَرُ
وأخليتِهـا مـن مخهـا فكأنهـا ... أنابيـب في أجوافهـا الـريحُ تـصفرُ
إذا سـمعت باسـم الفـراق تقعقعـت ... مفاصـلها مـن هـول مـا تنتظـرُ
خذي بيدي ثم ارفعي الثوب تنظري ... بي الـضرّ إلا أننـي أتـستر
فـما حيلتـي إن لم تكـن لـكِ رحمـةٌ ... عـليّ ولا لي عنـك صـبرُ فأصـبر

ويقول ابن الأحنف:

انظـــر إلى جـــسدٍ أضرّ بـــه الهـــوى ... لـــــولا تقلـــــب طرفـــــه دفنـــــوهُ

وتابعه المتنبي فقال:

كفـى بجـسمي نحـولا أنـني رجـل ... لـــــولا مخـــــاطبتي إيـــــاك لم تـــــرني

وفي مثل هذا المعنى يقول صاحب البدائع وقد أرسل صورته إلى بعض أحبابه:

ســكنت إلى النــوى ونــسيت صــبًّا ... نحـــــيلا كـــــاد يقتلـــــهُ الحنـــــين
فلـــما لم يجـــد في الحـــب صـــبرا ... ولم تـــــرحم جوانحـــــه الـــــشجون
تفـــانى في النحـــول فلـــو تبـــدى ... فلـــما فطِنـــتْ لخطرَتـــه العيـــونُ
وهـــا هـــو كالخيـــال أتـــاك يـــسري ... مخافـــة أن تُظـــنّ بـــه الظنـــونُ
فـــأكرم نزلـــهُ وارحـــم ضـــناه ... فـــإن فـــؤادك الحـــرم الأمـــين

وقال بعض الشعراء:

إن الـــذي أبقيـــت مـــن جـــسمهِ ... يـــا متلـــفَ الـــصبّ ولم يـــشعر
صُـــبابةٌ لـــو أنهـــا دمعـــةٌ ... تجـــول في عينيـــك لم تقطُـــرِ [1]

* * *

(١) الصبابة بالضم هي البقية الطفيفة من الشيء.

أماني المحبين

وللمحبين أمانٍ كثيرة، لو تنفع الأماني، فمنهم من يتمنى الكأس من يد جميل، بين ندمان يُعاطونه أطايب الحديث، كما قال العطوي:

وكم قالوا تمنّ فقلت كأسٌ ... يطوف بها قضيبٌ من كثيبِ
ونـدمانِ تساقطني حديثا ... كلحظ الحبّ أو غضّ الرقيب

وإنها لأمنية عزيزة المنال!

ومنهم من يسامر الأماني حتى ليحسب محبوبه بين يديه، كما قال ابن الزيات:

يا داني الدار في الأماني ... ونازح الدار في العِيانِ
ذكرك دانٍ وأنت ناءٍ ... فأنت ناءٍ وأنت دانِ
نفسك موصولةٌ بنفسي ... وأنت كالنجم من مكاني
لي فِكرٌ فيك معجبات ... في اللفظ صِفرٌ من المعاني
تجري ضروبٌ من التمني ... في كل يوم على لساني
أقول حتى كأن عيني ... تراك من حيث لا تراني

ويتمنى ابن الأحنف لو ينام ليرى طيف محبوبته، ويقول:

مجلس ينسب السرور إليه ... بمحب ريحانه ذكراكِ
كلما دارت الزجاجة زادته ... هُ اشتياقا وحُرقةً فبكاكِ
لم ينلك الرجاء أن تحضريني ... وتجافت أَمنيّتي عن سواكِ
فتمنيت أن يغشِّيني اللهُ ... نُعاسا لعل عيني تراك

وربما تمنى المحب لو أعير سلوة من قلب حبيبه، كما قال البحتري:

وددت وهل نفس امرئٍ بملومةٍ ... إذا هي لم تعطَ الهوى من ودادها
لو أن سُليمي أسجحت أو لو أنه ... أَغير فؤادي سلوةً من فؤادها

وما أظرف النشوة التي تمناها البحتري حين قال:

هل لي سبيلٌ إلى الظهران من حلب ... ونشوةٍ بين ذاك الورد والآسِ
أمدُّ كفي لأخذ الكأس من رشأ ... وحاجتي كلها في حامل الكاس
بقرب أنفاسه أشفي الغليل إذا ... دنا فقربها من حرّ أنفاسي

ومن غريب التمني ما جاء في رائية أبي صخر الهُذلي، فقد تمنى أن يجتمع بحبيبته فوق أمواج البحر، ومن دونها اللجج الخضر والأهوال، وإليك أروع هذه القصيدة البديعة:

لليلى بذات الجيش دارٌ عرفتها ... وأخرى بذات البينِ آياتها سطرُ
كأنما مِلآن لم يتغيرا ... وقد مرّ للدارين من بعدنا عصر
وقفت برسميها فعيّ جوابُها ... فقلت وعيني دمعها سربٌ همر
ألا أيها الركب المخبون هل لكم ... بساكن أجزاع الحمى بعدنا خُبرُ
فقالوا طوينا ذاك ليلا فإن يكن ... به بعض من تهوى فما شعَر السّفرُ

* * *

أما والذي أبكى وأضحك والذي ... أمات وأحيا والذي أمرهُ الأمرُ
لقد كنت آتيها وفي النفس هجرها ... بتاتا لأخرى الدهر ما طلع الفجر
فما هو إلا أن أراها فُجاءة ... فأبهتَ لا عُرفٌ لدي ولا نُكرُ
وأنسى الذي قد كنت فيه هجرتها ... كما قد تُنسّي لُبّ شاربها الخمرُ
وما تركت لي من شذا أهتدي به ... ولا ضِلعٍ إلا وفي عظمها وَقر
وقد تركتني أحسد الوحش أن أرى ... أليفين منها لا يروعها الذّعر

ويمنعني من بعض إنكار ظلمها ... إذا ظلمت يوما وإن كان لي عذر
مخافةُ أني قد علمت لئن بدا ... لي الهجر منها ما على هجرها صبر
وإني لا أدري إذا النفس أشرفت ... على هجرها ما يبلغنّ بي الهجر
تكاد يدي تندى إذا ما لمستها ... وينبت في أطرافها الورق النضر
وإني لتعروني لذكراك هزةٌ ... كما انتفض العصفور بلله القطرُ
تمنيت من حبي عُليّة أننا ... على رمثٍ في البحر ليس لنا وفر
على دائمٍ لا يعبر الفلك موجهُ ... ومن دوننا الأهوال واللجج الخضر
فنقضي همّ النفس في غير رِقبةٍ ... ويغرق من نخشى نميمته البحرُ
عجبت لسعي الدهر بيني وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فيا حبها زدني جوى كل ليلة ... ويا سلوة الأيام موعدكِ الحشرُ
هجرتك حتى قلتِ لا يعرف القِلى ... وزرتك حتى قلتِ ليس لهُ صبر
صدقتِ أنا الصب المصاب الذي به ... تباريح حبّ خامر القلب أو سِحر
فيا حبذا الأحياء ما دمت فيهمُ ... ويا حبذا الأموات ما ضمك القبر

وإليك شتى الأماني في قول جميل:

جزتكِ الجوازي يا بثين ملامة ... إذا ما خليلٌ بان وهو حميدُ
ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً ... بوادي القرى؟ إني إذا لسعيد
فقد تلتقي الأهواء من بعد يأسة ... وقد تطلب الحاجات وهي بعيد
ويحسب نسوانٌ من الجهل أنني ... إذا جئت إياهن كنت أريد
فأقسم طرفي بينهن سوية ... وفي الصدر بونٌ بينهن بعيدُ
فليت وشاة الناس بيني وبينها ... يدوف لهم سما طماطم سود
وليتهم في كل ممسى وشارقٍ ... تُضاعف أكبالٌ لهم وقيودُ
إذا جئتها يوما من الدهر زائرا ... تعرّض منقوص اليدين صدود
يصد ويغضي عن هواي ويجتني ... ذنوبا علينا إنه لعنود

فأصرمهـــا خوفـــا كـــأني مُجانـــبٌ ويغفـــل عنـــا مـــرةً فنعـــود
يقولـــون جاهـــد يـــا جميـــل بغـــزوةٍ وأي جهـــاد غـــيرهن أريـــد
لكـــلّ حـــديثٍ بيـــنهن بـــشاشةٌ وكـــل قتيـــلٍ بيـــنهنّ شـــهيد

وغاية الغايات في هذا الباب قول أبي بكر بن عبد الرحمن الزهري:

ولمـــا نزلنـــا منـــزلا طلـــه النـــدى أنيقـــا وبـــستانا مـــن النـــور حاليـــا
أجـــدّ لنـــا طِيـــب المكـــان وحـــسنُه مُنـــى فتمنينـــا فكنـــتِ الأمانيـــا

❊ ❊ ❊

الهيبة والخضوع

والشعراء يهابون الحسن، ويضلون سبيل الرشد حين يراجعون أربابه وانظر قول أبي فراس:

أراميتي كل السهام مُصيبةٌ ... وأنت لي الرامي فكلي مقاتلُ
وإني لمقدامٌ وعندكِ هائبٌ ... وفي الحيّ سحبانٌ وعندكِ باقل
يضلَّ عليّ القول إن زرت دارها ... ويعزب عني وجه ما أنا فاعل
وحجتها العُليا على كل حالةٍ ... فباطلها حق وحقي باطل

وما أرق قوله في عكس هذا المعنى:

ومُغضٍ للمهابة عن جوابي ... وإنّ لسانه العضبُ الصقيلُ
أطلت عتابهُ عَنتا وظلما ... فدَمّعَ ثم قال: كما تقولُ!

ومن جيد الشعر في هيبة الحسن، قول الحسن بن وهب:

أقول وقد حاولت تقبيل كفها ... وبي رعدةٌ أهتزُّ منها وأسكنُ
ليَهنِك أني أشجع الناس كلهم ... لدى الحرب إلا أنني عنك أجبنُ

وقول بعض الأعراب:

أهابكِ إجلالا وما بك قدرةٌ ... عليّ ولكن ملءُ عينٍ حبيبها
وما هجرتك النفس أنك عندها ... قليلٌ ولكن قلّ منك نصيبها

وفي الخضوع للحبيب يقول الشريف:

كـــم ذميـــلٍ إلـــيكمُ ووجيـــفِ ... وصـــدودٍ عنـــا لكـــم وُصـــدوفِ [١]
وغـــرام بكـــم لـــو أن غرامـــا ... جـــرّ نفعـــا للواجـــد المـــشغوف
صـــبوةٌ ثـــم عفـــةٌ مـــا أضر الحـــ ... ـــبّ في كـــل خلـــوةٍ بـــالعفيف
هجرونـــا ولم يلامـــوا وواصلـــ ... ـــنا عـــلى مـــؤلم مـــن التعنيـــف
وطلبنـــا الوفـــاء حتـــى إذا عـــزّ ... رضـــينا بالمطـــلِ والتـــسويف
كيـف يرجـو الكثـير مـن راضـه الـشو ... ق إلى أن رضي ببـــذل الطفيـــف

وانظر قول ابن الرومي:

أضـــــعتني فرعيـــــتُ ... وخنتنـــــي فوفيـــــتُ
أطعـــــتِ فيّ الأعـــــادي ... وكلهـــــم قـــــد عـــــصيت
فكيـــف أصـــبحتِ غـــضبي ... لمـــا رضـــاكِ أتيـــت

* * *

(١) الذميل والوجيف من ضروب السير.

الرضى بالقليل

وقد يقنع المحب وهو راغم، فيرضى بالوعد، ويفرح بالأماني، وهي كواذب لأن الوصل عزيز المنال، فمن ذلك قول العباس بن الأحنف:

كفى حزنا أني وفوزا ببلدةٍ ... مقيمانِ في غير اجتماعٍ من الشملِ
أما والذي ناجى من الطَّور عبده ... وأنزل فرقانا وأوحى إلى النحل
لقد ولدت حوّاءُ منكِ بليةً ... عليّ أقاسيها وخبلا من الخبل
أرى الناس لا يرضى ذوو العشق منهم ... بشيءٍ سوى حُسن المواتاةِ والبذل
وإني ليرضيني الذي ليس بالرضى ... وتقنع نفسي بالمواعيدِ والمطل

وفي هذا المعنى يقول الشريف:

لك الله هل بعد الصدود تعطّفٌ ... وهل بعد رَيعانِ البعاد تدانِ
وما غرضي أني أسومك خطةٌ ... كفاني قليلٌ من رضاك كفاني

وقال بعض الظرفاء:

أنا راضٍ منكم بأيسر شيءٍ ... يرتضيه من عاشقٍ معشوق
بسلام على الطريق إذا ما ... جمعتنا بالاتفاق الطريق

وقال توبة الحميري في ليلى الأخيلية:

وهل تبكين ليلى إذا مت قبلها ... وقام على قبري النساء النوائحُ
كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها ... وجاد لها دمعٌ من العين سافح
وأغبطُ من ليلى بما لا أنالهُ ... بلى كلّ ما قرّت به العين صالح

وقد كثر القليل في قول ابن الطثرية:

ألـــيس قلـــيلا نظـــرةٌ إن نظرتهـــا إليـــك؟ وكـــلا لـــيس منـــك قليـــلُ

وجاراه في هذا المعنى من قال:

إن مـــا قـــل منـــك يكثـــر عنـــدي وكثـــيرٌ ممـــن تحـــبُّ القليـــلُ

وأبرع الشعر في هذا المعنى قول جميل:

وإني لأرضى مـــن بثينـــة بالـــذي لـــو أبـــصره الـــواشي لقـــرّت بلابُلـــه
بـــلا، وبـــأن لا أســـتطيعن وبـــالمنى وبالأمـــل المرجـــو قـــد خـــاب آملـــه
وبـــالنظرة العجـــلى، وبـــالحول تنقـــضي أواخـــرهُ لا نلتقـــي وأوائلـــه

وفي مقابل هذا يقول ابن الفارض:

وإذا اكتفـــى غـــيري بطيـــف خيالـــهِ فأنـــا الـــذي بوصـــاله لا أكتفـــي

وأبدع منه قول ابن الرومي:

أعانقـــه والـــنفس بعـــدُ مـــشوقةٌ إليـــه وهـــل بعـــد العِنـــاق تـــدانِ
وألـــثم فـــاهُ كـــي تـــزول حـــرارتي فيـــشتد مـــا ألقـــى مـــن الهـــيَمان
ولم يـك مقـدار الـذي بي مـن الجـوى ليرويَـــهُ مـــا تلـــثم الـــشفتان
كـــأن فـــؤادي لـــيس يـــشفي غليلـــهُ ســـوى أن يـــرى الـــروحين يمتزجـــان

* * *

شفاء المحب

وقد يمرض المحب، فيفتن الناس في وصف دوائه، على أنه لا يبرأ إلا بقرب من يحب. وانظر قول عروة بن خزام وقد رأى عفراء:

وما هي إلا أن أراها فجاءة ... فأبهت حتى ما أكاد أجيب
وأصدف عن رأيي الذي كنت أرتئي ... وأنسى الذي أزمعت حين تغيبُ
ويظهر قلبي عذرها ويعينها ... علي فعالي في الفؤاد نصيب
وقد علمت نفسي مكان شفاءها ... قريبا وهل ما لا يُنال قريب
فواكبدي أمست رفاتا كأنما ... يُلذعها بالموقدات طبيب
عشية لا عرفاء منك بعيدة ... فتسلوا ولا عفراء منك قريب
لئن كان برد الماء حران صاديا ... إليّ حبيبا إنها لحبيب

وفي هذا المعنى يقول بعض الأعراب:

أيا زينة الدنيا التي لا ينالها ... مُناي ولا يبدو لقلبي صريمها
بعيني قذاة من هواك لو أنها ... تُداوى بمن أهوى لصحّ سقيمها
وبرء قذاة العين إن لم يكن لها ... طبيب يداوي نظرة تستديمها
فما صبرت عن ذكرك النفس ساعة ... وإن كنت أحيانا كثيرا ألومها

ومن بديع الشعر في هذا الباب قول أبي العتاهية:

قل لمن لست أَسمِّي ... بأبي أنت وأمي
بأبي أنت لقد أصبحـ ... ـت من أكبر همي
ولقد قلت لأهلي ... إذا أذاب الحب لحمي
وأرادوا لي طبيبا ... فاكتفوا مني بعلمي

مـــن يكـــن يجهـــل مـــا ألـــ ـــقى فـــإن الحـــب ســـقمي
أن روحـــــــي لبغـــــــدا دَ وفي الكوفـــــــة جـــــــسمي

* * *

القلب الخافق

نذكر هنا ألوانا من تصور الشعراء لخفوق القلب، فمنهم من يشبهه بتنزي الكرة كما قال بشار:

يروعه السرار بكل شيء ... مخافة أن يكون به السرارُ
كأن فؤاده كرة تنزّى ... حذار البين لو نفع الحذارُ

ومنهن من يشبهه بالوشاح القلق، فوق الخصر الدقيق، كقول مسلم بن الوليد:

أزكى من الماسك أنفاسا وبهجتها ... أرق ديباجة من رقة النفس
كأن قلبي وشاحاها إذا خطرت ... وقلبها قُلبها في الصمت والخرس [1]
تجري محبتها في قلب عاشقها ... جري السلامة في أعضاء منتكس

وابن الأحنف يشبه القلب الخافق بيد القينة الهوجاء تضرب بالدف، ويقول:

يبين لساني عن فؤادي وربما ... أسرّ لساني ما يبوح به طرفي
أعيذك أن تشقى بقتلي فإنني ... أخاف عليك الله أن سمتني حتفي
إذا القلب أومأ أن يطير صبابة ... ضربت له صدري وألزمته كفي
كأن جناحيه إذا هاج شوقه ... يدا قينةٍ هوجاء تضرب بالدفّ

ومنهم من يشبهه بجناح الطير حين ينتفض، كقول أحد الأعراب:

ألا بأبي من ليس والله نافعي ... بنيل ومن قلبي على النأي ذاكره

---

(١) القلب بضم القاف هو السوار.

ومـن كبـدي تهفـو إذا ذكـر اسـمه كهفـو جنـاح يـنفض الطـلّ طـائره

وقد وضح هذا المعنى في قول نُصيب:

كـأن القلـب ليلـة قيـل يُغـدى بلـيلى العامريـة أو يـراحُ
قطـاةٌ عزهـا شرَك فباتـت تجاذبـه وقـد علـق الجنـاح
لهـا فرخـان قـد تُركـا بـوكرٍ فعـشّهما تُـصفقه الريـاح
إذا سـمعا هبـوب الـريح نـصا وقـد أودى بـه القـدر المتـاح [1]
فـلا في الليـل نالـت مـا ترجـيّ ولا في الـصبح كـان لهـا بـراح

وابـن ميـادة يـذكر أن قلبـه أمـسى وكـأن يـدا خبثـت بـه، أي قبـضت عليـه وسامته العذاب، ويقول:

كـأن فـؤادي في يـدٍ ضـبثت بـه محـاذرة أن يقـضب الحبـل قاضـبهْ
وأَشـفق مـن وشـك الفـراق وإننـي أظـن لمحمـول عليـه فراكبـه
فـوالله مـا أدري أيغلبنـي الهـوى إذا جـدّ جـدُّ البـين أم أنـا غالبـه
فإن أستطع أغلب وأن يغلب الهوى فمثـل الـذي لاقيـت يغلـب صـاحبه

* * *

(١) نص الطائر هم بالنهوض.

مثال الحبيب

ومن العشاق من يرى مثال حبيبته كلما هب من نومه، أو أوى إلى فراشه كالذي يقول:

آآخر شيء أنت في كل هجعةٍ ... وأول شيء أنت عند هبوبي
مزيدكِ عندي أن أقيك من الردى ... وود كماء المزن غير مشوب

والمنى تمثل الحبيب في قول راشد بن أرشد:

تحيرت في أمري وإني لواقف ... أجيل وجوه الرأي فيك وما أدري
أأعزم عزم اليأس فالموت راحة ... أو أقنع بالإعراض والنظر الشزرِ
وإني وإن أعرضت عنك لمنطوٍ ... على حرقٍ بين الجوانب والصدر
إذا هاج شوقي مثلتكِ لي المنى ... فألقاكِ ما بيني وبينك في السر
فمن ذاك لم أصبر ولي فيك حيلة ... ولكن دعاني اليأس منكِ إلى الصبر
تصبرت مغلوبا وإني لموجع ... كما يصبر الظمآن في البلد القفر

وراشد بن أرشد هذا هو الذي يقول:

ضحكتِ ولو تدرين ما بي من الهوى ... بكيتِ لمحزون الفؤاد كئيبِ
لمن لم تُرحْ عيناه من فيض عبرة ... ولا قلبه من زفرة ونحيب
لمستأنس بالهمّ في دار وحشة ... غريب الهوى باكٍ لكل غريب
ألا بأبي العيش الذي بأن وانقضى ... وما كان من حسن هناك وطيب
وترداد مستور الأحاديث بيننا ... على غفلة من كاشح ورقيب
ليالي يدعونا الصبا فنجيبه ... ونأخذ من لذاته بنصيب
إلى أن جرى صرف الحوادث في الهوى ... فبدل منا مشهدٌ بمغيبِ

وقد ضاع شعر هذا الشاعر المجيد، وحرمنا منه صاحب زهر الآداب حين قال «وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره، وصنت الكتاب عن ذكره» وبهذه الصيانة فقدت الآداب شعر هذا الشاعر، وكم نتمنى أن لا يخلط المؤلفون بين الأدب والأخلاق!

وأجود ما قيل في مثال الحبيب قول كثير:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيلِ

* * *

أهوال الصدود

ولقد أطال الشعراء في شكوى الصد، وما يقاسون فيه من أهوال، فمن ذلك قول الشريف:

وبين ذوائب العقدات ظبيٌ ... قصير الخطو في المِرط المذالِ
ربيبٌ إن أريغ إلى حديث ... نوار إن أريد إلى وصال
فهل لي والمطامع مُرديات ... دنوٌ من لمى ذاك الغزال
لقد سلبت ظباءُ الدار لبِّي ... ألا ما للظباء بها ومالي
تنغصني بأيام التلاقي ... معاجلتي بأيام الزيال
تحيفني الصدود وكنت دهرا ... أروع بالصدود فلا أبالي
وكيف أَفيق لا جسدي بناءٍ ... عن البلوى ولا قلبي بسالي
يرنحني إليك الشوق حتى ... أميلَ من اليمين إلى الشمال
كما مال المعاقر عاودته ... حُميا الكأس حالا بعد حال
ويأخذني لذكركم ارتياحٌ ... كما نشط الأسير من العقال

وعبد الله بن مصعب يأسي على أن لم يعُده أحبابه في مرضه، مع أنه يعود كلبهم إذا مرض! ولهذا لقّب (عائد الكلب) حين قال:

ما لي مرضت فلم يعدني عائدٌ ... منكم ويمرض كلبكم فأعودُ
وأشد من مرضي عليّ صدودكم ... وصدود عبدكم عليّ شديد

ويرى أبو النواس أن قرب الدار لا ينفع مع الصدود، ويقول:

لقد عاجلت قلبي جنانٌ يهجرها ... وقد كان يكفيني بذاك وعيدُ
رأيت تداني الدار ليس بنافع ... إذا كان ما بين القلوب بعيد

وابن الأحنف يترك العتب على الصدأ، لئلا يُرزأ بصدٍ جديد، ويقول:

تركت صدودها وصبرت نفسي ... بطول تجرُّع الغيظ الشديدِ
مخافة أن تجدد لي صدودا ... وكنت حديث عهد بالصدود

وقد وضح هذا المعنى من قبل في قول أبي صخر الهُذلي:

ويمنعني من بعض إنكاري ظلمها ... إذا ظلمت يوما وإن كان لي عذرُ
مخافة أني قد علمت لئن بدا ... لي الهجر منها ما على هجرها صبر

والبحتري يمزج الشكوى بالعتاب في قوله:

ظلمتني تجنيا وصدودا ... غير مرتاعة الجنان لظلمي
ويسير عند القتول إذا ما ... أثمت فيّ أن تبوء بإثمي
أجد النار تستعار من النا ... رِ وينشو [1] من سقم عينيك سقمي
لعب ما أتيتِ من ذلك الصدّ ... فنرضاه أم حقيقة عزمِ
وبحقٍ أن السيوف لتنبو ... تارة والعيون باللحظ تُدمي

ويروقني الندم على الصدود في قول صاحب البدائع:

لقد صددناكم كما صددتم ... فهل ندمتم كما ندمنا

* * *

(١) يقال: نشأ ينشأ ونشؤ ينشؤ: أي قوي وزاد.

التلفت إلى معالم الوجد

ومن أوجع ما تحدث به المتيمون، تلفتهم إلى معاهد الحب: عند الوداع، وبعد الفراق.

قال بعض الرواة: مررت بحمى الربذة فإذا صبيان يتقاسمون [١] في الماء، وشاب جميل الوجه ملوح الجسم قاعد، فسلمت عليه فرد عليّ السلام. وقال: من أين وضح الراكب؟ قلت من الحمى! قال ومتى عهدك به؟ قلت رائحا. قال وأين كان مبيتك؟ قلت: أدنى هذه المشاقر [٢]. فألقى نفسه على ظهره، وتنفس الصعداء. فقلت تفسأ [٣] حجاب قلبه، وأنشأ يقول:

سقى بلدا أمست سُليمي تحلهُ ... من المزن ما تُروى به وتسيمُ
وإن لم أكن من قاطنيه فإنه ... يحلّ به شخص عليّ كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه ... لدي وإن شط المزار نعيم
ومن لامني فيه حبيب وصاحبٌ ... فرد بغيظٍ صاحبٌ وحميمُ

ثم سكت سكتة كالمغمى عليه، فصحت بالأصبية، فأتوا بماء فصببته على وجهه فأفاق وأنشأ يقول:

إذا الصب الغريب رأى خشوعي ... وأنفاسي تزين بالخشوعِ
ولي عينٌ أضرّ بها التفاني ... إلى الأجزاع مطلقة الدموع
إلى الخلوات تأنس فيك نفسي ... كما أنِس الوحيد إلى الجميع

---

(١) يتقاسمون: يتغاطون، يقال قمسته في الماء غططه فيه.
(٢) المشاقر منابت العرفج.
(٣) تقسأ: تشقق وانصدع.

والشاهد في الأبيات الأخيرة.

وما أوجع تلفت القلب بعد العين في قول الشريف:

تلفــتّ حتــى لم يــبن مــن بلادكــم ... دخـــان ولا مـــن نـــارهن وقـــودُ
وإن التفـات القلـب مـن بعـد طرفـه ... طـــوال الليـــالي نحـــوكم ليزيـــد
ولمـــا تـــدانى البـــين قـــال لي الهـــوى ... رويـــدا وقـــال القلـــب أيـــن تريـــد
أتطمـع أن تـسلو عـلى البعـد والنـوى ... وأنـــت عـــلى قـــرب المـــزار عميـــد
ولـو قـال لي الغـادون مـا أنـت مـشتهٍ ... غـداة جزعنـا الرمـل قلـت أعـود [1]
أأصـــبر والوعـــساء بينـــي وبيـــنكم ... وأعـــلام خبـــتٍ، إننـــي لجليـــد!

وانظر قوله من كلمة ثانية:

ترحلـــت عـــنكم لي أمـــامي نظـــرة ... وعـشرٌ وعـشر نحـوكم مـن روائيـا
ومـن حـذرٍ لا أسـأل الركـب عـنكم ... وأعـلاق وجـدي باقيـات كـما هيـا
ومـن يـسأل الركبـان عـن كـل غائـب ... فلابـــد أن يلقـــى بـــشيرا وناعيـــا

* * *

(١) جزع من باب منع: تقال جزع الأرض قطعها.

الصد والنوى

يأسى العشاق للصد، حتى إذا راعتهم مرارة النوى، علموا أن الصد كان حلو المذاق. وفي هذا المعنى يقول ابن الخياط:

كفى حزنا أني أبيت معذبا ... بنار هموم ليس يخبو سعيرها
وأن عدوي لا يُراع وأنني ... أبيت سخين العين وهو قريرها
وأني لرهن الشوق والشمل جامع ... فكيف إذا حثّ الحُداة أميرها
وما زلت من أسر القطيعة باكيا ... فمن لي غداة البين أني أسيرها
وكنت أرى أن الصدود منية ... يكون مع الليل التمام حضورها
فلما قضى التفريق بالبعد بيننا ... وجدت الليالي كان حلوا مريرها
هوى ونوى يستقبح الصبر فيهما ... وحسبك من حال يُذمّ صبورها

وقد أصاب في تشبيه النوى بعد الهجر، بالجرح بعد الجرح حين قال:

أحنّ إلى سقمي لعلك عائدي ... ومن كلف أني أحن إلى السقمِ
وحتامَ أستشفي من الداء ما به ... سقامي وأستروي من الدمع ما يُظمي
فراق أتى في إثر هجر وما أذى ... بأوجعَ من كلمٍ أصاب على كلمٍ

وحنين المحب إلى سقمه، أملا في أن يعودَه حبيبه، يذكرنا بقول كثيِّر:

يود بأن يُمسي سقيما لعلها ... إذا سمعت عنه بشكوى تراسله

القريب والبعيد

هو الحبيب الذي يجاورك، أو يساكنك، ثم لا تملك وصله، ولا حديثه. وقد تزوره بلمح العين. كما قال ابن الدمينة:

ألا حُب بالبيت الذي أنت هاجرُهْ ... وأنت بتلماحٍ من الطرف زائرُهْ
فيا لك من بيتٍ لعيني مُعجبٍ ... وأحسنُ في عيني من البيت عامره
أصدُّ حياءً أن يلج بي الهوى ... وفيك المنى لولا عدوّ أحاذره

وفي هذا المعنى يقول إبراهيم بن العباس:

تدانت بقومٍ عن تناءٍ زيارةٌ ... وشطّ بليلى عن دُنو مزارها
وإن مقيماتٍ بمنعرَج اللوى ... لأقرب من ليلى وهاتيك دارها

والشعراء يشبهون الحبيب الممنوع في قربه، بالماء يمنع من وروده الظمآن، فنجد منهم من يقول:

إني وإياك كالصادي رأى نَهلا ... ودونه هُوةٌ يخشى بها التلفا
رأى بعينيه ماءً عزّ موردهُ ... وليس يملك دون الماء مُنصرفا

ومن يقول:

وإني على هِجران بيتك كالذي ... رأى نَهلا رِيا وليس بناهلِ
يرى برد ماءٍ ذِيد عنه وروضة ... بَرود الضحى فينانةً بالأصائل

وقد صور جميل هذا المعنى حين قال:

وما صادياتٌ حُمّنَ يوما وليلةً ... على الماء يخشينَ العِصِيّ حواني
حوائم لم يصدرن عنه لوجهةٍ ... ولا هنّ من برد الحِياض دواني

يَـرَيْنَ حبـاب المـاء والمـوت دونـهُ فهـــنّ لأصـــوات الـــسُّقاةِ رواني
بـــأكثر منـــي غُلـــة وصـــبابةً إليـــكِ ولكـــنّ العـــدوّ عـــراني

وقال أبو حية النميري أو العباس بن الأحنف:

كفـــى حزنـــا أني أرى المـــاء باديـــا لعينـــي ولكـــن لا ســـبيل إلى الـــورِدِ
ومـا كنـت أخـشى أن تكـون منيتـي بكـفٍّ أعـز النـاس كلهـم عنـدي

* * *

حلاوة الملام

ومن المحبين من يستعذب اللوم، لذكر الحبيب، كما قال أبو نواس:

أحب اللوم فيها ليس إلا ... لترداد اسمها فيما أَلام
ويدخل حبها في كل قلب ... مداخلَ لا تغلغلها المدامُ

وفي هذا المعنى يقول محمد ابن أبي أمية:

وحدّثني عن مجلس كنتِ زَيْنَهُ ... رسولٌ أمينٌ والنساء شهود
فقلت له رُدّ الحديث الذي مضى ... وذكرك من بين الحديث أريد

وقد ظرف البها زهير حين قدم رضى الحبيب على رضا العذول، وقال:

يا من يهدد بالصدود ... نعم تقول وتفعلُ
قد صح عذرك في الهوى ... لكنني أتعلل
قل للعذول لقد أطلـ ... ـت لمن تلوم وتعذل
عاتبت من لا يرعوي ... وعذلت من لا يقبل
غضب العذول أخف من ... غضب الحبيب وأسهل

وما أبدع قول أبي فِراس:

أساء فزادته الإساءة حُظوةٌ ... حبيبٌ على ما كان منه حبيبُ
يعدّ عليّ العاذلون ذنوبه ... ومن أين الوجه المليح ذنوب؟

والرقيب أخو اللائم في تنغيص حياة العشاق، ومن طريف الشعر في الألم لقرب الرقيب قول ابن المعتز:

وا بلائي في محضرٍ ومغيبِ ... من حبيب مني بعيد قريبِ

لم تَـــردِ مـــاء وجهـــه العـــين إلا شرقِـــتْ قبـــل ريهـــا برقيـــبِ

وقوله:

قـــد دنـــت الـــشمس للمغيـــبِ وحـــان شـــوقي إلى الحبيـــبِ
طـــوبي لمـــن عـــاش عُـــشر يـــومٍ لـــهُ حبيـــبٌ بـــلا رقيـــبِ

وما أظرف من يقول:

لـــسهم الحـــب جـــرحٌ في فـــؤادي وذاك الجـــرح مـــن عـــين الرقيـــبِ
يوكّـــل ناظريـــه بنـــا ويحكـــي مكـــان الكـــاتبين مـــن الـــذنوب
فلـــو ســـقط الرقيـــب مـــن الثريّـــا لـــصُبّ عـــلى محـــب أو حبيـــب

وانظر كيف ضُرب المثل بغفلة الرقيب في قول أحد الظرفاء:

يـــسقيك مـــن كفـــهِ مُـــداما ألـــذّ مـــن غفلـــة الرقيـــبِ
كأنهـــا إذ صـــفَت ورقـــتْ شـــكوى محـــبّ إلى حبيـــب

وقد كلف سعيد الوراق بغلام من الرهبان فأصبحوا وكلهم رقباء، وفيهم يقول:

بربـــك يـــا حمامـــة ديـــر زكـــي وبالإنجيـــل عنـــدكِ والـــصليبِ
قِفـــي وتحمّـــلي منـــي ســـلاما إلى قمـــر عـــلى غُـــصنِ رطيـــب
حمـــاه جماعـــة الرهبـــان عنـــي فقلبـــي مـــا يقـــرُّ مـــن الوجيـــب
وقـــالوا رابنـــا إلمـــام ســـعدٍ ولا والله مـــا أنـــا بالمريـــب
وقـــولي ســـعدك المـــسكين يـــشكو لهيـــب جـــوى أحـــر مـــن اللهيـــب
فـــصِلهُ بنظـــرةٍ لـــك مـــن بعيـــدٍ إذا مـــا كنـــت تمنـــع مـــن قريـــب
وإن أنـــا مُـــتُّ فاكتـــب حـــول قـــبري محـــب مـــات مـــن هجـــر الحبيـــب
رقيـــبٌ واحـــدٌ تنغـــيص عـــيشٍ فكيـــف بمـــن لـــهُ ألفـــا رقيـــب؟

إنه لابد مقتول، كما قتل صاحب هذه الأبيات!!

رؤية الضمير

ومن المحبين من يرى محبوبه في ضميره، كلما اشتاق إليه، كما قال الحكم بن قنبرة:

إن كنت لست معي فالذكر منك معي ... يرعاك قلبي وإن غُيِّبت عن بصري
العين تبصر من تهوى وتفقده ... وناظر القلب لا يخلو من النظر

وقال آخر:

أما والذي لو شاء لم يخلق الهوى ... لئنِ غبت عن عينيّ ما غبتَ عن قلبي
تُرينيكَ عين الوهم حتى كأنني ... أناجيك من قربٍ وإن لم تكن قربي

وقال أبو عثمان الناجم:

لئن كان من عيني أحمدُ غائبا ... فما هو عن عين الضمير بغائب
له صورةٌ في القلب لم يقصها النوى ... ولم تتخطفها أكفُّ النوائبِ
إذا ساءني يوما شُحوط مزاره ... وضاقت بقلبي في نواه مذاهبي
عطفت على شخصٍ لهُ غير نازحٍ ... مجلتهُ بين الحشا والثرائب

ويقرب من هذا المعنى قول الآخر في الاستعانة باسم الحبيب:

وليل وصلنا بين قُطريهِ بالسُّرى ... وقد جدّ شوقٌ مُطمعٌ في وصالكِ
أطلت علينا من دجاه حنادسٌ ... أعدن الطريق النهجَ وعر المسالك
فناديت يا أسماء باسمك فانجلت ... وأسفر منها كل أسودَ حالك
بنا أنتِ من هاد نجونا يذكره ... وقد نشبت فينا أكف المهالك
منحتك إخلاصي وأصفيتك الهوى ... وإن كنتِ لما تُخطريني ببالك

وفي مثل هذا المعنى يقول إسحاق الموصلي:

صب يحثّ مطاياه بذكركم ... وليس ينساكم إن حلّ أو سارا
لو يستطيع طوى الأيام نحوكم ... حتى يبيع بعمر القرب أعمارا
يرجو النجاة من البلوى بقربكم ... والقرب يُلهب في أحشائه النارا

* * *

القلب والكبد

موطن الحب هو القلب، في حديث الشعراء، وقد أثبت أخيرا أحد الأطباء الألمان أن موطن الحب هو الكبد، ونريد أن نذكر هنا طرفا من حديث العرب عن الكبد، وقرار الحب فيهن مما يماثل هذا الرأي الجديد .. قال بعض الأعراب:

فيا كبدا يُحمى عليها وإنها ... مخافة هيضات النوى لخفوقُ
أقام فريق من أناسٍ يودّهم ... بذات الغضا قلبي وبان فريق
بحاجة محزنٍ يظلّ وقلبه ... رهينٌ ببضات الحِجال صديق

وجرى ذكر القلب والكبد في كلمة صردر حين قال:

لا الحمى بعدكم مناخٌ ولا ما ... ءُ اللوى إذ هجرتموه بوردِ
والفؤاد الذي عهدتم جَموحا ... راضه طول جوركم والتعدّي
ما تريدون من دلائل شوقي ... غير هذا الذي أُجنُّ وأُبدي
كبدٌ كلما وضعت عليهِ ... راحتي قال أنت قادح زندي
وجفون جرين مدا وماء الـ ... ـبحر يرتاح بين جزر ومدِّ

وكذلك جمع بينهما البحتري حين قال:

وما كبدي بالمستطيعة للأذى ... فأسلو ولا قلبي كثير التقلبِ

وابن الأحنف حين قال:

ما للكلوم التي بالقلب من آسي ... فاصبر على اليأس يا مستقبل الياسَ
ما أسمج الناس في عيني وأقبحهم ... إذا نظرت فلم أبصرك في الناس

حتـى متـى كبـدي حـرَّى معطـشةً ولا يلـين لـشيء قلبـك القـاسي
يـا مـوريَ الزّنـد قـد أعيـت قوادحُـه اقـبس إذا شـئت مـن قلبـي بمقبـاس

* * *

بكاء الملاح

نذكر للقارئ شذرات من الشعر في بكاء الملاح، وما أغزر الدمع في بكاء المليح، حين يظفر بحسنه التراب:

قال ابن عبد ربه: كان لمعلّى الطائي جارية يقال لها (وصف) وكانت أديبة شاعرة، فأخبر محمد بن وضّاح قال: أدركت معلّى الطائي بمصر وأعطي بجاريته وصف أربعة آلاف دينار فباعها. فلما دخل عليها قالت له: بعتني يا معلّى؟! قال نعم، فقالت: والله لو ملكت منك مثل ما تملك مني ما بعتك بالدنيا وما فيها!! فرد الدنانير واستقال صاحبه ثم أصيب بها إلى ثمانية أيام. فقال يرثيها:

يا موتُ كيف سلبتني وصفا ... قدّمتها وتركتني خلفا
هلا ذهبت بنا معا فلقد ... ظفرت يداك فسُمتني خسفا
وأخذت شِق النفس من بدني ... فقبرته وتركت لي النصفا
فعليك بالباقي بلا أجل ... فالموت بعد وفاتها أعفى
يا موت ما أبقيت لي أحدا ... لما رفعت إلى البلى وصفا
هلا رحمت شباب غانية ... ريَّا العظام وشعرها الوحفا (١)
ورحمت عيني ظبيةٍ جعلت ... بين الرياض تناظرُ الخِشفا
تقضي إذا انتصفت مرابضه ... وتظل ترعاه إذا أغفى
فإذا مشى اختلفت قوائمه ... وقت الرضاع فينطوي ضعفا
متحيرا في المشي مُرتعشا ... يخطو فيضرب ظِلفهُ الظلفا

(١) الوحف: الأسود.

فكأنهـــا (وصـــفٌ) إذا جعلـــت ... نحـــوي تحـــيرُ محـــاجرًا وُطفـــا [١]
يـــا مـــوت أنـــت كـــذا لكـــل أخـــي ... إلـــفٍ يـــصون بـــبره الإلفـــا
خلفتَنـــي فـــردا وبنـــت بهـــا ... مـــا كنـــت قبلـــك حـــاملا وكفـــا [٢]
أســـكنتها في قعـــر مظلمـــةٍ ... بيتـــا يـــصافح تُربـــه الـــسقفا
بيتـــا إذا مـــا زاره أحـــدٌ ... عـــصفت بـــه أيـــدي الـــبلى عـــصفا
لا نلتقـــي أبـــدا معاينـــةً ... حتـــى نقـــوم لربنـــا صـــفا
لبـــستَ ثيـــاب الحتـــف جاريـــةٌ ... قـــد كنـــت ألـــبس دونهـــا الحتفـــا
فكأنهـــا والـــنفس زاهقـــة غـــصن ... مـــن الريحـــان قـــد جفـــا
يـــا قـــبر أبـــقِ عـــلى محاســـنها ... فلقـــد حويـــت الـــبر والظرفـــا

وكتب أبو نواس على قبر جارية هذه الأبيات:

أقـــول لقـــبر زرتـــه متلـــثما ... سـقى الله بـردَ العفـو صـاحبة القـبر
لقـد غيبـوا تحـت الثـرى قمـر الـدجى ... وشمس الضحى بين الصفائح والقفرِ
عجبـت لعـين بعـدها ملـت البكـا ... وقلـبٍ عليهـا يرتجـي راحـة الـصبر

وقال أبو تمام وقد ماتت جارية له:

دفـوف الـبلى أسرعـت في الغـصُنِ ... وخطب الردى والموت أبرحت من
لقـد شرقـت في الـشرق بـالموت غـادة ... تبـدلتُ منهـا غربـة الـدار بـالقرب
أقـول، وقـد قـالوا اسـتراحت لموتهـا ... مـن الكـرب روح المـوت شرّ مـن
لهـا منـزل تحـت الثـرى وعهـدتها ... لهـا منـزل بـين الجـوانح والقلـب

وما أجمل قوله من كلمة ثانية:

يقولـون هـل يبكـي الفتـى لخريـدة ... إذا مـا أراد اعتـاض عـشرا مكانهـا

---

(١) وطف جمع أوطف ووطفاء وهو الماء الكثير أو الدمع: توصف به السحب والعيون.
(٢) الوكف: الظلم.

وهل يستعيض المرء من خُمس كفهِ ولو صاغ من حُرِّ اللجين بنانها

وقال ابن الرومي في بستان وكانت من المجيدات في الغناء:

ما أولع الدهر في تصرّفهِ بكل زينٍ لهُ ومفتخر
أطار قمريّة الغناء عن الأر ض فأي القلوب لم تطِرِ
بستان يا حسرتا على زهرٍ فيك من اللهو بل على ثمرِ
بستان أضحى الفؤاد في ولهِ يا نزهة السمع منه والبصرِ
بستان ما منك لامرئ عوض من البساتين لا ولا البشر
إن لم أكن متّ فانقرضت فكم من موتةٍ للفؤاد في الذكر

وما أرق قوله في هذه القصيدة:

يا غضة السن يا صغيرتهُ أمسيت إحدى المصائب الكُبَرِ
أني اخترت الطريق يا سكني إلى لقاء الأكفان والحُفر
أبعدما كنت باب مبتهَج للنفس أصبحت باب معتَبر
كل ذنوب الزمان مغتفرٌ وذنبه فيك غير مغتَفر
لله ما ضمنت حفيرتها من حسن مرأى وطيب مختَبر
أضحت من الساكني حفائرهم سُكنى الغوالي مداهن السرر
لو علم القبر من أَتيح لهُ لانحفر القبر غير مُحتفر

وأحب لو تأمل القارئ ما في هذا الشعر من سمو الخيال.

وكان مرة بن عبد الله مغرما بفتاة من قومه يقال لها ليلى بنت زهير، وتزوجت من غيره بالرغم منه، ثم نقلت مع زوجها إلى راذان وماتت هناك، فقال مرة فيها كثيرا من الشعر الموجع. كقوله:

أيا ناعيي ليلى أما كان واحدٌ من الناس ينعاها إليّ سواكما
ويا ناعيي ليلى لجلت مصيبةٌ بنا فقد ليلى لا أَمرت قواكما

ولا عـــشتما إلا حليفـــي بليـــةٍ ولا مـــتُّ حتـــى يُـــشترى كفنـــاكما
فأشـــمت والأيـــام فيهـــا بوائـــق بمـــوتكما إني أحـــبُّ ردا كـــما

وقوله:

كأنـــك لم تُفجـــع بـــشيءٍ تُعـــدّه ولم تـــصطبر للنائبـــات مـــن الـــدهر
ولم تـــر بؤســـا بعـــد طـــول غـــضارةٍ ولم ترمك الأيـام من حيث لا تدري
ســقى جـانبي راذان والـساحة التـي بهـا دفنـوا لـيلى مُلـثّ مـن القطـرِ
ولازال خصبٌ حيث حلت عظامها براذان يسقي الغيث من هَطل غَمْر
وإن لم تكلمنـــا عظـــامٌ وهامـــةٌ هنـاك وأصـداءٌ يقـينَ مـع الـصخر

وكان لإسحاق الموصلي غلام جميل يقال له زياد، وهو الذي يقول فيه:

إذا مـــا زيـــادٌ علّنـــي ثـــم علنـــي ثـــلاث زجاجـــات لهـــن هـــديرُ
خرجـت أجـرّ الـذيل زهـوا كـأنني عليـــك أمـــير المـــؤمنين أمـــير

ثم مات زياد هذا، فقال إسحاق يبكيه:

فقـدنا زيـادا بعـد طـول صـاحبةٍ فـلا زال يـسقي الغيـثُ قـبرَ زيـاد
ستبكيك كـأسٌ لم تجـد مـن يـديرها وظمـآن يـستبطي الزجاجـة صـادي

وكان محمد بن مناذر يعشق عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفي، وكان عبد المجيد هذا من أجمل الفتيان وآدبهم وأظرفهم، وله مع ابن مناذر حديث طويل ذكره صاحب الأغاني، ثم مات عبد المجيد بعد مرض قصير وهو في سن العشرين فقال فيه ابن مناذر قصيدة طويلة نختار منها هذه القطعة الباكية:

كـلّ حـيّ لاقـى الحِـمام فمـودي مـا لحـي مؤمـل مـن خلـودِ
لا تهـاب المنـون شـيئا ولا تبقـي عـــلى والـــدٍ ولا مولـــود

ولقد تترك الحوادث والأيا ... م وهيا في الصخرة الصيخودِ [١]
ولو أن الأيام أخلدن حيًّا ... لعلاءٍ أخلدن عبد المجيدِ
ما درى نعشهُ ولا حاملوه ... ما على النعش من عفافٍ وجودِ
ويحَ أيدٍ جنت عليه وأيدٍ ... دفنتهُ ما غيّبت في الصعيد!
وأرانا كالزرع يحصده الده ... رُ فمن بين قائمٍ وحصيد
وكأنا للموت ركبٌ مخبُّو ... ن سراعا لمنهلٍ مورود
إن عبد المجيد يوم تولى ... هدّ ركنا ما كان بالمهدود
هدّ ركني عبد المجيد وقد كنـ ... ـتُ بركنٍ أنوء منه شديد
وبعبد المجيد تامور نفسي ... عثرت بي بعد انتعاش جدودي [٢]
وبعبد المجيد شلّت يدي اليمـ ... ـنى وشلّت به يمين الجود
حين تمت آدابهُ وتردّى ... برداءٍ من الشباب جديد
فسقاه ماء الشبيبة فاهتزّ ... اهتزاز الغصن الندي الأملود [٣]
وكأني أدعوه وهو قريبٌ ... حين أدعوه من مكان بعيد
فلئن صار لا يجيب لقد كا ... ن سميعا هشا إذ هو نُودي
يا فتى كان للمقامات زينا ... لا أراه في المحفل المشهود
لهف نفسي! أما أراك وما عنـ ... ـدك لي إن دعوت من مردود
كان عبد المجيد سم الأعادي ... ملء عين الصديق رغم الحسود
عاد عبد المجيد رزءا وقد كا ... نَ رجاءٌ لريب دهرٍ كنود
خنتك الودّ لم أمِت كمدا بعـ ... ـدكَ إني عليك حقّ جليد
لو فدى الحي ميتا لفدت نفـ ... ـسك نفسي بطارفي وتليدي

---

(١) الصيخود: الشديدة.

(٢) تامور النفس حياتها.

(٣) الأملود: الناعم الرقيق.

ولئن كنت لم أمت من جوى الحز ... ن عليه لأبلغن مجهودي
لأقيمن مأتما كنجوم الليـ ... ـل زُهرا يقطعن حُرّ الخدود
موجَعات يبكين للكبد الحرّ ... ى عليه وللفؤاد العميد (١)
ولعين مطروفة أبدا قا ... لَ لها الدهر لا تقري وجودي
كلما عزكِ البكاء فأنفد ... تِ لعبد المجيدَ سجْلا فعودي
لفتى يحسن البكاء عليه ... وفتى كان لامتداح القصيد
فبرغمي كنت المقدم قبلي ... وبكرهي دُليتَ في الملحود
كنت لي عصمة وكنت سماءً ... بك تحيا أرضي ويخضرُّ عودي

وأُغرم يعقوب بن الربيع بجارية تسمى (مُلك) ومكث في طلبها سبعِ سنين، حتى رق مالهُ، وجاهه، ثم ملكها، فأقامت عنده ستة أشهر وماتت فقال يبكيها:

لله آنسةٌ فجعت بها ... ما كان أبعدها من الدّنسِ
أتت البشارة والنعيّ معا ... يا قُربَ مأتِمِها من العُرسِ
يا مُلكُ ! نال الدهر فرصتهُ ... فرمى فؤادا غير محترسِ
أبكيك ما ناحت مُطوّقةٌ ... تحت الظلام تنوح في الغلسِ

وقال فيها:

ليت شعري بأي ذنبٍ لمُلك ... كان هجري لقبرها واجتنابي
ألذنبٍ حقدته كان منها ... أم لعلمي بشغلها عن عتابي
أم لأمني لسخطها ورضاها ... حين واريت وجهها في التراب
إنما حسرتي فإذا ما تذكر ... ت عنائي بها وطول طلابي
لم أزل في الطلاب سبع سنينٍ ... أتأتي لذاك من كل باب

(١) العميد الذي صرعه الحزن.

فاجتمعنا على اتفاقٍ وقدرٍ ... وغنينا عن فرقةٍ باصطحاب
أشهرا ستة صحبتك فيها ... كن كالحُلم أو كلمع السراب
وأتاني منك النعيّ مع البشـ ... ـرى فيا قرب أوبةٍ من ذهاب

وما أروع قوله في وصف احتضار هذه الجارية:

حتى إذا فترَ اللسانُ وأصبحت ... للموت قد ذبلت ذبول النرجِسِ
وتسهّلت منها محاسنُ وجهها ... وعلا الأنين تحثّهُ بتنفَّسِ
رجعَ اليقينُ مطامعي يأسا كما ... رجع اليقين مطامع المتلمِّس [1]

وقد وصف غربته من بعدها فقال:

فُجعتُ بمُلكٍ وقد أينعتْ ... وتمَّتْ فأعظِم بها من مصيبهْ
فأصبحت مغتربا بعدها ... وأضحت بحلوانَ مُلك غريبه
أراني غريبا وإن أصبحت ... منازل أهليَ مني قريبه
عطفت على أختها بعدها ... فصادفتها ذات عقلٍ أديبه
فأقبلتُ أبكي وتبكي معي ... بكاء كئيبٍ بحزن كئيبه
وقلتُ لها مرحبا مرحبا ... بوجه الحبيبة أَخت الحبيبه
سأصفيك ودي حِفاظا لها ... فذاك الوفاء بظهر المغيبه
أراكِ كمُلكٍ وإن لم تكن ... لملكٍ من الناس عندي ضريبه [2]

والشعر في بكاء المِلاح كثير، ولكن حب الإيجاز يحملنا على الاكتفاء بهذا المقدار، وما هو بالقليل.

(١) الملتمس هو صاحب الصحيفة التي يضرب بها المثل في الخيبة.
(٢) ضريبة: شبيهة.

بكاء الحلائل

وأوجع ما يكون بكاء الملاح إذا كن حلائل، والحليلة المعشوقة متاع عزيز! فمن ذلك قول أحد الفتيان في بكاء امرأته، وكان بها من المغرمين:

أطأ التراب وأنتِ رهن حفيرةٍ ... هالت يدايَ على صداكِ ترابها
أني لأغدَرُ من مشى إن لم أطأ ... بجفونِ عيني ما حييتُ جنابَها

قال ابن رشيق: ومن جيد ما رُثِيَ به النساء وأشجاه، وأشده تأثيرا في القلب، وإثارة للحزن، قول محمد بن عبد الملك الزيات في أم ولده:

ألا من رأى الطفل المفارق أَمَّه ... بعيد الكرى عيناهُ تبتدران
رأى كل أَمّ وابنها غير أَمِّه ... يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا في الفراش تحثّه ... بلابل قلبٍ دائم الخفقان

يقول فيها بعد أبيات:

ألا إن سجلا واحدا قد أرقته ... من الدمع أو سجلين قد شفياني
فلا تلحياني أن بكيت فإنما ... أداوي بهذا الدمع ما تريانِ
وإن مكانا في الثرى خط لحدُهُ ... لمن كان في قلبي بكل مكان
أحق مكان بالزيارة والهوى ... فهل أنتما إن عُجتُ منتظران

ومن أشجى الشعر رثاءً قوله في هذه القصيدة:

فهبني عزمت الصبر عنها لأنني ... جليدٌ فمن بالصبر لابن ثمانِ
ضعيف القوى لا يعرف الأجر حسبة ... ولا يأتسي بالناس في الحدثان
ألا من أَمنيه المنى وأَعِدُّه ... لعثرة أيامي وصرف زماني

ألا مـن إذا مـا جئـت أكـرم مجلـسي وإن غبـت عنـهُ حـاطني ورعـاني
ولم أر كالأقـدار كيـف يـصبنني ولا مثـل هـذا الـدهر كيـف رمـاني

ومن موجع الشعر قول امرأة شريفة ترثي زوجها ولم يكن دخل بها:

أبكيـك لا للنعـيم والأنـس بـل للمعـالي والـرمح والفـرَس
أبكـي عـلى فـارسٍ فجعـتُ بـه أرْملنـي قبـل ليلـة العُـرسِ
يـا فارسـا بـالعراء مطّرحـا خانتـه قُـوادُه مـع الحـرَس
مـا لليتـامى إذا همُ سـغبوا وكـل عـان وكـل محتـبس

وإني لآسف على قلة هذا النوع من الشعر في الآداب العربية، مع أنه من دلائل الوفاء، لو يعلم الشعراء!

* * *

لوعة الشوق

نمتع القارئ في هذا الباب بألوان من سحر الحديث عن تغلغل الشوق في طيات الفؤاد. فمن ذلك قول أحد الشعراء وقد اشتاق إلى أرض جِلق، وتمنى لو كحل أجفانه بترابها:

وإن اصطباري عن معاهد جِلقٍ ... غريبٌ فما أجفى الفراقَ وأجفاني
سقى الله أرضا لو ظفرت بتربها ... كحلت بها من شدة الشوق أجفاني

وقال أبو بكر بن سعادة يتشوق إلى قرطبة:

أقرطبة الغراء هل لي أوبةٌ ... إليكِ وهل يدنو لنا ذلك العهدُ
سقى الجانب الغربي منك غمامةٌ ... وقعقع في ساحات دوحاتك الرعدُ
لياليك أسحارٌ وأرضك روضةٌ ... وتربك في استنشاقه عنبرٌ ورد

وإني ليبكيني قول الشريف:

ذكرت الحمى ذكر الطريد محلهُ ... يُذادُ ذيادَ العاطشات ويُرجعُ
وأين الحمى لا الدار بالدار بعدهم ... ولا مربعٌ بعد الأحبةِ مرَبع
سلامٌ على الأطلال لا عن جنابةٍ ... ولكنّ يأسا حين لم يبق مطمعُ
نشدتكمُ هل زال من بعد أهلهِ ... زرودٌ وهل زالتُ طلولٌ وأرُبع
نعم عادني عيد الغرام ونبهتْ ... عليّ الجوى دارٌ بميثاءَ بلقعُ
وطارت بقلبي نفحة غضويّة ... تنفسها حالٍ من الروض ممرِع
نظرت الكثيب الأيمن اليوم نظرة ... تردُّ إليّ الطرف يدمى ويدمعُ
وأيقظت للبرق اليمانيّ صاحبا ... بذات النقا يخفى مِرارا ويلمَع
أأنت معيني للغليل بنظرةٍ ... فنبكي على تلك الليالي ونجزع

معاذ الهوى لو كنت مثلي في الهوى ... إذا لدعاك الشوق من حيث تسمع
هناك الكرى، إني من الوجد ساهرٌ ... وبرءُ الحشا، إني من البين موجَعُ
فلا لُبّ لي إلا تماسك ساعةٍ ... ولا نوم لي إلا النعاسُ المروّع
ألا ليت شعري كل دارٍ مُشتتٌ ... ألا موطنٌ يدنو بشملٍ ويجمع

وانظر كيف يقول:

وما حائماتٌ يلتفتنَ من الصدى ... إلى الماء قد مُوِطلنَ بالرَشفان
إذا قيل هذا الماءُ لم يملكوا لها ... معاجا بأقرانٍ ولا بمثانِ
بأظمأ إلى الأحباب مني وفيهم ... غريمٌ إذا رمت الديون لواني
فيا صاحبي رحلي أقلا فإنني ... رأيت بليلى غير ما تريانِ
ويا مُزجي النّضو الطليح عشية ... تُراكَ ببطن المأزمين تراني
وهل أنا غادٍ أنشد النبلة التي ... بها عرضا ذاك الغزال رَماني

وانظر كيف يستمطر الدمع حين يقول:

خذوا نظرةً مني فلاقوا بها الحمى ... ونجدا وكثبان اللوى والمطاليا
ومروا على أبيات حي برامةٍ ... فقولوا لديغٌ يبتغي اليوم راقيا
وقولوا لجيران على الخيف من منى ... تراكم من استبدلتم بجواريا
ومن حل ذاك الشعب بعدي وأرشقت ... لواحظه تلك الظباء الجوازيا
ومن ورد الماء الذي كنت واردًا ... به ورعى الروض الذي كنت راعيا
فوالهفتي ! كم لي على الخيف شهقةٌ ... تذوب عليها قطعة من فؤاديا
صفا العيش من بعدي لحيّ على النقا ... حلفت لهم لا أقرب الماء صافيا
فيا جبل الريان إن تعر منهم ... فإني سأكسوك الدموع الجواريا
ويا قرب ما أنكرتمُ العهد بيننا ... نسيتم ما استودعتم الود ناسيا
أأنكرتمُ تسليمنا ليلة النقا ... وموقفنا نرمي الجمارَ لياليا
عشيّة جاراني بعينيه شادنٌ ... حديث النوى حتى رمى بي المراميا

رمى مقتلي من بين سجفي غبيطهِ ... فيا راميا لا مسك السوءُ راميا
فيا ليتني لم أعلُ نشزا إليكم ... حراما ولم أهبط من الأرض واديا
ولم أدر ما جمع وما جمرتا مِنًى ... ولم ألق في اللاقين حيا يمانيا
ويا ويح نفسي كيف زايدت في مهًا ... بذي البان لا يُشرينَ إلا غواليا

ويقول الأبيوردي يصف شوقه إلى حبيبته:

وأُقسمُ بالبيت الرحيب فناؤه ... وبالحجر الملثوم والحجرِ والرُّكن
لأنتِ إلى نفسي أحب من الغنى ... وذكرك أحلى في فؤادي من الأمن

ويصور الحارث بن خالد شوقه إلى عائشة بنت طلحة بشوق الغريق إلى النجاة، ويقول:

يا أَم عمران ما زالت وما برحت ... بنا الصبابة حتى مسّنا الشفقُ
القلب تاق إليكم كي يلاقيكم ... كما يتوق إلى منجاته الغرقِ

وإنكَ لتلمس حرارة الشوق في قول العذري:

لو جُزّ بالسيف رأسي في مودتكم ... لمر يهوي سريعا نحوكم رأسي
ولو بلي تحت أطباق الثرى جسدي ... لكنت أبلى وما قلبي لكم ناسي
أو يقبض الله روحي صار ذكركم ... روحا أعيش به ما عشت في الناس
لولا نسيمٌ لذكراكم يروحني ... لعدت محترقا من حَرّ أنفاسي

والشوق يحمل ابن الدمينة على أن يحمد لحبيبته ذكرها له بالمساءَة ويقول:

أرى الناس يرجون الربيع وإنما ... ربيعي الذي أرجو نوالُ وصالكِ
أرى الناس يخشون السنين وإنما ... سنِيَّ التي أخشى صروفُ احتمالكِ
لئن ساءني أن نلتِني بمساءةٍ ... لقد سرني أني خطرت ببالكِ
ليهنِك إمساكي بكفي على الحشا ... ورقراق عيني رهبةً من زِيالكِ

وانظر لوعة الشوق في قول أحد المتيمين:

أقــول لأصــحابي وهــم يعــذلونني ودمــع جفــوني دائــم العــبرات
بــذكر مِنــى نفــسي فبلــوا إذادنــا خروجـي مـن الـدنيا جفـوف لهـاتي

* * *

راحة السلوان

ومن العشاق من يستريح إلى السلو، ولكن أين إلى السُّلو السبيل؟ فمن ذلك قول العديل بن الفرخ.

صحا عن طلاب البيض قبل مشيبه ... وراجع غضّ الطرفِ فهو خفيض
كأني لم أرْع الصبا ويروقني ... من الحيّ أحوى المقلتين غضيضُ
دعاني له يوما هوى فأجابه ... فؤادٌ إذا يلقى المِراضَ مريضُ
لمستأنِساتِ بالحديث كأنه ... تهلّل غُرّ برقهنَّ وميض

وقال الشريف:

هي سلوةٌ ذهبت بكل غرام ... والحب نَهب تطاوُل الأيام
ولقد نضحت من السلوّ وبرده ... حرّ الجوى فبردتُ أيّ ضرامِ
من بعد ما أظما الغليل جوانحي ... وأطال من ملل الزّلان أوامي
لا يدع العذّال نزع صبابتي ... بيدي حسرت عن الغرام لثامي
قد كانت الصبوات تعصف مقودي ... فالآن سوف أطل من إجمامي
هيهات يخفضني الزمان وإنما ... بيني وبين الذل حدّ حسامي

وظاهر هذا الشعر أن أصحابه نزعوا عن الحب طائعين. وفي مقابل هذا المعنى يقول إبراهيم بن العباس:

وعلمتني كيف الهوى وجهلته ... وعلمكم صبري على ظلمكم ظلمي
وأعلم ما لي عندكم فيردني ... هواي إلى جهلي فأرجع عن علمي

ويقول ابن الأحنف في اليأس من السلوان:

تجنب يرتاد السلو فلم يجد ... لهُ عنك في الأرض العريضة مذهبا
فعاد إلى أن راجع الوصل صاغِرا ... وعاد إلى ما تشتهين وأعتبا

ويقول من كلمة ثانية:

كم قد تجرّعت من غيظٍ ومن حرقٍ ... إذا تجدد حُزنٌ هوّن الماضي
وكم سخطت وما باليتمُ سخطي ... حتى رجعت بقلبٍ ساخطٍ راضي

ويقول أيضا إبراهيم بن العباس:

لمن لا أرى أعرضت عن كل من أرى ... وصرت على قلبي رقيبا لقاتِله
أُدافعهُ عن سلوةٍ وأردُّه ... حنينا إلى أوصابه وبلابله

ويقول ابن أُذينة:

إن التي زعمت فؤادك ملَّها ... خُلقت هواك كما خُلقت هوى لها
بيضاءُ باكرها النعيم فصاغها ... بلباقةٍ فأدقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي ... ما كان أكثرها لنا وأقلها
وإذا وجدت لها وساوس سلوةٍ ... شفع الضمير إلى الفؤاد فسلَّها

ويقرب من هذا المعنى قول صاحب البدائع:

ولما نسيتم ودنا وغرامنا ... ولم تحفظوا بعد الفراق لنا عهدا
جعلنا نغضّ الطرف عنكم وعندنا ... من الشوق نارٌ لا نطيق لها وقدا

❊ ❊ ❊

غدر الغواني

ولابد من ذكر شيء مما تألم له الشعراء في حياة الحب، التي طالما يغدر فيها النساء. وإنا لنجد من بينهم من يحسب الغواني جميعا غادرات، ويقول:

فلا تحسبن هندا لها الغدر وحدها ... سجية نفس، كل غانية هند

ويقول كثير في السخر من عهود النساء:

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة ... إذا غمزوها بالأكف تلين
تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن ... عليك شجا في الحلق حين تبين
وإن هي أعطتك الليان فإنها ... لآخر من خلانها ستلينُ
وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمين

وقال الشريف يشكو المطل والتسويف:

يا ظبية البان ترعى في خمائله ... ليهنِك اليوم أن القلب مرعاك
الماء عندك مبذولٌ لشاربه ... وليس يرويك إلا مدمع الباكي
وعدٌ لعينيك عندي ما وفيت به ... يا قرب ما كذبت عيني عيناك
أنتِ النعيم لقلبي والعذاب له ... فما أمرُّك في قلبي وأحلاك
عندي رسائل شوقٍ لست أذكرها ... لولا الرقيب لقد بلغتها فاك
هامت بك العين لم تتبع سواك هوى ... من علم العين أن القلب يهواك

وإني ليشجيني قوله من كلمة ثانية:

تهفو إلى البان من قلبي نوازعه ... ما بي البانُ من داره البانُ
أسد سمعي إذا غنى الحمام به ... كيلا يبين سر الوجد إعلانُ
ورب دارٍ أولتيها مجانبة ... وبي إلى الدار أطراب وأشجان

إذا تلفت في أطولالها ابتدرت ... للقلب والعين أمواه ونيران
كلمٌ بقلبي أداويه ويقرفهُ ... طول ادِّكاري لمن لي منه نسيان (١)
لا للوائم أقصار بلائمة ... عن العميد ولا للقلب سلوان
على مواعيدهم خلف إذا وعدوا ... وفي ديونهم مطل وليّان
هم عرّضوا بوفاء العهد آونة ... حتى إذا عذبوني بالمنى خانوا

وابن الرومي يجعل الغدر من طبائع الحسان، إذ يشبههن بالحديقة، تحمل الثمر حينا وتعرى من الورق حينا، وإليك قوله من قصيدة طويلة:

يُولين ما فيه أغرام وآونة ... يولين ما فيه للمعشوق سلوان
ولا يدمن على عهدٍ لمعتقدٍ ... أني؟ وهن كما شبهت بستان
يميل طورا بحملٍ ثم يعدمه ... ويكتسي ثم يلفى وهو عريان
تغدو الفتاة لها خل فإن غدرت ... راحت ينافس فيها الخل خُلان
ما للحسان مسيئات بنا ولنا ... إلى المسيئات طول الدهر تحنان
وإن تُبعن بعهد قلن معذرة ... إنا نسينا وفي النسوان نسيان
يكفي مطالبنا بالذكر ناهية ... أن اسمنا الغالب المشهور نسوان
لا نلزم الذكر أنا لم نسمّ به ... ولا مُنِحناه بل للذكر ذكران
فضل الرجال علينا أن شيمتهم ... جود وبأس وأحلام وأذهان
وأن فيهم وفاءً لا تقوم به ... ولن يكون مع النقصان رجحان
صدقن ما شئن لكنا تقنصنا ... منهنِ عين تلاقينا وأَدمان (٢)
أنكى وأزكى حريقا في جوانحنا ... خلق من الماء والألوان نيران
إذا ترقرقن حريقا في جوانحنا ... خلق من الماء والألوان نيران
إذا ترقرقن والإشراق مضطرم ... فيهن لم يملك الأسرار كتمان

(١) الكلمك الجرح. وقرف الجرح إصابته من جديد.
(٢) عين جمع عيناء وهي جميلة العين، والأمادن الظباء.

ماء ونار فقد غادرن كل فتى ... لابسن وهو غزير الدمع حران
تخضل منهن عين فهي باكية ... ويستحر فؤاد وهو هيمان

وقال فتى في ابنة عمه، وقد تجنت عليه وغدرت به:

أأحبابنا لو تعلمون بحالنا ... لما كانت اللذات تشغلكم عنا
تشاغلتمُ عنا بصحبة غيرنا ... وأبديتم الهجران ما هكذا كنا
وآليتم أن لا تخونوا عهودنا ... فقد وحياة الحب خنتم وما خنا
غدرتم ولم نغدر وخنتم ولم نخن ... وحُلتم عن العهد القديم وما حلنا
وقلتم ولم توفوا بصدق حديثكم ... ونحن على صدق الحديث الذي قلنا

وكان صخر بن عمرو أخو الخنساء، يحب سلمى بنت عوف ثم تزوجها؟ وتعاهدا على أن لا يتزوج واحد منهما بعد صاحبه، ثم طُعن في أحد الأيام. فمرض سنة كاملة. فقصرت زوجه في السهر عليه والرفق به. ولا كذلك أمه الرءوم. قالوا: وسمع يوما امرأة تقول لأمه: كيف حال صخر؟ فقالت: نحن بخير ما دمنا نرى وجهه. وسمع أخرى تقول لامرأته كيف حال صخر؟ فقالت: لا حي فيرجى. ولا ميت فينعى !! وحكي أنه جلس يوما ليستريح وقد رُفع له سجف البيت، فرأى سلمى واقفة تحادث رجلا من بني عمها وقد وضع يده على عجيزتها، فسمعه يقول لها: أيباع هذا الكفَل؟ فقالت عن قريب ! فقال صخر لأمه: علي بسيفي، لأنظر هل صدئ أم لا. فأتته به فجرّده، وهم بقتل سلمى. فلما دخلت رفع السيف فلم يستطع حمله. فبكى وقال:

أرى أم صخر لا تملّ عيادتي ... وملت سُليمي مضجعي ومكاني
فأي امرئ ساوى بأم حليلة ... فلا عاش إلا في شقا وهوانِ
أهمُّ بأمر الحزم لو أستطيعه ... وقد حيل بين العَير والنزوان
وما كنت أخشى أن أكون جنازة ... لديك ومن يغتر بالحدثان

ويذكرون أن غسان بن جهضم كان مفتونا بابنة عمه، ثم تزوجها، فلما حضره الموت حلفت لا تتزوج من بعده، ثم حنثت في يمينها، فأنشدها في نومها ليلة الزفاف:

غـدرتِ ولم ترعَـي لبعلـك حرمـةً ... ولم تعـرفي حقـا ولم تحفظـي عهـدا
ولم تـصبري حـولا حِفاظـا لـصاحب ... حلفـتِ لـه يومـا ولم تنجـزي وعـدا
غـدرتِ بـه لمـا ثـوى في ضريحـه ... كـذلك يُنسى كـل من سكن اللحـد!

ويذكرني هذا الشعر بقول أبي العتاهية:

إذا ما انقضت عني من العيش مدتي ... فـإن غنـاء الباكيـات قليـل
سيعرض عن ذكري وتُنسى مودّتي ... ويحـدث مـن بعـد الخليـل خليـل

وهذه طبيعة العالم يا صاح، فاقض من أوطارك ما أنت قاض، واترك الوهم للمجانين!!

* * *

ميزان الحب [١]

ميزان الحب فيما يرى جميل أن يهب المحب لمحبوبه دمه وماله، وانظر كيف يقول:

لحا الله من لا ينفع الود عنده ... ومن حبله إن مُدّ غير متينِ
ومن هو ذو لونين ليس بدائم ... على ثقة خوان كل أمين
فلو أرسلت يوما بثينة تبتغي ... يميني ولو عزت عليّ يميني
لأعطيتها ما جاء يبغي رسولها ... وقلت لها بعد اليمين سليني
سليني مالي يا بثين فإنما ... يبينُ عند المال كل ضنين
فما لك لما خبر الناس أنني ... أسأت بظهر الغيب لم تسليني
فأبلى عذرا أو أجيء بشاهد ... من الناس عدل إنهم ظلموني
فليت رجالا فيك قد نذروا دمي ... وهموا بقتلي يا بثين لقوني
إذا ما رأوني طالعا من ثنيةٍ ... يقولون من هذا؟ وقد عرفوني!

* * *

(١) في كتاب «الأخلاق عند الغزالي» بحث مفصل عن الحب من الوجهة الفلسفية، فليرجع إليه القارئ إن شاء.

الليالي الخوالي

وما أكثر حنين الشعراء إلى الأيام السوالف، والليالي الخوالي!!

ويذكرون أن المتوكل أحب أن ينادمه الحسين بن الضحاك، ليرى ما بقي من ظرفه، وشهوته لما كان عليه. فأحضره وقد كبر وضعُف، فسقاه حتى سكر وقال لخادمه شفيع: اسقه! فسقاه وحياه بوردة وكانت على شفيع أثواب موردة فمد الحسين يده إلى درع شفيع. فقال المتوكل: أتجسّ غلامي بحضرتي؟ فكيف لو خلوت به! ما أحوجك يا حسين إلى أدب! وكان المتوكل غمز شفيعا على العبث به، فقال الحسين: يا سيدي! أريد دواة وقرطاسا. فأمر له بهما فكتب:

وكالوردة البيضاء حيا بأحمرِ ... من الورد يسقى في قراطق كالورد
لهُ عَبثاتٌ عند كل تحيةٍ ... بكفيه يستدعي الخلي إلى الوجدِ
تمنيت أن أَسقى بكفيه شربة ... تذكرني ما قد نسيت من العهد
سقى الله عيشا لم أبت فيه ليلة ... من الدهر إلا من حبيب على وعد

فطرب المتوكل لهذا الشعر، وهم بتقديم الغلام إليه، لو كان مما تسمح بمثله النفس!!

وانظر ما يقول ابن هانئ في ذكرى أيامه السوالف:

قمنَ في مأتمٍ على العشاقِ ... ولبسن السواد في الأحداق
وبكين الفراقَ بالضم الرطـ ... ـب المقَنا وبالخدود الرِّقاقِ
ومنحن الفراق رقة شكوا ... هنّ حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دمـ ... ـعٌ طليقٌ ومهجة في وثَاق
حاربتهم نوائب الدهر حتى ... آذنوا بالفراق قبل التلاقي

ودنـوا للـوداع حتـى تـرى الأجـ ـياد فـوق الأجيـادِ كـالأطواق
يـوم راهنـتُ في البكـاء عيونـا فتقـدمتُ في عنـان السِّباق
أمنـع القلـب أن يـذوب ومـن يمنـ ـع جمـر الغـضى عـن الإحـراق
ربّ يـوم لنـا رقيـق حـواشي اللهـ ـو حـسنا جـوال عقـد النطـاق
قـد لبـسناه وهـو مـن نفحـات الـ ـمسك درع الجيـوب درع التراقـي

وما أوجع قول ابن الرومي في البكاء على لياليه الخوالي:

أأيـام لهـوي هـل مواضـيك عُـوّدُ وهـل لـشبابٍ ضـلّ بـالأمس مُنـشِدُ
رُزئـتُ شـبابي عـودةً بعـد بـدأةٍ وهـنّ الرزايـا بادئـاتٌ وُعـوّد
سـلبتُ سـواد العارضـين وقبلـهُ بياضـهما المحمـود إذ أنـا أمـرد
وبُـدلتُ مـن ذاك البيـاض وُحـسنه بياضـا ذميـما لا يـزال يُـسوّد
لـشتان مـا بـين البياضـين: معجـبٌ أنيـق ومنـشوءٌ إلى العـين أنكـد
وكنـت جـلاء للعيـون مـن القـذى فقـد جعلـت تقـذي بـشيبي وترمَـد
هي الأعين النُّجل التي كنت تشتكي مواقعهـا في القلـب والـرأس أسـود
فمالـك تأسـى الآن لمـا رأيتهـا وقـد جعلـت مرمـى سـواك تعمّـد
تـشكي إذا مـا أقـصدتك سـهامها وتأسـى إذا نكـبن عنـك وتكمـد
كـذلك تلـك النبـل مـن وقعـت بـهِ ومـن صرفـت عنه مـن القـوم مُقـصد
إذا عـدلت عنـا وجـدنا عـدولها كموقعهـا في القلـب بـل هـو أجهـد
وبيـضاء يخبـو دُرُّهـا مـن بياضـها ويـذكو لـه ياقوتهـا والزبرجـد
إذا مـا التقـى الـسكران: سكر شبابها وأكوابهـا، كـادت مـن اللـين تعقـد
لهـوت بهـا لـيلا قـصيرا طويلـه ومـا لي إلا كفهـا متوسـد
وكـم مثلهـا مـن ظبيـةٍ قـد تفيـأت ظِـلالي وأغـصان الـشبيبة مُيّـدُ

ليالي سنتريس [١]

وقد أكثر صاحب البدائع من الحنين إلى سنتريس، وهي مهوى قلبه، مُنيةُ روحه، إذ كانت ملعب صباه، وميدان لهوه، في أيامه السوالف، ولياليه الخوالي!

وانظر كيف يقول:

ليـــالي النيـــل واللـــذات ذاهبـــةٌ ... وجـدي علـيكن أشـجاني فأضـناني
لـو يرجـع الـدهر لي مـنكنّ واحـدةً ... في ســنتريس ويُـدني بعــض خــلان
إذا تبـــين دهـــري كيـــف يرحمنـــي ... مـن ظلـم همـي مـن عـدوان أحـزاني
كـــم ليلـــة لي بـــذاك النهـــر ســـالفةٍ ... قـــضيتها بـــين غـــاداتٍ ووِلـــدانِ

* * *

وذي دلال هـــو الـــدنيا وزينتهـــا ... يُـردي الأسـود بطـرف منـه نعـسانِ
كـــأنما فعـــل عينيـــه بعاشـــقه ... فعـل المدامـة في أعطـاف نـشوان
شربـت مـن ريقـه راحـا مشعـشعةً ... بخـالص الـوُد لم تمـزج بـسُلوان
وكـم حبيـبٍ بـراح الريـق أسـكرني ... وكـم جميـلٍ بـورد الخـد حيّـاني

* * *

يـا مُوقـد النـار في قلبـي مؤججـةً ... وقاطنـا بـين أنهـار وريحـانِ
عـرّجْ عـليّ فـما نفـسي بـصابرةٍ ... عـلى نـواك ومـا طـرفي بوسـنان

وإليك قوله من كلمة ثانية:

---

(١) في مقدمة كتاب (حب ابن ربيعة وشعره) وصف شائق لهذا البلد الطيب الجميل.

إيـــهٍ يـــا فتنـــة الوجـــود ســـلامٌ ... مـــن مَـــشوقٍ متـــيم القلـــب عـــانِ
لـــو يـــشاء الهـــوى حوتـــكِ ضـــلوعٌ ... حـــائماتٌ عـــلى صِـــباكِ حـــواني
فـــارحمي فانيـــا مـــن الوجـــد يـــشقى ... بغـــرامٍ مـــؤججٍ غـــير فـــان
رنقـــت وردَه الليـــالي فأمـــسى ... يرقـــب الـــصفو مـــن خِـــلال الأمـــاني

* * *

آه لـــو يـــسمح الزمـــان ونلقـــى ... مـــن طـــوى قـــربهم عِنـــاد الزمـــانِ
وتـــرى ســـنتريس والـــدهر غـــافٍ ... مـــا قـــضينا مـــن الليـــالي الحـــسان
حـــين كنـــا مـــن الـــسرور نـــشاوى ... في نجـــاة مـــن النـــوى وأمـــان
نتـــساقى الحـــديث عـــذبا شـــهيا ... وقطـــوف المنـــى رِطـــابٌ دواني
يـــا خلـــيليّ والرفيـــق معـــينٌ ... أســـعفاني بـــبعض مـــا تملكـــان
أبتغـــي آســـيا فقـــد عيـــلَ صـــبري ... مـــن تـــوالي الوجيـــب والخفقـــان
أبتغـــي صـــاحبا تولـــهَ قـــبلي ... وشـــجاه مـــن الجـــوى مـــا شـــجاني
فلقـــد يُـــسعف الجـــريح أخـــاهُ ... ويـــواسي الزميـــل في الأحـــزان

* * *

وقد لحّن هذه القصيدة البلبل الغريد الشيخ عبد السميع عيسى الباجوري وما أروع شعر الوجدان إذا غني بمثل صوته العذب الجميل!!

* * *

صبا نجد

وما أشوق القلب إلى شميم صبا نجد! فقد حببه إلينا الشعراء حتى لنجد (صردُر) يرى المرور بنجد شركا من أشراك الهوى، حين يقول:

النجـــاءَ النجـــاءَ مـــن أرض نجـــدِ ... قبـــل أن يعلـــق الفـــؤاد بوجـــدِ
إن ذاك الثـــرى لينبـــت شـــوقا ... في حـــشا ميـــت اللبابـــات صَـــلْد
كـــم خـــلي غـــدا إليـــه وأمـــسى ... وهـــو يهـــذي بعلـــوةٍ أو بهنـــدِ
وظبـــاءٍ فيـــه تُلاقـــي المُـــوالي ... والمعـــادي مـــن الجـــمال بجُنـــد
بـــشتيت مـــن المباســـم يغـــري ... وســـقامٍ مـــن المحـــاجر يعـــدي [1]
وبنـــانٍ لـــولا اللطافـــة ظنـــت ... لجناياتهـــا بـــراثن أُســـدِ
وحـــديث إذا ســـمعناه لم نـــد ... رِ بخمـــرٍ نـــضحننا أم بـــشهد
أنِفَـــتْ مـــن براقـــع الخـــزّ والقـــز ... خـــدودٌ قـــد برقعوهـــا بـــوردِ

ويقول الطغرائي:

يـــا حبـــذا نجـــدٌ وإعـــراق الثـــرى ... لـــدنٌ وأنفـــاس النـــسيم رقـــاق
فهـــواؤه خـــصِرُ النـــسيم وتربـــهُ ... حـــالي الأديـــم ومـــاؤه رقـــراق
وبـــساكنيه إن اســـتقر بنـــا النـــوى ... تـــشفي النفـــوس وتُمـــسك الأرمـــاق

ويقول ابن الخياط:

خـــذا مـــن صـــبا نجـــدٍ أمانـــا لقلبـــهِ ... فقـــد كـــان رياهـــا يطـــير بلبـــه
وإيـــاكما ذاك النـــسيم فإنـــه ... إذا هـــب كـــان الوجـــد أيـــسر خطبـــه

(١) المراد بالمبسم الشتيت الثغر المفلج.

خلـــيليّ لـــو أحببـــتما لعلمتـــا ... مكـان الهـوى مـن مغـرم القلـب صـبه
تـذكروا الـذكرى تـشوق وذو الهـوى ... يتـوق ومـن يعلـق بـه الحـب يـصبه
غـرامٌ عـلى يـأس الهـوى ورجائـه ... وشـوق عـلى بعـد المـزار وقربـه

وقال ابن التعاويذي:

يـا رفيقـي هـل لـذاهب أيـا ... مٍ تقـضَّت حميـدةً مـن مـردّ
أنجـداني بوقفـة في مغـاني الـ ... ـحي إن جزتمـا بـأعلام نجـدِ
وابكيـاه بمقلتـي واسـألاها ... مـن سـقاها مـاء المـدامع بعـدي
جنبـا عنـدها مـصارع مـن مـا ... ت بـداء الغـرام فالـشوق يعـدي
فبأكنافهـا جـآذرُ رمـلٍ ... بـين أثوابهـا بـراثن أَسْـد

❊ ❊ ❊

جناية العين والقلب

من الشعراء من يرى أن عينه سبب بلائه، كقول خالد الكاتب:

أعان طرفي على جسمي وأحشائي ... بنظرةٍ وقفت جسمي على دائي
وكنت غرّا بما يجني على بدني ... لا علم لي أن بعضي بعض أدوائي

ومثله قول الأرجاني:

تمتعا يا مقلتيّ بنظرة ... وأوردتما قلبي أشر المواردِ
أعيني كُفا عن فؤادي فإنه ... من البغي سعي اثنين بي قتل واحد

ويرى الشريف الرضي أن قلبه سبب شجاه، ويقول:

قلب كيف علقت في إشراكهم ... ولقد عهدتك تفلت الأشراكا
أكثبتَ حتى أقصدتك سهامهم ... قد كنت عن أمثالها أنهاكا
إن ذبت من كمد فقد جر الهوى ... هذا السقام عليّ من جرّاكا
لا تشكونّ إليّ وجدا بعدها ... هذا الذي جرت علي يداكا
لاعاقبنك بالغليل فإنني ... لولاك لم أذق الهوى لولاكا

ويأسي صردر على أن كانت أجفانه حجاب قلبه، ويقول:

لواحظنا تجني ولا علم عندها ... وأنفسنا مأخوذةٌ بالجرائر
ولم أر أغبى من نفوس عفائفٍ ... تصدق أخبار العيون الفواجر
ومن كانت الأجفان حجاب قلبه ... أذن على أحشائه للفواقر

وقال ابن الأحنف يشكو ظلم قلبه وحبيبه:

يهيم بجيران الجزيرة قلبهُ ... وفيها غزال فاتر الطرف ساحره
يؤازره قلبي عليّ وليس لي ... يدان بمن قلبي عليّ يؤازره

قضاء الله

ونختم هذا الكتاب بقول صاحب البدائع:

قـالوا عـشقت فقلـت كـم مـن فتنـة ... لم تغـــن فيهـــا حكمـــة الحكـــماءِ
إن الـــذي خلـــق الملاحـــة لم يـــشأ ... إلاّ شـــقائي في الهـــوى وبلائـــي

ولله الأمر من قبلُ ومن بعد!

فهرس

الإهداء ٣
مقدمة الطبعة الأولى ٥
مذاهب النسيب ١٥
موجبات الدموع ١٦
عذر أرباب الدموع ٢٣
الاكتفاء بالدموع ٢٥
الفزع إلى الدموع ٢٧
الدمع عند الوداع ٣٠
الدمع بعد الفراق ٣٤
شكوى الصبابة ٣٨
عند منازل الأحباب ٤٦
وشاية الدموع ٦٣
سلطان الحب ٦٦
غرام النساء بالنساء ٧٢

طيف الخيال ٧٦
خيال البحتري..... ٧٩
طرف أدبية ٨٧
اليأس والرجاء ٨٩
العتاب ٩٢
نوح الحمام ١٠٩
التقرب بالدموع ١١٦
ثورة الوجد.....١٢٠
الأرق والسهاد ١٢٧
الطبيعة في أنفس الشعراء.....١٣٦
مداراة الرقباء.....١٤١
بخل الحسان.....١٤٤
الأمر للحب.....١٤٨
حمل السلام.....١٥٠
دموع الغانيات.....١٥٤
ندم المفارق.....١٥٩
غربة المحب ١٦٥
الأمل الضائع.....١٦٧

الكتمان ١٧١
طرفة أدبية ١٧٧
قسوة التجني ١٧٨
ظلم الحبيب ١٨١
قساة القلوب ١٨٤
سيف الفراق ١٨٧
الهرب من الفراق ١٩٠
غراب البين ١٩١
فقد العزاء ١٩٢
بكاء الشباب ١٩٥
بلايا الغيرة ١٩٨
الاستعطاف ٢٠٢
الحنين ٢٠٩
الرفق بالحبيب المريض ٢١٥
الذبول والنحول ٢١٧
أماني المحبين ٢٢٠
الهيبة والخضوع ٢٢٤
الرضى بالقليل ٢٢٦

شفاء المحب ٢٢٨
القلب الخافق ٢٣٠
مثال الحبيب ٢٣٢
أهوال الصدود ٢٣٤
التلفت إلى معالم الوجد ٢٣٦
الصد والنوى ٢٣٨
القريب والبعيد ٢٣٩
حلاوة الملام ٢٤١
رؤية الضمير ٢٤٣
القلب والكبد ٢٤٥
بكاء الملاح ٢٤٧
بكاء الحلائل ٢٥٤
لوعة الشوق ٢٥٦
راحة السلوان ٢٦٠
غدر الغواني ٢٦٢
ميزان الحب ٢٦٦
الليالي الخوالي ٢٦٧
ليالي سنتريس ٢٦٩

صبا نجد ٢٧١
جناية العين والقلب ٢٧٣
قضاء الله ٢٧٤